التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني

الجزء الاول : عهد الانتداب

نبيل أيوب بدران



منظمة التحرير الفلسطينية — مركز الأبحاث
بيروت

آب (اغسطس) ١٩٦٩

Nabil Ayoub Badran,
Education and Modernization
in Palestine, 1918-1948,
Palestine Monographs No. 63,
Palestine Liberation Organization,
Research Center,
Colombani St., off Sadat St.,
Beirut, Lebanon.

محتويات الكتاب

الصفحة

تمهيد

ان الانسان الفلسطيني الجديد ، الثائر المناضل بسلاحه او بفكره او بقلمه او بماله ، انما هو نتاج المجتمع العربي الفلسطيني المتطور الذي تعرّض ، في تطوره خلال ثلاثة ارباع القرن ، الى مؤثرات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية لا تزال تحتاج الى درس وتفحص عميقين (بل انها ، في بعض الاحيان ، لا تزال تحتاج الى تسجيل اولي ايضا وقبل كل شيء) . ويظل بحثنا في حاضر هذا الانسان الفلسطيني الجديد الثائر المناضل ناقصا وضعيف الاساس ما لم تدرس اولا الاوضاع الاساسية لمجتمع قبل الثورة الفلسطينية المعاصرة ، وعلى الاقل مجتمع النصف الاول من هذا القرن .

وقد سبق لمركز الابحاث ان اصدر كتابين حاولا التعرّض للمجتمع الفلسطيني ورصد جوانب منه كما كانت في الخمسين سنة الماضية : كتاب الباحث ناجي علوش « المقاومة العربية في فلسطين » الذي تتبع فيه الثورات الشعبية المتواصلة ايام الانتداب البريطاني ، وكتاب الباحثة يسرى جوهرية عرنيطة « الفنون الشعبية في فلسطين » الذي سجلت فيه اهم فنون فلسطين الشعبية (وكلاهما في سلسلة كتب فلسطينية ، رقما ٦ و ١٤ ، بالعربية) .

والكتاب الجديد محاولة رائدة في تطور التعليم في

فلسطين ايام الانتداب ، وعلاقة هذا التطور باوضاع المجتمع السياسية واثره في تحديث المجتمع بشكل عام ، ونرجو ان ننشر ، في العام القادم ، جزءا ثانيا لهذه الدراسة ، يعالج الموضوع نفسه في فترة بعد الانتداب ، اي في العشرين سنة الاخيرة .

واود ان اكرر ، في تقديم هذا الكتاب ، ما كنت قد قلته في مقدمة كتاب الاستاذ علوش آنف الذكر ، وهو ان عرب فلسطين اليوم في اشد الحاجة الى النظر في اوضاع الماضي وتجربته ليساعدهم ذلك في تحقيق النصر الذي فاتهم في الماضي . ولذلك ليس المقصود من ذكر بعد الاخطاء او التقصيرات او الضعفات السابقة الطعن برجال الماضي بقدر ما نقصد الاعتبار للحاضر والمستقبل – والمعركة مع العدو ، على تطورها وتفرعاتها ، معركة واحدة وهي اليوم كما كانت في الامس ، ضد الاطماع ذاتها ولتحقيق الاهداف ذاتها .

وبقدر ما يهم مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ان يسهم في درس موضوع خطير كهذا ، يحرص ان يترك للكاتب الحرية في التعبير عن ارائه وملاحظاته دون ان يتبنّى المركز جميع هذه الآراء والملاحظات ، ودون ان يحمّل نفسه او منظمة التحرير الفلسطينية مسؤولية هذه الآراء والملاحظات .

انيس صايغ

المدير العام لمركز الابحاث

مقدّمة

تميزت الحقبة السابقة من حياة الشعب الفلسطيني ، خصوصا قبل ١٩٦٥ بثلاث خصائص رئيسية :

اولا : التشرد وما نتج عنه من تنقل متتابع .

ثانيا : انتشار العلم بشكل واسع ، والتوجه بأعداد كبيرة نحو التعليم العالي والتخصص .

ثالثا : تحوّل النقمة السياسية الى التزام سياسي ، ترك اثره في جميع التنظيمات السياسية العربية .

واذا امعنا النظر نجد ان العلم ونتائجه اثر على مجمل الحياة الاقتصادية والسياسية عند الشباب الفلسطيني ، خصوصا اذا ادركنا ان الحياة الحزبية كانت ولا تزال مجمدة نسبيا في اطار الطلبة والمتخرجين . كما ان ظاهرة العلم بحد ذاتها تدل على تطور في المجتمع الفلسطيني تنعكس على مسلك الفرد الفلسطيني . ولا بد من التنويه ان ظاهرة التعليم ليست مميزة فقط للشعب الفلسطيني ، بل يشهدها العالم العربي والعالم الثالث بأجمعه . ولكن ظاهرة التعليم لدى الشعب العربي الفلسطيني تأخذ اهمية خاصة ، كونها تمثل جهدا اجتماعيا كبيرا امام المشكلة الاقتصادية ، ولذا فان اية دراسة لظاهرة التعليم تستطيع مساعدتنا على تفهم قدر

كبير من مسلك الفرد الفلسطيني ، والبواعث المادية والفكرية « للركض وراء التعليم » .

وفي نطاق مأساة تشرد الشعب الفلسطيني وتبعثره الشعبي والتنظيمي ، يصبح درس « ظاهرة التعليم » تحليلا لبعض جوانب تطور المجتمع الفلسطيني في الحقبة الماضية .

الا ان اية دراسة لظاهرة التعليم في الظروف الحاضرة خصوصا من الناحية الاجتماعية ، تفرض بالحاح الاهتمام بمعرفة تأثير التعليم على التفكير العام ، اي مدى تطور التفكير لدى الشعب الفلسطيني واستيعابه لعملية التحديث ، اي التغيير الكامل في نمط حياته وتصرفه . واصبحت عملية التحديث قضية مصيرية لدى الشعب الفلسطيني بل لدى الشعب العربي عامة ، فالعدوان الامبريالي الصهيوني على مشرقنا العربي ، يتطلب منا بذل جهود كبيرة لمقاومة هذا الوجود العدواني .

اكدت الهزائم السابقة ان تفكيرنا واستراتيجية المقاومة والنصر قد فشلا . واذا رفع شعار الحرب الشعبية ، فليس فقط يأسا من تصرفنا التقليدي ، بل ادراكا لابعاد المؤامرة الامبريالية الصهيونية ، وللامكانات الذاتية امام التفوق التقني المكثف للعدو . وتتجسد هذه الامكانات في الجماهير الشعبية صاحبة المصلحة الحقيقية من التحرر الكامل .

تمكث قوة الجماهير في تنظيمها واستعدادها المتناهي للتضحية وتفهم متطلبات النضال الطويل الامد . واستنادا الى ذلك يجب تحويل عفوية الجماهير الى استيعاب كامل

لاهداف النضال ومستلزماته ، وبما ان الفرد التقليدي اظهر عجزا في تحمل اعباء المقاومة ، يجب ايجاد الفرد الجديد ، القادر على تحمّل مشقات النضال الطويل .

والكادر الثوري قادر ، اذا ما استوعب العوامل الموضوعية والذاتية التي تحرك الجماهير ، الى افراز هذا الفرد الجديد بتغيير هذه العوامل لتضمن هذا الافراز . ليس هناك مكان للتفكير الغيبي لدى الكادر الثوري ، اذ انه يؤمن ايمانا كبيرا بتغيير المعطيات الموضوعية والذاتية ومنها حركة الجماهير ومسلك الفرد ، فتحلّيه بالتفكير العلمي الشامل ، امر حيوي له ، اذ بدونه لا يستطيع قيادة الجماهير ، بل لا يستطيع الحياة .

فلذا تصبح دراسة «التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني » هي في الوقت نفسه دراسة للطليعة الثورية الفلسطينية ومدى تأثيرها على تغيير مسلك الشعب الفلسطيني ودفعه ايجابيا في طريق النضال الشامل . فالعلاقة اذن بين الشعب الفلسطيني والعلم علاقة ديالكتيكية ، اي تأثير العلم على المجتمع الفلسطيني وتأثير هذا المجتمع على نمط العلم ونموه .

فدراسة ظاهرة التعليم لدى الشعب الفلسطيني معناها :

اولا : معرفة مدى انتشار التعليم .

ثانيا : معرفة البواعث المادية والفكرية وراء هذا الانتشار .

ثالثا : معرفة نتيجة هذا الانتشار في ايجاد المجتمع الحديث .

رابعا : معرفة الامكانات الجديدة التي افرزها انتشار التعليم والتطور نحو المجتمع الجديد .

خامسا : استخلاص صورة اولية لتطور المجتمع الفلسطيني بعد النكبة .

سادسا : معرفة بعض المعطيات القادرة على افراز الكادر الثوري .

سابعا : المساهمة في معرفة بعض جوانب حركة الشعب العربي وشعوب العالم الثالث عامة .

ثامنا : معرفة بعض علل نظام التعليم في مجتمعنا الحالي ، بالنسبة لأهداف المجتمع .

تؤكد لنا هذه الفوائد اهمية مثل هذا البحث عن التعليم والشعب الفلسطيني ، ولكن تتطلب الامانة العلمية والنضالية صدقا في البحث والاستنتاج . لذا فان اي عمل سريع معتمد على بعض المعلومات المتوفرة ، لا يفيد الا القليل . ان تحليلا مثل هذا يتطلب تجميع جميع الاحصاءات الممكنة في بادىء الامر : احصاءات التعليم لدى وكالةاغاثة اللاجئين ، احصاءات التعليم في الاردن وغزه ولبنان وسوريه والكويت ، احصاءات التطور في التعليم العالي ، احصاءات عن نتائج التوسع في التعليم الابتدائي والثانوي والعالي ، المعلمون والمتخرجون ، احصاءات عن التعليم المهني .

يجب القيام بعد ذلك بدراسات ميدانية عن مسلك الفرد من خلال علاقته بالتعليم : الاهل وحماسهم لتعليم اولادهم ، المتعلمون ونظرتهم لمشاكلهم الفردية والقومية ، دراسة التأثير السياسي لفئات المتعلمين على تطور النضال الفلسطيني .

يحتاج جمع الاحصاءات والمعلومات الى عمل جماعي

منظم . اذ ان اعباء الجمع تفوق قدرة اي فرد هاو بل ويعجز الفرد المتفرغ عن تجميعها في مدة معقولة .

لا تعتني الدراسة الحالية بالمرحلة الحاضرة بل تسعى الى التحضير لها ، بتحليل خلفيات تطور ما بعد ١٩٤٨ ، خصوصا وحركة الشعوب لا تسير اعتباطيا بل تأخذ مسيرتها من معطيات الحقبة الماضية ، وفق القوانين التاريخية التي تؤكد وحدها سير مجتمع ما .

كما تساعدنا دراسة تجربة ما قبل ١٩٤٨ ، على استخلاص طريقة عمل لدراسة الحاضر ، وتساعدنا على فهم بعض معطياته .

وتوازيا مع المسعى لايجاد نموذج لطريقة العمل واستخلاص خلفيات التطور الحالي ، نستفيد من تحليل ما قبل ١٩٤٨ لادراك الكثير من النقاط التي لم تؤخذ حتى الآن بعين الاعتبار ، واهم هذه النقاط دراسة التكوين الطبقي للشعب الفلسطيني وتأثير ذلك على نمو التفكير العلمي ونشاط المثقفين .

ان النقاط الثماني السابقة والايضاحات السالفة الذكر بشأن موضوع التعليم والشعب الفلسطيني قبل ١٩٤٨ ، تكوّن للبحث الحالي خطة للعمل . اعتمادا على هذه الخطة ، يتبلور التقسيم الآتي :

أ ـ دراسة المجتمع الفلسطيني قبل الانتداب .

ب ـ دراسة تطور التعليم حتى ١٩٤٨ .

ج ــ دراسة الصراع بين العرب وحكم الانتداب حول التعليم .

د ــ دراسة تطور المجتمع الفلسطيني خلال عهد الانتداب .

هـ ــ تأثير التعليم على التفكير السياسي الفلسطيني .

ولا بد من التنويه الى ان بحثنا عن المجتمع العربي الفلسطيني سيرتكز في كثير من جوانبه الى تحليل المجتمع العربي مع ادراك التطور الخاص للمجتمع الفلسطيني، حسب المعطيات الموضوعية. من هذه المعطيات : تأثير الانفتاح على الغرب عن طريق الحجاج والاجانب عامة (الالمان ــ الارساليات ــ المستعمرات الصهيونية) وعن طريق الاغتراب ، تأثير الصراع القومي الحياتي على الوضع الحضاري . ولكن هذه المعطيات ليست بحاسمة بل نسبية ووقتية ، لذا يستطيع المرء تعميم نتائج تحليل المجتمع الفلسطيني والصراع الفكري الاجتماعي الذي رافقه ، على مجمل المجتمع المشرقي العربي ، خصوصا في سوريه . اذ ان وحدة سوريه السابقة والتقارب النسبي بين الكثير من اجزائها ، والتأثير السياسي المباشر بين احزابها، تؤكد تشابه التطور مع بعض الاختلافات الثانوية الخاصة بكل منطقة جغرافية سياسية .

سيأخذ البحث اذن بعين الاعتبار الوحدة الاساسية في المجتمع العربي المشرقي ، وسيعتمد على نتائج الابحاث في هذا المجتمع لتحليل الكثير من جوانب تطور المجتمع الفلسطيني، ولكن في نطاق الربط العضوي وليس الميكانيكي ، اي استنادا الى ظواهر في المجتمع الفلسطيني تؤكد الاستنتاجات العامة، وليس نقلا مجردا حبا في الاسراع والتعمق الوهمي في

البحث . وسيدرك البحث الحالي هذه العلاقة الوحدوية ، ويعطي للنتائج بصفة غير مباشرة بعض التعميم وهذا يعني الاستفادة من هذه النتائج لمعرفة بعض جوانب المجتمع العربي عامة . ولكن لن تعمم هذه النتائج رسميا بل يترك للباحثين والمهتمين عامة بتحليل المجتمع العربي ، تقدير هذه النتائج .

الفصل الاول

المجتمع الفلسطيني قبل الانتداب البريطاني

هزت الحرب العالمية الاولى المجتمع العربي المشرقي ، كما غيّرت من الخريطة السياسية . اذ دخل الشعب العربي بعد هذه الحرب في عملية تحوّل ومعرفة للذات القومية بشمول لم يكن متصوّرا قبل الحرب ، مؤكدة خط السير سابقا ولكن سرعة التحول لم تكن مرئية .

لم يكن هذا التحوّل انقلابا في تكوين المجتمع العربي بل افرازا سريعا لقوى جديدة ، غير منسلخة عن القوى التقليدية . وفي الوقت نفسه سارعت القوى التقليدية في تطوير نفسها ، بشكل اسرع من قبل لضمان نفوذها . نتيجة للتطور الاقتصادي ، المتأثر بالعوامل الخارجية والداخلية ، اجبر المجتمع العربي على تغيير الكثير من مسلكه ومفاهيمه نسبيا . فبان ذلك في حياته اليومية ، كمثل انتشار اللباس العربي وحب تعليم الابناء تعليما حديثا .

مع اعترافنا بهذا التغيير وادراك ابعاده ، لا بد من التأكيد على ان النتائج الحقيقية لهذا التغيير ستأتي مع الثلاثينات ، اي مع انتشار النمط الاقتصادي الحديث والجهاز الحكومي والتعليم ، خصوصا مع نمو القوى العلمانية .

مع بدء الحكم الاستعماري البريطاني لفلسطين ، كان

المجتمع الفلسطيني ما يزال محافظا على طابعه التقليدي ، اذ بقيت القوى الاجتماعية السابقة ، بالرغم من هذه الحرب في مواقعها ، ولكن التراكم الحضاري، الذي حصل خلال الاربعين سنة الاخيرة من الحكم العثماني ، ساهم في الاسراع بنشر التغيير او التحديث بعد الحرب . ان دراسة المجتمع الفلسطيني قبل الحرب ، لن تكون بحثا استطلاعيا « ستاتيكيا » ، بل تسعى الى فهم هذا المجتمع من خلال تطوره وقوة مراكز طبقاته وفئاته . سيساعد تحليل الخلفية الاقتصادية الجزئية والشاملة على معرفة الهيكل الاجتماعي عند بدء الانتداب .

ولكي يصبح من المستطاع تكوين صورة واضحة لهذا المجتمع ، سنقسم هذا الفصل الى قسمين :

اولا : تحليل التكوين الطبقي .

ثانيا : تحليل الوضع الفكري .

القسم الاول : التكوين الطبقي للشعب الفلسطيني حتى الانتداب الانجليزي

بعد دخول الفكر الثوري على المجتمع العربي ، وبدء الالحاح في رفض الاستغلال الطبقي واحلال العدالة الاجتماعية ، نجد الكثير من الرجعيين والمحافظين يتجنبون استعمال كلمة طبقة ، وفسروا « طبقات » الشعب بمعنى « فئات » الشعب ، في حين كانوا سابقا يفتخرون بالحديث عن الطبقية والتشديد على الانتساب الطبقي . ان تغيير معاني الكلمات ، والتغيير الاجباري او الطوعي في مسلك الزعامات

التقليدية ، لا يستطيع اخفاء ابعاد التصرف الاستعلائي واستغلال النفوذ المادي والمعنوي . قد يتغير المسلك الطبقي ، نتيجة اضمحلال قواعد الاستغلال والوجاهة ، ولكن ضمن المناخ العادي لهذا الاستغلال وهذه الوجاهة ، تظل العلاقات الطبقية باقية على حالها ، وتعجز « الوحدة الوطنية » عن اخمادها ، وان استطاعت التخفيف من حدتها الى حين .

يتميز التقسيم الطبقي في اوائل العشرينات بتعدد اسس الوجاهة ، تجاوبا مع هذه المرحلة التحولية ، فالوجاهة القديمة ما تزال تعيش مع الوجاهة الصاعدة ، اذ ان زعامات عديدة تراكمت خلال العهد التركي الاخير ، انعكاسا للتحول في طريقة الحكم ، وما افرزه التطور الاقتصادي الحديث من وجاهات جديدة . فالسؤال الآن : هل نستطيع نعت جميع هذه الوجاهات بطبقة مميزة ، الطبقة المستغلة ؟ الجواب على هذا السؤال سيكون محور بحث الصفحات القادمة . ولكن نستطيع منذ الآن ابراز النقاط التالية :

أ ـ فقد قسم من الوجاهة الاقطاعية القديمة نفوذه المادي، ولكن هذه الوجاهة بقيت متمسكة بذكريات وجاهتها .

ب ـ اتسم نمط الوجاهة التقليدية بالتنظيم العشائري ، فكانت بعض العشائر او العائلات الكبيرة تسيطر على غيرها ، ولكن كان هناك مع ذلك ، تفاوت في الزعامة داخل العشيرة او العائلة الكبيرة .

ج ـ بالرغم من امكانية ظهور رجال دين من عامة الشعب، فان الطابع الاكبر لهؤلاء ، خصوصا في المراكز

الحساسة ، كان الانتساب لعائلة معينة .

ومع طبقة الوجهاء التقليدية والحديثة ، بدات تظهر البرجوازية المتوسطة والصغيرة داخل الاطار الاقتصادي الجديد ، ودخل في الوقت نفسه النظام الحرفي التقليدي في ازمة حادة . وبدأت طبقة العمال والفلاحين تشعر بتطور في احوالها .

اولا : طبقة الوجهاء

عند بدء الانتداب البريطاني كانت طبقة الوجهاء في فلسطين غير متجانسة ، ما يزال القديم يزامل الحديث بالرغم عنه ، وفي الوقت نفسه ظلت بعض العائلات الوجيهة التقليدية ، مرتبطة بصورة وجاهتها القديمة بالرغم من التطور التحديثي الذي دخلت فيه واستحقت من نتيجته الوجاهة الحديثة ، ونستطيع القول ان قسما كبيرا من البرجوازية الكبيرة الجديدة لم يأت من عدم ، اي لم تفرزه بشكل آلي عملية التحديث او النظام الاقتصادي الجديد ، بل اعتمدت بعض العائلات الوجيهة القديمة على نفوذها وعلى موقعها الاجتماعي لتنطلق في المجال الجديد ، وتجني منه ، خصوصا من التنظيمات العثمانية الجديدة، مزيدا من الثراء والوجاهة. وسنتحدث عن هذه الحقائق من خلال تحليل فئات الوجهاء : الاشراف ، بقايا الاقطاع القديم ، الاقطاع الحديث .

أ ــ الاشراف

١ ــ كان للسلالة النبوية واحفاد قادة الجيش الاسلامي، منذ العهود الاولى ، منزلة خاصة لدى المسلمين ، فهم اشراف

القوم . ففي خلال الحكم العثماني اعترف بتنظيمهم واعطيت لهم امتيازات خاصة ، وتكوّنت لهم نقابات خاصة ، سمي رئيسها النقيب ، وظل تنظيمهم قائما حتى وقت قريب ، ففي سنة١٩٢٣ قدموا احتجاجا باسمهم ضد الانتداب البريطاني. وظهر نفوذهم الاكبر في مدينة القدس ، حيث ينتسب اليهم اكبر عائلاتها مثل الحسيني والخالدي والعلمي ... ويذكر الاستاذ احسان النمر امتيازاتهم حتى آخر عهد السلطان عبد الحميد (١) :

« ١ ــ محاكمة الاشراف في بيت سيادة النقيب .

٢ ــ ان يسجن الاشراف في بيت سيادة النقيب .

٣ ــ لا يسمح لاحد بوضع العمامة الخضراء اذا لم يكن من الاشراف وبموافقة سيادة النقيب .

٤ ــ لا يدفع الاشراف شيئا من الضرائب .

٥ ــ لا ينخرط الاشراف في الجردة حينما يدعو السلطان لذلك .

٦ ــ لا يشترك الاشراف بدفع شيء من التكاليف حينما تفرض من السلطان او الولاة » .

يتضح من ذلك ان عائلات الاشراف عرفت استقرارا ، لم تعهده اية فئة اخرى من الشعب، فحتى العائلات الاقطاعية

---

١ ــ النمر ، احسان : **تاريخ جبل نابلس والبلقاء** ، الجزء الثاني ، نابلس ١٩٦١ ، ص ١٥٨ .

الكبيرة كان عليها ان تتحمل في بعض الاحيان بطش الاستانة وولاتها . وفي عصر الجزار خشي اي شخص من العامة في المدن اظهار ثرائه كي لا يسلب منه . وبما ان اكثر العائلات الشريفة سعت الى خدمة الدين والعلم عامة فقد استفادت من الاوقاف . اذ كان يقطع للأئمة والخطباء والمؤذنين وخدمة المساجد قسما من اراضي الاوقاف وعقاراتها لتامين مصروفهم، وساعدت العوامل التالية على ابقاء هذه الاملاك في يد عائلات رجال الدين هؤلاء :

اولا : توارث الوظائف الدينية في القرون الاخيرة ، وتمسك كل عائلة كبيرة وصغيرة متفرعة من عائلة كبيرة، بهذه الوظائف (٢) .

ثانيا : نتيجة الفوضى التامة خلال الحكم العثماني ، ازداد اتساع حجم الاوقاف واستفاد رجال الدين في المدن من هذه الظاهرة (٣) .

نستخلص من خلال حديث الاستاذ احسان النمر عن الاشراف ودفاعه عن الاقطاع التقليدي ، ان هناك تنافسا بين الفئتين ، امتد خلال الخمسين سنة الاخيرة من الحكم التركي، اي بعد تحقيق المركزية التامة .

---

٢ — مراجعة : دروزه ، محمد عزة : **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها** . صيدا ١٩٥٩ ، ج ١ ، ص ٥١ .

٣ — مراجعة : كرد علي ، محمد : **خطط الشام** ، دمشق ١٩٢٥ — ١٩٢٨ ، ٦ اجزاء ، الجزء الخاص بالاوقاف ، ص ١٠١ — ١٣٠ .

٢ — وبما ان العائلات الشريفة كانت متمركزة اكثر من غيرها في المدن ، فقد استفادت من الاصلاحات الادارية في اواخر الحكم العثماني . اذ بدأ تحديث الجهاز الحكومي، كما انشئت دوائر حكومية جديدة تتلائم والتغيير الاجتماعي الاقتصادي ، خاصة مع متطلبات الجيش الحديث والحكم المركزي ، ومن هذه المتطلبات ، تمويل الجيش والمشاريع الاساسية عن طريق ضرائب مضمونة وقابلة للزيادة والتحصيل بالرغم من الاستبداد الحميدي المعروف ورفضه للتمثيل النيابي وشلّه للتمثيل البلدي ، فان سياسته في سوريه ، اتسمت بالامور الآتية :

اولا : الاعتماد على العائلات المعروفة وضمان ولائها وتوظيف ابنائها في الادارات الحكومية .

ثانيا : تشجيع تعليم اولاد هذه العائلات ، لتمكينهم من الانخراط في الدوائر الحكومية الحديثة .

استفادت فئة الاشراف من هذه السياسة ، فزاد ثراؤها نتيجة حصولها على وظائف مهمة . وبدأ افرادها يدخلون القطاع الزراعي ، باقتناء الاملاك الشاسعة بالطرق الآتية :

أ — عن طريق الالتزام الضريبي : كانت الضريبة تعلن في المزاد العلني ، ومن يتعهد بدفع اعلى قيمة يرسو المزاد عليه ، فيدفع مسبقا قسما من الضريبة والقسم الآخر بعد التجميع . فيقوم بجمع ضريبة العشر والاغنام والويركو (الاملاك) من الفلاحين . كان يحصل عليها في البدء عينيا ، فيبيعها الى التجار او يقوم بتصريفها بنفسه ، ومع بقاء الالتزام

في عهدته ، تطورت علاقته مع الفلاحين ، فأصبح هو المرابي والوسيط ، ولما كانت هذه الضرائب شديدة الوطأة تصل الى ٥٠ بالمائة من دخل الفلاح ، عجز هذا الاخير في كثير من الاحيان عن دفع الضريبة او الديون ، فوقعت ارضه آليا في حوزة الملتزم .

ب — عن طريق شراء الاراضي من الدولة : اذ ان الاراضي التي لا تزرع ثلاث سنين متتالية تعود الى الدولة ، فتباع هذه الاراضي بأسعار منخفضة جدا (٤) ، وتدخل الواسطة والرشوة بدورها لتخفيض السعر او تزييف المبلغ الاجمالي.

ج — عن طريق تسجيل بعض الفلاحين اراضيهم باسم الاشراف ، تهربا من دفع الضريبة العالية ، ودعوة ابنائهم للجندية .

ب — بقايا الاقطاع التقليدي

١ — دفع حكم محمد علي واحتلاله لسوريه الدولة العثمانية الى تجريد مؤسساتها ، وكان الحكم غير المركزي اهم مشكلة تواجه الاستانة ، فبالرغم من وحدة الدولة العثمانية الا ان الولاة والامراء والمشايخ ظلوا يمارسون حكما ذاتيا ، بسبب تبدد ضعف السلطات العليا ، اي اذا كان الوالي ضعيفا قويت شوكة الامراء والشيوخ ، خصوصا اذا كانت

٤ — يذكر **Ruppin, A. : Syrien als Wirtschaftsgebiet, Jaffa** في صفحة ٢٤٢ ، ان سعر الفدان من فرنك الى خمس فرنكات .

مناطقهم وعرة المسلك ، حتى غلب في بعض الاحيان نفوذ الشيوخ والامراء على نفوذ الولاة .

كانت فلسطين مقسمة الى مقاطعات وفي كل مقاطعة امراء ومشايخ يرأسون من انتسب اليهم من سكان البلاد . يسمى هذا التنظيم الاقطاع وقد نشأ عن اقطاع الاراضي للقادة والمقربين ، واستلزم النظام الضريبي ذلك التقسيم ، اذ كان يطلب من المسؤول عن المنطقة جمع المال من رعاياه ، فلذا كان على المسؤول التسلح بالقوة التامة لاستخلاص الجباية من السكان ، ويصبح هذا الامتياز ملكا للعائلة ، وتبقى الافضلية دائما لها بعد موت المسؤول ، فيعين واحدا من ذريته خلفا له والاقرب اليه احقهم .

كان تعيين الشيخ منوطا بالوالي وبباشا الدورة ، وكانت له مخصصات ثلاثين في الالف من اموال الميري (٥) . وكان للقرية شيخ يعينه المتسلم او شيخ الناحية على الربع ، ومن اعماله حل المشاكل وجمع المال اللازم حسب الاصول .

وبجانب الاقطاع الضريبي ، كان هناك الاقطاع الذي ذكر سابقا ، اي اقطاع القادة والمقربين ، اما مكافأة لهم على خدمات مقدمة او مطالبتهم بحماية مناطق معينة، وبما ان طريق الحج تمر في فلسطين ، اوكلت لبعض العائلات او العشائر ، حماية الطريق من هجمات البدو .

بالرغم من الغاء الاقطاع في نصف القرن الماضي ، بعد

٥ — مراجعة : النمر ، احسان : **المرجع السابق** ، ج ٢ ، ص ١٨٤ — ١٩٥ .

خروج ابراهيم باشا من سوريه ، اتى الالغاء الفعلي بعد حرب القرم اي في العقد الثامن من القرن الماضي حين جردت الدولة العثمانية قوة كبيرة ، واخمدت الحرب الاهلية في فلسطين ، التي استمرت اكثر من عقدين ـ من حوالي ١٨٥٠ م حتى ١٨٧٤ م . اشتد خلالها الانقسام القيسي ـ اليمني « فما كان احدهم يجرؤ على المرور ببلاد الآخر معلنا شعار قومه » (٦) .

تحققت وراثة الوجاهة عوضا عن اثبات مبدأ تعيين المشايخ ، واستنادا الى ذلك اصبح في المقاطعة والناحية والقرية طبقة مميزة تحكم وتجمع الثروة . يؤكد احسان النمر حين يفتخر بعائلته : « وكانت الاملاك على اختلاف انواعها دليل الامارة والعزة ويتضخم مظهرهم بنسبتها اذ كانوا يعتبرون الذين يشغلون من جملة الاتباع . وكانوا حريصين على ان يكون لهم جميع الاملاك لكيلا يحتاجون احدا غيرهم . فكانت لهم المصبنة والحمام وبساتين الخضار والفواخير والطواحين والافران ومعاصر الزيتون والسمسم والدكاكين واراضي لزراعة انواع الغلال فلا يشترون شيئا من غيرهم . وكانوا يحرصون على الاملاك ويوقفونها على درارهم ويعتبرونها جرثومتهم واهلهم . فيقولون من باع ملكه باع اهله وبهذه القاعدة حافظ آل النمر على املاكهم التي دخلت حيازتهم من مدة تزيد على ثلاثة قرون وهو امر مشهور لدى اهالي نابلس جميعا » (٧) .

٦ ـ البرغوثي، عمر الصالح وطوطح، خليل : **تاريخ فلسطين**، القدس ١٩٢٢ ، ص ٢٦٨ .

٧ ـ النمر ، احسان ، **المرجع السابق** ، ص ٤٥٩ .

ومن المستطاع الاستنتاج بسهولة مسعى شيوخ القرى الى تقليد زعمائهم والتحلي نسبيا بالقيم نفسها. وليس مقبولا قول احسان النمر ان « عهد الاقطاع فروسي نبيل فيه استقرار عظيم » (٨) . فمن ابحاثه وابحاث الآخرين نجد طموح كل شيخ مقاطعة او ناحية الى توسيع نفوذه ، مما اضرم نار العداء والحروب في كثير من الاحيان . غير انه كان هناك بعض « النبل » لثلاثة اسباب :

اولا : محافظة الكثير من العائلات الحاكمة على قيم البادية ، لتأكيد سلالتها الصافية وتاريخها الطويل ، وتلاشي معظم تلك القيم في اواخر عهد الاقطاع .

ثانيا : اوجد المشايخ والامراء فيما بينهم سلوكا معينا ، مخافة الفوضى التامة، وافساح المجال هكذا للوالي للتحكم بهم .

ثالثا : اما تقرّب الشيوخ والامراء من اتباعهم واظهار الكرم الحاتمي ، فمرجعه السعي لابقائهم في جانبهم ، فلا يخذلونهم عند الحاجة ، وينجذبون شطر العائلات الاخرى .

ليس هذا « النبل » مستمدا من نظرة انسانية سامية، بل مصدره مستلزمات الوجاهة والبقاء ، ومن قوانين « النبل » المصطنع القسوة تجاه المخالف ، فلذا نجد الكرم الحاتمي يجاور السجون الكبيرة ، تفتخر كل عائلة حاكمة بسجنها .

٢ ـ كان لا بد من الاسهاب بمعرفة نوع العائلات الاقطاعية وقيمها وانعكاس ذلك على تصرفها في المستقبل .

٨ ـ **المرجع نفسه** ، ص ٢٦١ .

كما ان هذا الاسهاب تتطلبه حقيقة الامـور ، فبالرغم مـن اضمحلال سلطة الاقطاع ، ظلت الوجاهة الاقطاعية باقيـة ، ووجدت في تطور الحكم العثماني الاخير ، اما معينا لها لتطوير نفسها والابقاء على زعامتها بصورة جديدة ، او عائقا لهـا ، تسعى بقوة نفوذها بين الفلاحين على شل حركة التطور هذه، وبحكم العلاقة بين الاجيال والتقاليد فليس بين ١٨٧٤ و ١٩٢٠ زمن شاسع ، واكبر دليل على ذلـك : الخلاف المجلسي – المعارضي عـام ١٩٢٣ حـول المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين ، اذ تحول هذا الخلاف الى شبه خلاف قيسي – يمني ، وقد نسي عامة الشعب هذا الخلاف ، غير ان الوجهاء التقليديين ظلوا متمسكين بالتقاليد البالية ، انعكاسا لهـذه الوجاهة .

ولا بد من التنويه في هذا المقطع ، الى ان الاقطـاع في بلاد الساحل وفي السهول عامة ، كان عشائريا صرفا . كانت العشيرة تملك منطقة كاملة ولا تسمح للفلاحين العاديين بالبقاء فيها . ولذا كان يتجه هؤلاء شطر الجبال ، يقيمون فيهـا ، طلبا لحماية شيوخ المناطق الجبلية مثل شيوخ جبال نابلس والجليل ، وحتى العشائر شبه المستقرة، كانت بدورها عرضة لهجمات العشائر البدوية الصرفة .

كانت العلاقة بين شيخ القبيلة واتباعه في الماضي علاقة حسنة ، لكون افراد العشيرة شبه متساوين، كما ان العلاقات البدوية الصرفة كانت اساسية في حياتهـا . الا ان هـذه العلاقة تغيرت مع دخول النظام الضرائبي الجديد ، واستقرار القبائل . فبعد الاصلاح الضريبي في العقد الثامن من القرن

الماضي ، سجل امراء وشيوخ القبائل الاراضي التي كانوا مستوطنين فيها باسمهم الخاص في سجل «الطابو» ، كما حصل في وادي الحوارث (٩) ، اذ سجل الوادي باسم الامير ناصر الحارثي . وتؤكد لنا نماذج الاقطاع المماثل في العراق وسوريه فظاعة ما حصل ، واستعباد القبيلة من قبل بيت شيخ القبيلة او اميرها .

يعطينا البيان التالي صورة عـن العائلات والعشائـر الاقطاعية ومناطق نفوذها ومراكز اقامتها (١٠) .

المنطقة	اسم العشيرة
بلاد بئر السبع وغزة	العزازنة والخناجرة
	والترابين (عائلة ابي الستة)
	والتياها والجبارت
ساحل يافا	عرب الجرامنة وابو كشك
بلاد عكا	عرب الحواسي (الهنادي)
غور الفارعة	المسعودي والفاعور
غور بيسان	عرب الغزاوية

٩ – مراجعة : مجلة «العرب» : ١٩٣٣/٦/١٧ .

١٠ – مراجعة : البرغوثي وطوطح ، **المرجع السابق** ، ص ٢٦٥ – ٢٦٨ . ودروزه ، محمد عزة : **العرب والعروبة** ، ج ٢ ، دمشق ١٩٦٠ ، (استمد دروزه المعلومات من صديقه عمر الصالح البرغوثي) .

المنطقة	اسم العائلة	مركز اقامتها
بلاد الخليل	دار عمرو	دوره
	دار العزي	بيت جبرين
	دار اللحام	
بلاد القدس		
منطقة بني مالك	دار ابو غوش	قرية العنب
منطقة بني حسن	دار الشيخة	المالحة
منطقة الدادية	دار عريقات	ابو دبس
=	القرعان	البيرة
=	الزبادنة (دار الخطيب)	بيت اكسا
=	الدباونة	دير دبوان
=	والبيتوني	البيتونية
منطقة بني حمار « حمير »	دار عقل	فعلين
	بني حارث	رأس كوكر
منطقة بني عمير ووادي العرار	العويسات	البرج
منطقة بني زيد وبني مره	البراغثة	دير عسانه
منطقة بني صعب	الجيوسي	كور
منطقة الشعراويات	البرقاوي	شوفه
منطقة جماعين	دار قاسم	بيت وزن
وجورة عمر	دار الريان	مجدل يابا
منطقة مشارق البيتاوي	دار الحاج محمد	بيت فوريك
	بنو شمس	بيتـا
بلاد جنين ونابلس	دار جرار	خانور
	دار طوقان	
	دار عبد الهادي	عرابه
ساحل حيفا	دار ماضي	

والهدف من نشر هذا البيان هو اظهار جزء كبير من التقسيم الاقطاعي في فلسطين وخصوصا ان اكثر افراد تلك العائلات ، بالرغم من فقدان السلطة المادية وتساويها مع فلاحي الجبال ، ظلوا متمسكين بتقاليدهم ووجاهتهم ، واستفاد بعضهم من هذه الوجاهة للتلاؤم مع نتائج التنظيمات الادارية الجديدة ، والابقاء نسبيا على نفوذهم الفعلي . فكان هدف اكثر هذه العائلات حتى عهد الانتداب ، اظهار وجاهتها وتفوقها على سكان الناحية ، وهم اتباعها السابقون ، ويعطي الاستاذ عمر الصالح البرغوثي (١١) صورة عن وجاهة بعض العائلات وتمسكها بتقاليدها حتى وقت قريب :

كان لآل عبد الهادي ١٧ قرية وآل الجيوسي ٢٤ قرية وآل البرغوثي ٣٩ قرية ، وفي العقد الثالث من القرن الحالي، كان تعداد افراد هذه العائلات ما يلي : عبد الهادي ٦٠٠ شخص ، الجيوسي ٦٠٠ شخص، البرغوثي ٣ آلاف شخص. كانت تلك العائلات الثلاث تعتقد ان لها ميزة على غيرها من العائلات والبشر . بينما عائلة الجيوسي وعبد الهادي لم يدخل بينهما دم غريب ، ولذا بقيت العائلتان الكبيرتان محافظتين على اسميهما ، ادخلت عائلة البرغوثي بعض العائلات ويعدّونها ماجدة . لقد كان التشدد الاكبر في حقل الصهارة ، « كانت هذه الاسر لا تصاهر غيرها ، لاصرارها الحفاظ على النسب . ثم توسعوا وصاهروا من ثبت نبله ، وتأكدت عروبته ، وصرح اهله ، وهم يضنون بمصاهرة الناس ، ولو كانوا اشرافا او

١١ – مراجعة: البرغوثي، عمر الصالح: الاقطاع في فلسطين، مجلة « **العرب** » ١٩٣٣/٣/١١ .

ذوي جاه ونفوذ ، او من سراة المدينة ، واشدهم تمسكا بنسبهم آل الجيوسي » . ولذا كانت تلك العائلات تفضل تزويج ابنائها ، ان امكن ، الى ابناء القبائل البدوية النبيلة .

ولا بد من القول ، ان تفاوتا في الوجاهة وجد لدى تلك العائلات ، فكانت احدى البيوت التي تتزعم العائلة او العشيرة تسعى الى حصر الثراء بها . وازداد ذلك بعد ظهور التنظيمات الادارية الجديدة ، اذ ربطت الوجاهة الآن بالكفاءة الفردية ، اي امكانية الحصول على وظائف حكومية ، والتقدم في الحقل الاداري ، والاستفادة في الوقت نفسه من الامكانات الجديدة لربح المال ، خصوصا الحصول على التزامات ضريبية وشراء اراض اميرية ، واظهار المكانة لدى السلطة المركزية ، ليتوجه الناس اليهم خصوصا الفلاحين، هربا من التسجيل الضرائبي والجندية .

ج – الاقطاعية الجديدة : البرجوازية الكبيرة التجارية

١ – خلال تحليل فئة الاشراف وفئة الاقطاع التقليدي ذكر التطور الذي شهده قسم من هذه الفئات ، اذ استطاع تفهم التنظيمات الادارية الجديدة والاستفادة من المجالات الجديدة . واهم مجال استفادت منه الفئات التقليدية ، هو توجيه اولادها شطر المعارف ، وقبل ذلك شطر المدارس العسكرية . وساهم مدحت باشا والي دمشق في نشر العلم وتأسيس العديد من المدارس الحديثة في عاصمة الولاية ما بين (١٨٧٦ – ١٨٨٢) وقد هدفت هذه المدارس الى تأهيل عدد كبير من الشباب ، لتحمل اعباء الادارات الجديدة ،

وخصصت هذه المدارس لابناء الموظفين والوجهاء (١٢) .

استطاعت الوجاهة التقليدية تثبيت زعامتها والدخول في الادارات التنفيذية والتشريعية . وبسبب هذا النفوذ والثراء النسبي المتوارث ، استطاعت استغلال النظام الضرائبي الجديد ، واستعمال الارباح الطائلة ، والتطور عن طريق العلم والثراء نحو البرجوازية الجديدة .

لم تكن الوجاهة التقليدية ، هي المستفيدة الوحيدة من التنظيمات الادارية الجديدة ، بل شملت الاستفادة فئتين : فئة تجار المدن وفئة الاقلية المسيحية .

كانت حرية التنقل مضمونة داخل الدولة العثمانية ، بل في الشرق عامة ، فلم تكن هناك الحواجز القوية ، وكان تجار المدن خليطا اوجدته مباعث التجارة ، واهم من ذلك الهرب من ظلم الولاة ، وبما انه كان لبعضهم علاقات مع المدن الاخرى فقد تنقلوا حيث وجد الامان .

قبل الاصلاحات الادارية ، وتثبيت الامن ، كانت فئة التجار تعيش في خوف حدّد امكانات انطلاقها . نتج خوفها عن ظلم الولاة كما ذكر ، واستبداد الجزار اكبر مثال ، حين فتك بكل ثري من غير طائفة الاشراف . وشهد العهد الاخير من عمر الجيش الانكشاري ، اي حتى عام ١٨٢٥ ، موجة من

١٢ ــ مراجعة : صليبا ، د.جميل : **محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام واثرها في الادب الحديث :** جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العليا ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦٢ .

الفوضى والاستغلال والاجرام ، جعل الاثرياء خصوصا التجار يأنفون من اظهار ثرائهم . كما عادت موجة الفوضى بعد خروج المصريين من سوريه عام ١٨٤٥ ، وبقيت بعض الشيء حتى احلال المركزية التامة عام ١٨٧٤ . شعر التجار بعد ذلك بالاطمئنان فتوسعوا في تجارتهم ، وازدادت هذه التجارة كذلك نتيجة الازدهار الاقتصادي ، والتضخم السكاني في المدن .

وزاد من ثراء التجار ، اضمحلال النظام الاقطاعي ، اذ كان الامراء والشيوخ يتملكون المقاطعات ويشرفون على محصولها . وبعد تحرير الارض من الاقطاع التلزيمي التقليدي ، اي التزام جباية الضريبة ، وبعد شراء الارض من قبل الفلاحين في المقاطعات التي شهدت فقر اسيادها ، نشط التجار في التوجه الى الفلاحين وبترغيبهم في الحصول على الالتزام الضريبي الجديد .

٢ ــ بينما كان التجار الوطنيون مهيمنين على التجارة الداخلية ، كان التجار الاجانب من ايطاليين ويونانيين مسيطرين على التجارة الخارجية حتى القرار السلطاني لعام ١٨٥٦ ، والذي قبل وصاية الدول الاوروبية على الاقليات المسيحية في الشرق (١٣) ، ومنحهم بعض الامتيازات . فأقبل المسيحيون المحليون على التجارة الخارجية وساعدهم على ذلك انتشار العلم عن طريق الارساليات الاجنبية ، وتملكهم للغات الاوروبية ، كما ان الضغط الاوروبي على الدولة العثمانية

١٣ ــ مراجعة: **Lammens, H. : La Syrie, précis historique: 2ème Volume, Beyrouth 1921 p. 180.**

جعلها تقبل برسوم جمركية زهيدة ، اذ حددت التعرفة الجمركية على القيمة بثمان بالمائة عام ١٨٦١/٦٢ ، ورفعت عام ١٩٠٧ الى ١١ بالمائة (١٤) . فاستطاعت السلع المستوردة مزاحمة الانتاج الوطني ، واستعملت الاقمشة الاجنبية في تهيئة الازياء الوطنية . كما ساعدت عملية التحديث الاجبارية في الدوائر العثمانية وظهرت فئة الافندية ، اي موظفي الحكومة المتعلمين والمقتنين للباس الغربي ، على نشر الاقمشة الاجنبية ، بل ان عملية التحديث في جميع جوانب الحياة خصوصا في القرن الحالي وعدم استطاعة الصناعة الوطنية مرافقة هذا التطور ، بسبب السياسة الاقتصادية المعادية للثروة الوطنية من قبل الحكم ، دفعت السلع الاجنبية لاحتلال الاسواق المحلية .

استغل موظفو القنصليات الاجنبية او ممثلو الدول الاجنبية من الوطنيين في المدن العثمانية والشرق عامة ، وجلهم من المسيحيين ، وظائفهم لاستيراد بضائع باسم القنصلية وبيعها باسمهم ، وذلك تهربا من دفع رسوم الجمرك ، او الاسراع في ادخال السلع دون دفع رشوة . وزاد من ثراء التجار المسيحيين ، اهتمام مصانع الحرير في مدينة ليون بالانتاج اللبناني والسوري عامة ، خصوصا ما بين ١٨٤٥ و ١٨٨٠ . فكانوا هم الوسطاء لتصدير هذا الانتاج . ومن خلال احتكاكهم بالاسواق الاوروبية ، ومن خلال المعاملات التجارية والمالية ، اكتشفوا اساليب التجارة الحديثة وامكاناتها ، ونمّى هذا الاهتمام بعد ذلك ، انشاء بعض

١٤ — مراجعة : Ruppin p. 355 ، **المرجع السابق** ، ص٣٥٥ .

الارساليات ، خصوصا الافرنسية منها ، صفوفا لدراسة العلوم التجارية .

استفاد عدد كبير من العائلات المسيحية من هذه الظروف المؤاتية ، لجمع ثروات ضخمة مكنتها من الدخول في جميع المجالات الاقتصادية الممكنة . واشتهر آل سرسق بحركتهم الاقتصادية وصفقاتهم . يخبرنا اوليفانت (١٥) في احد كتبه ان بيت سرسق اشتروا عام ١٨٧٢ مرج بن عامر بسعر ١٨ الف جنيه ، ولم يدخل صندوق الدولة العثمانية الا ٦ آلاف جنيه ، بسبب الرشوة والسرقة . وقدر دخل هذه العائلة السنوي من السهل وعن طريق استغلال الفلاحين حوالي ٢٠ الف جنيه ، وقد اشترى هذا السهل الصندوق القومي اليهودي في اوائل العقد الثالث من القرن الحالي .

ومثال آخر لثراء بعض التجار المسيحيين ، رهن امير عشيرة الحوارث لسهلهم ، بمبلغ ٥ آلاف ليرة ذهب ، لدى عائلة تيان في يافا ، ورهنته هذه بدورها الى بنوك يهودية في فرنسه ، وفي عام ١٩٣٣ بيع الى الصندوق القومي اليهودي (١٦) .

٣ — كان شراء الاراضي من قبل تجار المدن صفقات يقدمون عليها . يزرعون الاراضي ان وجدوا ربحا في ذلك ، ويبيعونها توا ان وجدوا ربحا اكبر . فليس لديهم اية علاقة مع الفلاحين ، الا علاقة الاستغلال . والحقيقة ان عقلية

١٥ — مراجعة : **Oliphant, L. : The Land of Rilead, New York 1881 p. 277.**

١٦ — مراجعة : مجلة **« العرب »** : ١٩٣٣/٦/١٧ .

الصفقات لا تتفق والوطنية الصحيحة ، اذ تتطلب هذه الاخيرة تضحية بكل معنى الكلمة ومن الصعب جمع التضحية مع عقلية الصفقات . لذا يجب التأكيد على الامور الآتية :

اولا : لم يكن هناك حتى العقد الثالث من القرن الحالي اقليمية فلسطينية او لبنانية او سورية او مصرية لفئة التجار، حيث كانت الموانىء الرئيسية والمدن الكبرى الداخلية مراكز لها . فالتنقل بالنسبة لتجار الاستيراد والتصدير كان شيئا عاديا ، فمنهم من اقام في بيروت او الاسكندرية او يافا او حيفا او في الاسكندرون ، او حتى في مرسين او أزمير . ونجد قصور عائلة سرسق في بيروت والاسكندرية ، لكونهما اكبر مينائين في هذه المنطقة .

ثانيا : لعب التجار الكبار دورا مهما في الحياة الحزبية والسياسية في اواخر الحكم العثماني ، فكانوا اعضاء في الجمعية اللامركزية (او مؤيدين لها) التي كان مقرها في القاهرة ، واذا دققنا النظر في اسماء اعضاء الجمعية العمومية الاصلاحية في بيروت عام ١٩١٣ (١٧) ، نجد بينها اكثر التجار الكبار الذين لعبوا دورا كبيرا في الصفقات التجارية والمالية، وكانت هذه الجمعية قد الحت في طلب اللامركزية واحلال اللغة العربية محل اللغة التركية . بل ان بعض رجال الجمعية

١٧ ـ مراجعة : برو ، توفيق علي : **العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨ـ١٩١٢)** ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٤٤٥ .

العمومية ، مثل سليم علي سلام ومختار بيهم واخرين ، استغلوا ايجابية الاتحاديين في الاستانة نحو مطاليبهم ، ليطالبوا بالحصول على التزام تجفيف مستنقعات الحولة ومساحتها ٥٠ الف دونم ، وبعد الحرب طلب سليم سلام من الامير فيصل التدخل ، خلال اقامته في لندن ، لدى الحكومة البريطانية لتثبيت هذا الالتزام . وتنازل عنه في عام ١٩٣٤ للصندوق القومي اليهودي مقابل مبلغ جسيم (١٨) .

الهدف من تحليل البرجوازية الكبيرة ، ليس التشهير بها او دمغها بالخيانة او الدفاع عنها ، بل اظهار طريقة عمل هذه البرجوازية ومقوماتها ، لمعرفة التطور الذي حصل في فلسطين خلال حقبة الانتداب ، اذ نافست هذه البرجوازية الاقطاع التقليدي ، وسعت الى تبوّء سدة الوجاهة والزعامة . وسنرى كيف ان مساهمتها المادية في النضال الوطني كانت ضئيلة نسبة لثرائها ولكن كبيرة الحجم نسبة لمساهمة الجماهير الشعبية المتواضعة، مما جعلها تحصد الثناء من صغار العقول والانتهازيين، بينما أخّر تصرفها الاستغلالي وتفكيرها الوسطي الحركة الوطنية ، بل اضرّ بها .

ثانيا ـ البرجوازية المتوسطة والصغيرة

عرفت البرجوازية الكبيرة بالوجاهة التقليدية المتطورة، وبتجار المدن والفئات المسيحية الوطنية ، التي استطاعت عن طريق حماية الدول الاجنبية ، وعلاقتها المباشرة وغير المباشرة

١٨ ـ مراجعة : دروزه ، محمد عزة : **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها** ، صيدا ١٩٥١ ، ج١ ، ص ٩٥ـ٩٦ .

بها ، الانطلاق في مجال الاقتصاد من تجارة ومال وزراعة ... اما البرجوازية الكبيرة في الدول الصناعية ، فهي الطبقة المهيمنة على الاحتكارات من صناعية او مالية او تجارية او زراعية . ولذا سميت البرجوازية الكبيرة في الدول النامية ، الطبقة الكومبرادورية ، لامتلاك التجار اراض واسعة في الريف ، دون الاشراف المباشر عليها .

يطرح السؤال الآن، ماذا كانت اذن البرجوازية المتوسطة والصغيرة ؟ وهل امتلكت ادوات الانتاج ، واستغلت غيرها خصوصا في الحقبة قبل ١٩١٨ ؟ نعم كانت هناك برجوازية متوسطة وبرجوازية صغيرة ، تحددتا من قبل مسلكهما الاجتماعي اولا وحجم ثرائهما ثانيا . نتج نشوءهما من التطور الكبير الذي عاشه المجتمع السوري في تلك الحقبة ، وما تزال البلاد العربية والبلاد النامية عامة تعيشها . ان التطور الاقتصادي العنيف والقوانين المعلنة تؤثر بمجملها على التكوين الاجتماعي ، تجدد فئات معينة وتساهم في انطلاق فئات اخرى . وبما ان الحقبة الماضية بل والحاضرة ايضا ، قامت على حساب فقر الفلاحين والعمال وارباب الحرف التقليدية، تصبح المسافة الاجتماعية بين من يفقر وبين من يرتفع مستواه المعيشي اكبر من قبل، خصوصا ان مجالات التقدم توفرت لدى الفئات المتطورة . فالتطلع نحو الطبقات العليا والتشبه بها اصبح معيار النجاح .

أ ـ البرجوازية المتوسطة

من هي اذن البرجوازية المتوسطة ، خصوصا في تلك الحقبة ؟ **تحدد هذه الطبقة بأملاكها العينية التي ارتفعت**

قيمتها نتيجة ازدياد النشاط الاقتصادي ونمو معظم المدن خصوصا الموانيء منها ، مثل بيروت ويافا وحيفا . ويعطي جدول رقم ـ ١ ـ صورة للتطور السكاني في ثلاث مدن فلسطينية وهي القدس ويافا وحيفا .

جدول رقم (١)

التعداد السكاني في القدس ويافا وحيفا في عام ١٨٨٠ و١٩١٥

	سنة ١٨٨٠ (نسمة)	سنة ١٩١٥ (نسمة)
القدس	٣٥ ٠٠٠	٨٠ ٠٠٠
يافا	١٠ ٠٠٠	٤٠ ٠٠٠
حيفا	٥ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠

المصدر : مراجعة : Ruppin ، **المرجع السابق** ، ص ١٨٦ .

بالرغم من ان قدرا لا بأس به من الزيادة السكانية نتج عن الهجرة الاجنبية (المانيّة ، يهوديّة والارساليات ...) ، الا ان تعداد السكان العرب ارتفع اكثر من نموه الطبيعي . وتعني الزيادة السكانية بحد ذاتها زيادة الطلب على الاراضي والبيوت السكانية . ويظهر من جدول رقم ـ ٢ ـ ارتفاع اسعار الاراضي في المدن الثلاث هذه . فبينما لم تتوسع المدن الفلسطينية الاخرى بشكل ملحوظ ، بل وبقي تعداد ابنيتها نسبيا ثابتا ، ولذا لم يعط الاستثمار في البناء فائدة اكثر من ٤ بالمائة ، يذكر روبين ان هذه الفائدة وصلت في **القدس الى ١٠ بالمائة وفي حيفا ويافا الى ١٢ بالمائة .**

جدول رقم (٢)

اسعار الاراضي في بعض المدن الفلسطينية عام ١٩١٣ :

	سعر الـ Pic *	
	وسط المدينة (الفرنك)	خارج المدينة (الفرنك)
القدس	٣٠	٥
يافا	٣٠	٢
حيفا	٣٠	٢
نابلس ■	١٠ــ١٥	٢
غزة	٥	١

* Pic = ٠ر٥٦٢٥ م٢ .

■ لم يذكر روبين نابلس في جدوله ، الا انــه وضعها في مصاف حمص وحماه ، وحدد سعر الـ Pic في وسط كل من هاتين المدينتين بـ ١٠ و ١٥ فرنك ، لذا حدد سعر الـ Pic في وسط نابلس بـ ١٠ ــ ١٥ فرنك .

المصدر : مراجعة: Ruppin ، **المرجع السابق**، ص٥١٩ــ٥٢٠ .

ولكي نحصل على صورة اوضح للتطور الاقتصادي ، لا بد من الاستفادة من ارقام التجارة الخارجية لقسم من فلسطين ، اي فيما يتعلق بالاستيراد والتصدير في مرافىء غزه ويافا وحيفا (جدول رقم ــ ٣ ــ) ، على اساس ان قسما من احتياجات فلسطين من السلع يأتي عن طريق مرفأ بيروت .

جدول رقم (٣)

الواردات والصادرات من مرافىء غزه ويافا وحيفا (بالليرة الانجليزية)

عام	الواردات	الصادرات
١٨٨٦	٢٤٠ ٠٠٠	١٢٠ ٠٠٠
١٩٠٠	٣٨٠ ٠٠٠	٢٦٥ ٠٠٠
١٩١٣	١ ٣١٠ ٠٠٠	٧٥٠ ٠٠٠

المصدر : صلاح ، حنا : **فلسطين وتجديد حياتها** ، القدس ١٩١٩ ، ص ٥٣ .

توسعت التجارة لسببين : اولا : طلب السوق المحلي وثانيا : تسهيل نقل البضائع للمناطق الداخلية ، بعد تمديد الخطوط الحديدية ، ولم تكن الاقليات الاجنبية سببا اساسيا لزيادة التجارة ، بل الطلب المحلي المتعاظم ، ونشاط الزراعة الحديثة لدى السكان العرب . اذ ان اليهود صدّروا ٢٤ ٪ من اصل ١ر٦٠٨ر٥٧٠ صندوق حمضيات صدرت من مرفأ يافا عام ١٩١٣ بينما صدّر الالمان ٢ر٥ بالمائة واما الباقي فقد صدّره العرب .

واستفادت البرجوازية المتوسطة من حركة السياح ، اذ كان يزور فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى حوالي ٤٠ الف سائح سنويا (١٩) . فشيدت الفنادق في يافا والقدس والاماكن الاخرى .

١٩ ــ مراجعة : صلاح ، حنا : **المرجع السابق** ، ص ٩٧ .

تتكوّن البرجوازية المتوسطة من سكان المدن ، من جميع الطوائف ، الذين استفادوا من ارتفاع اسعار ممتلكاتهم ، وازدياد نشاطهم الاقتصادي ، اي زيادة دخل المحلات التجارية ، خصوصا في القدس ويافا ، وتتكوّن كذلك من العائلات المسيحية العاملة في حقل التجارة الخارجية او الخدمات الاخرى ، مثل تمثيل شركات الملاحة . وكما ذكر في البدء ، استفادت العائلات الاسلامية المتوسطة الثراء ، من نشر التعليم في المدن والتوسع في الادارات الحكومية الحديثة .

ب ـ البرجوازية الصغيرة

تتميز البرجوازية الصغيرة عن المتوسطة بكونها لا تملك شيئا يذكر ، ولكنها تشترك معها في الاستفادة من عملية التحديث والتطور الاقتصادي . تتكوّن هذه البرجوازية ، من موظفي الدولة الصغار وكلهم تقريبا من المسلمين ، وقد كان لهم شأنهم تجاه عامة الشعب، سميّ قسم منهم «افندية» نسبة للباسهم الحديث ومعارفهم العصرية ، ولكن يجب التأكيد ان عددهم كان قليلا ، اذ ان اكثرية الافندية كانت من ابناء البرجوازية الكبيرة او المتوسطة ، بسبب ضيق مجال التعليم وحصر معظم مقاعد مدارس المعارف بأبناء هاتين الطبقتين ، ولم تؤهل الكتاتيب التلامذة الى الانتساب للدوائر الحديثة او دوائر الدولة المدنية والعسكرية عامة .

ولكن القسم الاكبر من البرجوازية الصغيرة ينتسب الى الطائفة المسيحية ، لتوفر المدارس الدينية من وطنية وارسالية في جميع المدن الفلسطينية وبعض القرى الكبيرة. ووجد المتخرجون منها عملا كمعلمين في هذه المدارس او

المدارس الجديدة ، او التحقوا كموظفين في مؤسسات الخدمات التجارية والمالية ، مثل البنوك وشركات الملاحة ومكاتب التجارة .

عموما ، كان تعداد البرجوازية الصغيرة ضئيلا نسبيا ، وقد ازداد بشكل كبير مع التوسع في التحديث بعد الحرب العالمية الاولى .

ثالثا : الطبقة العمالية الفلاحية

كان من الواجب التمييز بين العمال في القطاع الحديث التالي (الشركات التجارية ، الموانىء ، سكة الحديد ، الدوائر الحكومية) ، وبين الحرفيين والعمال في القطاع التقليدي عامة ، ولكن رؤي التمسك بهذه التسمية : لان حقبة ما قبل ١٩١٨ ، وضعت حجرا اساسيا للتطور اللاحق ، وكما ذكر في البدء ازدادت معدلات سرعة التطور بعد الحرب ، ولكن اساس هذا التطور بقي ثابتا نسبيا ، اي ان المجتمع تحول تدريجيا ولم تأت ثورة حقيقية تغيّر من العلاقات الاجتماعية. فلذا يقبل تسمية المجموعة السكانية التي تعمل يدويا ، من غير المهن الزراعية ، ضمن نطاق النظام الاقتصادي المتطور ، عمالا، بالرغم من التغيير التدريجي لهيكل هذه الفئة .

لم يدرج عمال الزراعة في هذا التصنيف ، بل اعتبروا قسما من الفلاحين ، لعدم ظهور الفئة العمالية الزراعية بالمعنى الحديث بشكل واسع ، كما ظهرت في زراعة البرتقال بعد الحرب . ظهرت فعلا هذه الفئة قبل الحرب ، اذ عمل بعض الفلاحين في مستعمرات الالمان واليهود ، ولكن عددهم كان

قليلا ، ولا تسمح المعلومات القليلة بالتعمق في دراسة احوالهم كفئة مميزة، بالرغم من انهم لعبوا دورا هاما في عملية التحديث في الريف .

ان التباين بين العائلات الاقطاعية وبين الفلاحين عامة ، لم يقسم فئة الفلاحين حسب الملكية او عدمها ، بسبب فقدان التناقض الطبقي الفعلي بين المعدمين والفلاحين المالكين بعض الشيء . وما حصل من تفاوت كبير في الملكية ، اتى بعد ١٩١٨ . ليس معنى ذلك انه لم يكن هناك تناقض يذكر ، بل معناه ، ان هذا التناقض لم يكن من القوة ، بحيث يؤثر على التطور الفكري العام . ولا بد من ابحاث متخصصة في التكوين الفلاحي خلال تلك الحقبة ، ومعرفة مزيد من فحوى التطورات الاجتماعية الاقتصادية ، التي حصلت في فلسطين والمشرق العربي عامة .

نستطيع استعمال تعبير « الطبقة الكادحة » لوصف فئة العمال والفلاحين ، ولكن رؤي عدم استعمالها ، لانها تضم ايضا قسما من البرجوازية الصغيرة ، اذ بالرغم من مسلكها ما تزال ترتبط بنشأتها ، كما ان تكاليف متطلباتها الجديدة مثل التعليم والتطبيب والابحاث ، وتكاليف الترفيه الاساسية ، تجعلها تقع تحت عبء الديون او تفرض عليها شد الحزام . وسيترك الحسم في هذا الموضوع الى الفصول الاخرى ، بعدما نكون قد رافقنا رحلة تطور البرجوازية الصغيرة .

أ ــ طبقة العمال

١ ــ لم تدخل عملية التحديث السريعة الا في الثلاثينات،

حيث بدأت تشمل الفلاحين ، وتغيّر من حياتهم المادية ، ليس معنى هذا تحسين وضعهم ، بل معناه تغيير نمط الاستهلاك ، والى حد ما الانتاج . وقد نتج عن ذلك طلب السلع الجديدة، اما بسبب تقدم ادراك الجماهير الفلاحية والعمالية ، او تحت تأثير الدفع التحديثي . وقد بقيت حتى عهد الانتداب بعض السلع الحرفية او الانتاج التقليدي عامة مرغوبة ، فبقيت الحياكة القطنية مثلا مزدهرة في غزه والمجدل (٢٠) . ولكن تدهورت الحياكة الصوفية ، لتناقص الطلب على العباءة البدوية . وبدأ تدهور الحياكة الحريرية منذ منتصف القرن الماضي ، لمزاحمة الحرير الاجنبي المستورد للحرير المحلي ، فبيع الاول بربع قيمة الحرير المحلي (٢١) .

بقي الطلب المحلي على الصابون ، وكان ينتج في نابلس ويافا وحيفا وفي مدن اخرى ، واهم مراكز صنعه وافضل اصنافه موجودة في نابلس . وكان يوجد في فلسطين حتى الانتداب ما لا يقل عن خمسين مصبنة ، تنتج سنويا ما ينيف عن ٨ آلاف طن صابون. بدأ التدهور مع تقسيم الوطن العربي المشرقي واغلاق حدود مصر (٢٢) .

وازدهرت صناعة التذكارات الدينية في بيت لحم والقدس . وكان يعمل في صناعة الاصداف وحدها في بيت لحم حوالي ١٥٠٠ شخص . وبلغ الانتاج عام ١٩٢٥ حوالي

---

٢٠ ــ مراجعة : صلاح ، حنا ، **المرجع السابق** ، ص ٧٧ .

٢١ ــ مراجعة : **Bonné, A. : State and Economics in the Middle East, London, 1955, p. 230.**

٢٢ ــ مراجعة : صلاح ، حنا ، **المرجع السابق** ، ص ٧٨ .

٧٠ الف جنيه، وقد انخفض الانتاج بعض الشيء بعد الحرب . ونلاحظ هنا ظهور الهجرة الفلسطينية التي نشأت نتيجة اهتمام اهالي بيت لحم بتسويق انتاجهم في اوروبه واميركه. وقد بقي قسم من هؤلاء المهاجرين في تلك البلاد . وسنتحدث عن ذلك في مقاطع اخرى .

وقد اشتهرت الخليل بصناعة الزجاج . كما ان وجود المدن العديدة في البلاد الفلسطينية ، يفرض بحد ذاته احتمال وجود عدد لا بأس به من الحرفيين نتيجة للعلاقة الاقتصادية بين المدينة والريف .

نستخلص مما سبق بعض سمات المجموعة الحرفية عند بدء الاحتلال :

اولا : شعور الصناعة الحرفية ، بتقلص اسواقها ، خصوصا في المدن ، كما شل كل من الحرب والتقسيم التصدير للاسواق الخارجية .

ثانيا : شعر الحرفيون بالتغيير القائم حولهم ، ومنافسة البضاعة الاجنبية لبضاعتهم ، وبروز طبقات جديدة بجوارهم في المدينة ، فسعوا الى ادخال التحسينات على انتاجهم ، بشراء بعض ادوات الانتاج الحديثة ، مثل الآلات كي تستخدم في عصير الزيتون وطحن الدقيق . غير ان الطلب على سلعهم من قبل القطاع الفلاحي الواسع ، ابقى على النمط التقليدي لانتاجهم .

ثالثا : ليس من السهل على الفئة الحرفية في المدن التخلص من النفوذ الديني التقليدي ، الذي كان مسيرا

لحياتهم كليا فقد كانت الحوانيت تغلق خلال الصلاة وكان تأثير رجال الدين قويا ، لذا لم تكن سرعة التحديث امرا يسيرا نتيجة لرفض الكثير من رجال الدين لها ، بالرغم من قبول هؤلاء لبعض اوجه التحديث ضمن محيط بيته الخاص ، مثل ارسال ابنائهم الى مدارس المعارف ، وسنتحدث مطولا عن ذلك في الكلام عن « التحديث » .

رابعا : ازداد فقر الحرفيين ، نتيجة تقلص اسواقهم وغلاء المعيشة ، خصوصا خلال الحرب وبعدها مباشرة . وعندما بدأت اسعار المواد الزراعية بالانخفاض ، ازدادت في الوقت نفسه منافسة السلع الجديدة والمستوردة لانتاجهم اثر السياسة الجمركية الملائمة للاستيراد ، الموطدة من قبل حكومة الانتداب . ووجد الحرفيون المتلائمون انتاجيا مع القطاع الحديث ، منافسة قوية ، بسبب هجرة الفلاحين الى المدن ، هربا من الفاقة في قراهم ، فنتج عن ذلك هبوط في اجور الحرفيين في المدن .

٢ — جرى الحديث سابقا عن نمو القطاع الحديث من تجارة ومرفأ وسكة حديد واشغال وبناء ، ونتج عن ذلك ازدياد في عدد العمال ، كما استفاد بعض المعلمين الحرفيين في قطاع البناء . غير ان المزاحمة على اثر النزوح من الريف لم تفسح للكثيرين المجال للاستفادة من التطور الحديث . ولم يفسح المستوى الثقافي والظلم العثماني المجال للعمال لتنظيم انفسهم . وسنكتفي بهذا القدر من الحديث عن العمال في القطاع الحديث ، تاركين ذلك للفصل الرابع ، حيث تساعدنا المراجع الاحصائية والتطور في هذا القطاع لتكوين صورة

اوضح عن طبقة العمال .

ولكن نستطيع منذ الآن استخلاص نتيجة مهمة ، وهي ان الاحتكاك المباشر للعمال بالفئات البرجوازية والاجنبية ، ولد لديهم استعدادا نفسيا لقبول عملية التحديث واستكشاف امكاناته المادية ، يساعد هذا الاستعداد تراجع التأثير الديني في المدن النامية على مثيله في المدن الراكدة والمحافظة .

ب ـ طبقة الفلاحين

١ ـ عرفت فلسطين بجوار ريفها مدنا عديدة ، كما ارتفع تعداد بعض القرى ، خلال الاربعين سنة الاخيرة الى مستوى مدينة . ووجدت فلسطين دائما نوعا من الاستقرار في النسب السكانية بين اهل المدن واهل الريف . فلم يتأثر الريف فقط نتيجة عصور الظلم والفساد ، بل شاهدت المدن التقلص نفسه في عدد السكان . فلا يكون بعيدا عن الحقيقة تحديد نسبة سكان الريف الى تعداد السكان عامة ب ٧٠ ـ ٧٥ بالمائة . وتجسد نسبة ٧١ بالمائة ، حصيلة احصاء ١٩٢٢ ، الاستقرار القديم في سكان المدن والريف .

ولكن هذه النسبة تعطي صورة للوضع العام ولا تنطق عن الوضع الحقيقي في الريف ، ففي خلال عهود الفوضى ، التي شاهدها الشرق ، خصوصا خلال القسم الاكبر من الحكم العثماني ، اي حتى التنظيمات الادارية ، وتحقيق الهدوء والسلام في سوريه عن طريق تنفيذ المركزية والغاء التنظيم الاقطاعي القديم واثبات هيبة الدولة بصورة افضل خصوصا في الديار الفلسطينية ، كانت السهول الفلسطينية الداخلية

والساحلية عرضة لهجمات البدو ، فلم يعرف مرج بن عامر مثلا الاستقرار . كان الفلاحون دائما عرضة لهجوم قبائل بني صقر ، وكذلك كان الامر في ساحل غزة ويافا وحيفا وعكا ، فلم يكن الفلاح بمأمن من العشائر البدوية . فقد هرب قسم من السكان الى الجبال طلبا لمأمن في ظلالها وفي ظلال امراء وشيوخ الاقطاع ، فازدحمت جبال الخليل ونابلس والجليل بالقرويين . وبسبب اهمال الزراعة ، انتشرت المستنقعات في السهول ومعها البعوض ، فهرع قسم آخر من الفلاحين الى الجبال هربا من الامراض . ولكن لم تخل هذه السهول من السكان ، اذ استوطنها قسم من العشائر البدوية ، حيث اصبحت شبه حضرية .

اشاعت الصهيونية في دعايتها ، فراغ فلسطين من السكان في اواخر القرن التاسع عشر واهمال الزراعة من قبل اهلها . ولكن مع الاعتراف بتأثير الحروب الاهلية وهلاك قسم من شباب البلاد في حرب القرم (٥٤ ـ ١٨٥٦) ، نستطيع الاعتماد على مشاهدات الرحالة الاوروبيين في النصف الثاني من القرن الماضي لتأكيد امرين :

أ ـ ازدحام الجبال بالسكان .

ب ـ كفاءة القرويين العرب « الفلاحين » ، اذ ميز الرحالة بين العشائر شبه الحضرية من سكان السهول وبين سكان المناطق العالية ، الذين يحملون حقا اسم « فلاحين » ، فبجوار البدو ، كانت توجد دائما طبقة فلاحية ، ذات تراث حضاري قديم . ولم يكن الانحصار في الجبال الا مؤقتا حيث

كان الفلاح ينتظر عهد الامان ، لينزل الى الساحل . وفعلا بدأ الفلاحون يتجهون شطر الساحل بعد تحقيق الهدوء والاستقرار .

٢ ـ اتضح من تحليل الطبقة الوجيهة ، انها مستفيدة من التنظيمات الادارية الجديدة ، اذ استطاعت استغلال مقامها ونفوذها لشراء الاراضي او التزام جباية الضريبة او تسجيل الاراضي باسمها ، وتعطي امثلة مرج ابن عامر ووادي الحوارث صورة عن ظهور الاقطاع الحديث .

اعتمد النظام الضريبي العثماني على دخل الارض ، في الدرجةالاولى، كمصدر للواردات الحكومية ، وتأتي الاملاك في الدرجة الثانية . فكان على الفلاح دفع القسم الاكبر من حجم الضريبة العام ، بدفعه العشر ، اي عشر المحصول ، والويركو على الاملاك الزراعية ، وفوق ذلك عليه دفع ضريبة الاغنام . حدد العشر رسميا ب ٥ر١٢ بالمائة من الدخل العام ولكنه وصل حقيقةالى ٣٠ بل و ٥٠ بالمائة نسبة الى الدخل الصافي. بينما كان الملاك الكبير في المدن والارياف قادرا على رشوة الملتزمين والموظفين ، والتهرب من دفع الضريبة او اعطاء تخمين منخفض لاملاكهم وقد كان ملتزم الضريبة يحدد على هواه ثمن ارض الفلاح ، ويتسلح بقوة الجند ، لتحصيل المبالغ . وفرضت الحكومة مزيدا من الاعباء الاستثنائية على الفلاحين، بحجة تمويل الاعباء الخاصة ، مثل اعباء الحروب . فتخلصا من الديون والجندية ، تنازل الفلاحون عن ارضهم او سجلوها باسم المتنفذين ، كما جاء سابقا .

وتصوّر كتب الرحالة اوليفنت (٢٣) مآسي الفلاحين في العقد الثامن والتاسع من القرن التاسع عشر . فقد حدّثه الاهالي عن فقرهم الزائد ، وشاهد بنفسه نفوذ الملتزمين واضطهادهم للفلاحين ، وتآمر شيوخ القرية مع الملتزم في افقار القرويين، وسلب الارض منهم مع اعطاء الشيخ حصة منها (٢٤) .

وشاهد عالم الآثار لورتيت (٢٥) بنفسه كيف ان احد المشرفين على املاك آل سرسق قرب الناصرة يهدم بمساعدة الجند بيت أحد الفلاحين ، لانه لم يستطع دفع الديون الى صاحب الارض ، كما القي القبض على الفلاح وتركت عائلته في العراء . وبالرغم من ان اكثر هذه الحوادث جرى في حوالي سنة ١٨٨٠ الا ان هذه الحالة ، ظلت كما هي حتى الحرب العالمية الاولى .

٢٣ ـ مراجعة :

Oliphant, L. : **Land of Gilead, London 1884.**
Oliphant, L. : **Haifa or Life in Modern Palestine,** London 1887.

ارسل اوليفنت عن طريق غير مباشر من قبل وزارة الخارجية البريطانية لدراسة امكانية استيطان اليهود في فلسطين . فدعى بحماس لهذا التوطين ، بالرغم من تقديره للفلاحين العرب ، الا ان النظرة الاستعمارية أوحت له بامكانية الاستفادة من هذه اليد العاملة في المزارع المقبلة ، واما العشائر النصف حضرية فيمكن عزلها ، كما حصل في الولايات المتحدة وكنده .

٢٤ ـ مراجعة: **المرجع السابق** Haifa ، ص ٩٤ ـ ١٩٥ .

٢٥ ـ مراجعة :

Lortet : **La Syrie d'aujourd'hui, Paris 1881.**

كان الاقطاعي يترك في كثير من الاحيان الفلاحين يعملون في الارض حسب النظام القديم ، ويأخذ منهم فقط قسما من الارباح السنوية تتفاوت بين ٢٥ – ٥٠ بالمائة ، واما اذا كان هو نفسه الاقطاعي والمرابي في آن واحد فان هذا الربح يرتفع . ولم يهتم الا قلة من الاقطاعيين في تحسين الزراعة ، اذ لمسوا ارتفاعا في الاسعار بحيث يجنون من زيادة الانتاج ربحا اضافيا . واهتم السلطان عبد الحميد اكثر من غيره بأرضه الخاصة ، وكانت تسمى « السنية » ، فرفع من انتاجيتها وحسّن من مستوى الفلاح ، وبعد خلعه عن العرش وزع بعضها على الفلاحين . وكان له بعضها في غور الاردن . ورفض الاكثرية الساحقة من الاقطاعيين الاهتمام بالزراعة وتحسينها ، فبقيت علاقتها تجارية بحتة مع الفلاحين ، ولم يتوفر لهؤلاء الرأسمال الكافي لتحسين ادوات الانتاج ورفع الانتاجية .

٣ – يعزو بعض الباحثين سبب تأخر الزراعة لاسلوب المشاع ، الذي كان سائدا في الشرق ، ويرجعون مصدره لمفهوم الملكية في الاسلام الذي لا يعترف بملكية الارض الزراعية . وحينما كان يقطع الحكام في الماضي ارضا لقائد او لمحظوظ آخر ، كان بنظر الحاكم تنصيبا اداريا ، يتولى المعني ادارة المنطقة وجمع الخراج ، ولم تكن الارض حقا ملكا له ، ولكنه يصبح بعد الخليفة او السلطان الحاكم المطلق في المنطقة ، كما يستطيع الاقطاعي انابة غيره من الاشراف على المنطقة ، وبالرغم من جميع هذه الاعتبارات فلقد اكد التاريخ ، تبرؤ نظام المشاع في معناه الجماعي من تأخير الزراعة ، بل ان مرجع هذا التأخير هو الظلم الضريبي وفقدان الأمان. وحينما

توفر الأمان ووجدت المجموعة الفلاحية تشجيعا من الحكام والاقطاعيين ، عمّرت المنطقة وزرعت الاشجار المثمرة ، وادخلت المزروعات الجديدة . يضمن الرباط العضوي للمجموعة الفلاحية في القرية او الناحية قوة ذاتية ، تدفعها الى رفع مستواها والتحلي بالارادة الجماعية في سبيل هذا الهدف ، والتغلب ، على ما يعتقده البعض ، مساوىء التقسيم السنوي للاراضي حسب نظام المشاع . ويتغير الوضع ان تجزّأت هذه الارادة نتيجة الانقسام بين حكام المناطق ، او نتيجة تنازع بعض العائلات ، لكسب تأييد السلطان من جهة والفلاحين من جهة اخرى لاستملاك المقاطعة . فتنقسم المجموعة الفلاحية على بعضها بين مؤيد ومعارض ، فيتوصل الامر الى رفض شيخ القرية ، اي ان التناقض في المصالح ينتج عن التناقض في الولاء .

عاش الريف العربي عامة والريف السوري خاصة قطاعا مهملا ، ترفض العائلات الوجيهة الانتساب اليه ، وتفتخر بأصلها البدوي . وكان اهل المدن عامة ينظرون نظرة ازدراء الى اعمال الفلاحة ، معتقدين ان النشاط الفعلي في هذا القطاع يسقط من مكانتها. وظهر هذا الازدراء بوجهه السافر في العصر الحديث ، حيث اخذت البرجوازية المتوسطة والصغيرة ، الفلاحية الاصل ، ترفض العمل مباشرة في الزراعة ، مفضلة العيش في المدينة والعمل في قطاع الخدمات، خصوصا في قطاع التجارة .

تتحدد العوامل الموضوعية التي اثّرت على الفلاحين بالنقاط التالية :

اولا : افقار القرى عن طريق الضريبة من قبل الدولة ، وعن طريق الاقطاع القديم الظالم والحديث الاستغلالي .

ثانيا : مهاجمة القبائل البدوية الدائم للحضر .

ثالثا : طلب الفلاحين حماية الطبقات الاخرى ، تفاديا لمزيد من الاستبداد والفقر ، واعطائهم مقابل هذه الحماية مصالح في القرية او المنطقة .

رابعا : ازدراء المدينة للقرية وعدم الاهتمام بها ماديا ومعنويا ، فلم يهتم حتى من الناحية الدينية بالقرية ، فهي خارج العالم المتحضر ، عالم المدينة .

وافرزت هذه العوامل الموضوعية عوامل ذاتية داخل مجتمع القرية :

اولا : انكماش افراد القرية على انفسهم وتقوية الروح العشائرية .

ثانيا : السعي لتقليد البادية، فقد انتقل قسم من الفلاحين الى الحياة شبه البدوية ، هربا من **هجمات البدو** .

ثالثا : تعيين فرد ومن ثم عائلة تمثل القرية لدى الاقطاعيين او البدو ، او يعيّن هذا الفرد ومن ثم العائلة من قبل الاقطاعي وتقبل به القرية ، وبتعيين الفرد ، تصبح عائلته وريثة المقام. وهكذا نشأت الوجاهات الصغيرة في القرى .

رابعا : وجدت القرية نفسها بسبب فقرها ، مجبرة على الاعتماد على انتاجها فقط ، اذ ليس لديها فائض كاف لشراء مزيد من السلع من المدينة .

خامسا : لم يجد الفلاحون الحماية الكافية من الوجهاء ، بل وجدوا مزيدا من التعسف ، فاتجهوا الى الخالق طالبين رحمته ومؤازرته . وقد فعلوا ذلك بواسطة وسطاء روحيين، فنشأت عن ذلك مزارات الانبياء والاولياء ، يتضرع الفلاح اليهم عند الحاجة ، مناشدا مساعدة ما وراء الطبيعة ، مما يتفق والدين او لا يتفق، وقد عاش الفلاح بين عالم الظلم والخرافات والتدين وعالم الحياة القاسية ، ففقد شطرا كبيرا من ثقته بنفسه ، وشجع هذا الضعف زيادة التدين .

كما اتت علاقة الفلاح بالدين عن طريق المناسبات الدينية التي افسحت له مع اعياد الاولياء ، خصوصا شفيع المنطقة ، ترفيها جماعيا معينا. واجبر كذلك على النظر الى رئيس الدولة التي يعيش في كنفها بمنظار الدين ، والقبول الجبري بتبوئه سدة الخلافة .

ومع زيادة الامان والرفاهية ، وتحت تأثير عملية التحديث ، بدأت كثير من قيم المجتمع القروي تنهار. فبسبب عدم الاحتياج الى حماية تجاه الدولة ، بدأ التكاتف القروي يتزعزع جوهريا ، يغذيه الخلاف بين الوجهاء ، طمعا في الحصول على الارض ، او ابقاء للنفوذ . كما لم تبق حاجة لشيخ القرية ، نسبة للمتطلبات السابقة ، والمتلاشية حاليا . واخذ بعض الفلاحين يسجلون الاراضي باسمهم ، استفادة من القوانين الجديدة ، وخفت الحاجة لتقليد العشائر البدوية .

وظهر العداء لشيخ القرية وعائلته عندما بدأ يتآمر مع ملتزم الضريبة او مع المرابي ضد الفلاحين . ونشأ هكذا عداء جديد يمزق القرية بين مؤيد للعائلة الوجيهة القديمة او لعائلة

شيخ القرية ومعاد لها او لهما .

ومع بروز الملكية الفردية والتناقض العائلي في القرية ، بدأ العمل الجماعي السابق ينهار ، لتأخذ مكانه فردية مطلقة ترفض العمل الجماعي الطوعي ، فمع زوال الضغط الخارجي زال هذا الاستعداد . وحين نظر الفلاح الى حياة المدينة والى نمط العمل في القطاع الحديث وجد الفردية معيارا للعمل ، فلم يمده القطاع الحديث بقيمة ومسلك جديدين كي يعوّض عن العمل الجماعي السابق . بل خلقت له قيم ومسلك القطاع الحديث مزيدا من التنافر والتباعد .

القسم الثاني : الوضع الفكري

بعد التكلم عن طبقات المجتمع الفلسطيني ، لا بد من الحديث عن الوضع الفكري استنادا لتأثير هذه الطبقات ، ولكن قبل الدخول في عملية تقييم شاملة للمستوى الفكري ، يجب معرفة امرين :

اولا : المرحلة الحضارية التي وصل اليها المجتمع العربي السوري عامة والمجتمع العربي الفلسطيني خاصة ، ومدى استيعاب هذا المجتمع للتغيرات الموضوعية والذاتية التي يعيشها .

ثانيا : القيم الجديدة التي نمت مع التحول الحضاري .

ولتحقيق تحليل شامل ، يستحسن دراسة عملية التحديث ونشوء وانتشار الوعي القومي ، ويفضل فصل الوعي القومي عن التحديث ، بالرغم من ارتباطه به ، لتكوين صورة اوضح لعملية الاندماج الوطني . وقبل الدخول في

موضوعي القيم الاجتماعية والمستوى الفكري ، يجب التحدث عن عاملين مهمين : ظهور الشباب المتعلم وتسييس الدين .

اولا : عملية التحديث

ذكرت خلال تحليل طبقات المجتمع الفلسطيني قبل الانتداب بعض ظواهر التحديث ، مثل النمو غير الطبيعي لسكان المدن وطلب بعض السلع الجديدة . كما اخذ القطاع الاقتصادي الحديث يعتمد على اعمال وكفاءات لم تعرف سابقا في القطاع التقليدي . ان قبول الانتقال الى المدن ـ الموانىء ، واستهلاك السلع الجديدة ، والعمل في الحقول الجديدة ، معناه قبول وضع جديد ، وقبول تغيير نسبي في القيم التقليدية .

من الصعب جدا في جو تقليدي ، اتسم بالجمود ، وتأثر بقيم العصر الاقطاعي والسلطة الدينية ، التطور تلقائيا باتجاه مجتمع جديد ، متحرر من هذين النفوذين . لا بد من الاحتكاك بحضارة اخرى للتساؤل حول مقومات الحضارة الشائعة . وقد ادرك الامام جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ابعاد التخلف الحضاري للمجتمع العربي والاسلامي عامة ، حيث طغى التفكير الغيبي على التفكير العقلاني ، وحصر العلوم في نطاق خدمة الدين بمفهومه الجامد ، اي تناقل المعارف في جو من المحافظة ومحاربة الاجتهاد . وفي هذا الجو اللاعقلاني ازدادت الخرافات ، واصبح الفرد فريسة القدر ، يعتقد بعجزه الكامل عن تصوّر مستقبله ، وضاعف انتشار الفساد والفوضى قرونا عديدة من قناعته السلبية .

بدأ الاحتكاك الكبير ، يوم أتى نابليون الشرق ، واظهر

تفوق اوروبه المادي. فتأثر محمد علي بهذا التفوق الحضاري، وادخل الاصلاحات الجديدة على حكمه ، كما نظم جيشه تنظيما حديثا ، مدعما هذا الجيش ، بقدرة اقتصادية عالية . واثر النموذج المصري وبعض الاصلاحات التي ادخلها ابان احتلال سوريه ، بدوره على المجتمع السوري ، بالرغم من ثورته التي دعمتها الدول الاجنبية ضد ثقل الضرائب التي فرضها الحكم المصري .

لكن الصدام الحقيقي نشأ عندما استطاعت الدول الاوروبية الحصول من « الرجل المريض » ، على امتيازات جمركية لترويج سلعها . وهكذا بدأ الانتاج التقليدي الحرفي يشعر بمزاحمة الانتاج الاجنبي الآلي له . وتأتي اهمية هذه المزاحمة من ان الانتاج الجديد اقل جودة من الانتاج المحلي ، لكنه ارخص منه بكثير ، مما شجع الجماهير الشعبية ، خصوصا في المدن ، على اقتناء هذه السلع ، وظهرت طريقة عمل تزاحم الطريقة التقليدية . وبمشاهدة نمو المدن البحرية ، ونمو قطاع حديث ، يعطي مردودا يفوق مثيله في القطاع التقليدي ، بدأت الصورة التقليدية للنظام الاجتماعي الاقتصادي المتوارث تهتز ، ودخل الشك في البنيان الحضاري التقليدي . كما بدأ القبول بالتغيير الهامشي ، وفي بعض النواحي ، خصوصا في الاستهلاك والانتاج .

ساهم هذا القبول وهذا الشك ، الذي سبقه ، في التخلي عن بعض القيم ، ولم تستطع المؤسسات التقليدية والتفكير التقليدي عامة احتواء هذا التبديل والتغيير الجزئي. اذ ان هذا التراكم الحضاري التحديثي : من انفتاح بعض

العناصر الوطنية على الغرب (ومعظمها مسيحي) ، وبدء النهضة الادبية والعلمية، وتحقيق التنظيمات الادارية الجديدة، وانتشار التعليم ، وبدء الهجرة الى البلاد الاميركية وزيارة الدول الاوروبية ، والاحتكاك بالجاليات الاجنبية ، والتطور الاقتصادي عامة ، لم يترك وقتا للتفكير التقليدي السائد لمجابهتها وعزلها . لكنه كان من القوة بحيث منع ، مع عوامل اخرى ، تحوّل هذا التراكم الحضاري الى ثورة حضارية شاملة .

وبعد هذه اللمحة السريعة للتصادم الحضاري والتغيير النسبي والتراكمي ، علينا بحث هذه العوامل مع بعض التفصيل ، دون الابتعاد عن فحوى الدراسة .

ا – تأثير عملية التحديث لدى العرب المسيحيين على المجتمع السوري

بسبب التقارب الديني بين مسيحيي الشرق واوروبه تجاوب هؤلاء مع الارساليات الاجنبية ، خصوصا من كان منها قريبا من الطوائف المسيحية الوطنية . واستفادت اللغة العربية ، من المنافسة القوية بين الكثلكة الاوروبية والبروتستانتية الانجليزية والاميركية والارثوذكسية الروسية، اذ سعت كل واحدة منها ، الى اظهار تمايزها عن الدولة العثمانية ، بمفهومها التركي ، بتشجيعها للغة العربية . ولم تغير الارساليات من سياستها ، الا عندما بدأت تدرك ، ان عليها الآن توجيه المسيحيين بعيدا عن فكرة العروبة ، وفي الوقت نفسه ربط بعض الفئات او مجموعة بكاملها ، بالدولة « الام » ، وقد سعت لتحقيق ذلك بعد تقسيم المشرق العربي،

او كما سعت فرنسه من قبل ، بجعل هؤلاء مرتبطين ثقافيا وفكريا ولغويا وماديا بالدولة الغربية .

خلال نهضة اللغة العربية وانتشار اللغات الاوروبية حدث شيئان مهمان :

اولا : كما ظهر لنا من الفقرات السابقة ، توجه الكثير من المسيحيين الى الاعمال الجديدة ، خصوصا التدريس والتجارة الخارجية والاعمال المالية . فانتقلت اليهم التجارة الخارجية، بعدما كانت محصورة بيد الاوروبيين في الشواطىء الشمالية ـ الشرقية من البحر الابيض المتوسط . وهكذا اشتركت فئة من المجتمع السوري في تسيير القطاع الحديث، واصبح مرافقا فعليا للقطاع التقليدي ، بعدما كان هذا القطاع جزيرة في خضم الاقتصاد السوري . واستطاع الشباب المسيحي، بسبب اجادته للغات الاجنبية، الاتصال بالفكر الاوروبي من انتاج ادبي او انتاج فكري . وساهمت محادثتهم مع الاجانب من مقيمين وسياح ، وزياراتهم لاوروبه، في تعرّفهم على بعض مقومات الحضارة الاوروبية . وبانفتاحهم على اوروبه ، ادركوا نسبيا امكانات الاقتصاد الحديث، وساهمت الارساليات الاجنبية في بلورة هذا الانفتاح الذهني ، ببناء جامعتين في بيروت : الاولى الكلية الانجيلية السورية (الاميركية حاليا) والثانية الجامعة اليسوعية .

ثانيا : سعى الشباب المنفتح على الحضارة الاوروبية ، الى تحقيق تطلعاته الجديدة ، وتقليد الغرب ، فأنشأ الصحف والمجلات، وترجم العديد من الكتب، وسعى الى تأليف الكتب، خصوصا المدرسية منها ، كما سعى الى تأليف المعاجم

والموسوعات . ومن خلال هذا المسعى التجديدي ، شهدت اللغة العربية ، تطورا جديدا ، يؤهلها استيعاب العلوم الحديثة ، مما سهّل التعليم المدرسي .

ب ـ تأثير التنظيمات الادارية الجديدة

استطاعت التنظيمات الادارية الجديدة ، دعم التحديث، برفضها لطريقة الحكم السابقة المبنية على الاقطاع الاداري والمالي ، وبتحقيقها للمركزية وتجديد الادارات الحكومية عبر تحديدها للحقوق والواجبات تحديدا يتجاوب نسبيا مع مفهوم الدولة الحديثة . غير ان هذه التنظيمات ، وان لم تحقق كل ما امل منها ، بسبب فساد الحكم والاوتوقراطية الحميدية ، وبسبب المركزية القوية التي اخرّت عملية النمو في المقاطعات العديدة ، لكنها بتحطيمها للنظام الاقطاعي وافساحها المجال لقوى جديدة لدخول العمل الاداري والسياسي ، متجاوبة مع المتطلبات الجديدة ، ساهمت هذه التنظيمات في التغيير الاجتماعي الاقتصادي . وكان الجيش العثماني سبّاقا في التحديث ، فمنذ عام ١٨٢٥ وخصوصا بعد انهزامه على يد ابراهيم باشا ، سعى الى تجديد نفسه ، والاخذ بالنظام العسكري الاوروبي .

ج ـ انتشار التعليم

كان الاخذ بالاسلوب الاوروبي العسكري قرارا تاريخيا، اذ ارتضي بذلك قبول النظام التعليمي الموافق والاسلوب العسكري الجديد . فأنشئت الكليات والجامعات العسكرية لتخريج ما يحتاج الجيش اليه من اختصاصيين مثل المهندسين

والاطباء والصيادلة . بل وسعى الجيش الى انشاء المدارس الثانوية العسكرية ومدارس رشيديةعسكرية ، لاعداد الطلاب لدخول المدارس الثانوية العسكرية ، وكانت اغلبية هذه الجامعات والمدارس داخلية ومجانية (٢٦) .

وانتشرت مدارس المعارف ، كما ذكر سابقا ، لاعداد موظفي الادارات الجديدة .

ونتيجة لظهور فئة المتعلمين او المثقفين ، وبدء اهتمام الجماهير، خصوصا اهل المدن ، بتعليم اولادهم ، وامام تقصير الجهات المختصة ومنافسةالارساليات، بدأت المراجع الدينية والعلمانية في نشر التعليم .

سعت الكنائس الوطنية في البدء الى منافسةالارساليات في نشر التعليم والتوسع فيه وتبعتها الجهات الاسلامية . وكان كفاح الاخيرة مريرا ، اذ كانت الملة الاسلامية تحت ادارة الدولة العثمانية ، اي تابعة لديوان الولاية . وبما ان السلطان عبد الحميد كان يخشى من انتشار العلم بشكل واسع ، ويلح على الولاة في سبيل ارسال مزيد من المساهمات المالية ، لم يكن التقدم في محيط العلم الا ضئيلا . مما دعا الاهلين الى انشاء الجمعيات الخاصة مثل جمعية المقاصد الاسلامية . وخلال ذلك العهد، خصوصا بعد الانقلاب الاتحادي عام ١٩٠٧ ، بدأ ظهور المدارس الوطنية العلمانية بشكل ملحوظ .

---

٢٦ ـ مراجعة : الحصري ، ساطع : **البلاد العربية والدولة العثمانية** ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٧١ ـ ٧٤ .

شارك التعليم مع التنظيمات الادارية الجديدة في دفع عملية التحديث ، وتقويض بعض اسس المجتمع القديم ونتيجة لكل هذا ظهرت الفئة العلمانية المتمايزة عن القيادة الدينية . وهكذا بدأ الانفصال يحصل بين الاثنين . فلم تكن دعوة الشيخ محمد عبده لتجديد علوم الدين وادخال العلوم العصرية في المدارس والجامعات الدينية، قد وجدت الصدى الكافي ، ولم يتوفر لها هذا الصدى الا بعد ان اصبح التفاوت شاسعا ، وقد استفاد عدد كبير من رجال الدين ، من المستوى الحضاري السائد .

كوّن قسم من الشباب العربي مسلكه الفكري الخاص، مستندا على الحضارة الحديثة ، ناقدا المجتمع التقليدي . وتسربت عملية التحديث الى الذات الفردية ، وبدأ الشباب ، يطرح على مجمل البحث قسما من القيم الاساسية . غير ان الثورة الكاملة على القيم البالية لم تحصل ، بسبب النشأة الاجتماعية لهؤلاء المتعلمين وبسبب الجو الفكري العام .

هـ ـ تأثير المهاجرين والاجانب

جرى الحديث مرارا عن الهجرة الى الخارج ، التي ساعدت في رفع المستوى الحياتي لكثير من المناطق الفلسطينية، كما دخلت عن طريق الاغتراب انماط حياتية جديدة ، واهميتها تكمن في كونها تحققت في الريف الفلسطيني . فحصل تغيير في البناء المنزلي وجلبت الادوات المنزلية الجديدة ، كما اخذ العائدون يتحدثون عن اميركه ، خصوصا الولايات المتحدة ، وعن اوروبه . فتسربت الى خيال الفرد الشرقي صور لحياة جديدة ، اسعد مما يعيشها ، مدركا ان غيره وصل فعلا اليها،

اي انها من صنع الانسان وليست من صنع الجن ، او قسم من الحياة الآخرة في الجنة .

وبدأت الجاليات الاجنبية تكثر في فلسطين . فبالرغم من بغض الفلاح العربي والمجتمع العربي التقليدي للاجانب ، وادراكه انهم يحصلون على قسم من ارضه من جراء شرائها من الاقطاعي او من الدولة ، وهو المتعلق بأرضه ، اخذ الفلاح يلمس فوائد بعض طرق الانتاج الحديثة ، مثل السماد وعلف الحيوانات (٢٧) والبذار الجديدة . وتأثر الفلاح العربي المجاور بالمستعمرات الالمانية واليهودية ، من نظام انتاجها ، فتسربت اليه بعض افكار التعاون . وجد الخبير الانجليزي سيمبسون عام ١٩٣٠ (٢٨) ان بعض الفلاحين المجاورين للمستعمرات الاجنبية بدأوا يطبّقون ، على نمط ضيق ، بعض اساليب التعاون الحديثة . واشتغل عدد من الفلاحين في تلك المستعمرات وفي الاديرة ، حيث استعملت الطرق الزراعية الحديثة .

يتضح من هذا البحث الطويل ، ان عملية التحديث اضحت حتمية ، واصبح صراع القيم حقيقة . وحين تأسست الدولة العربية الاولى في دمشق ، سعى الشباب العربي ، خلال عمرها القصير (١٩١٨ — ١٩٢٠) ، الى تحقيق منجزات كبرى في طريق التحديث وقد استجاب الشعب لذلك .

ثانيا — الوعي القومي

١ — يتضح من التحليل السابق ، ان التفكير العشائري

٢٧ — مراجعة : صلاح حنا ، **المرجع السابق** ، ص ٤٧ .
٢٨ — مراجعة: **تقرير سيمبسون،** القدس ١٩٣٠ ، ص ١٣١ .

والديني ، كانا طاغيين على المجتمع العربي الفلسطيني ، مما جعله يفتقر الى اندماج فعلي بين فئاته . كانت الطبقة الوجيهة التقليدية تتمسك بامتيازاتها ، مفتخرة بأصالة بيتها ، جاعلة من نفسها طبقة مميزة ، تعلو عن غيرها من الطبقات ماديا ومعنويا وتسعى الى الحفاظ على نقاوة عنصرها ، متخذة من قيم البادية قيما لها تأكيدا لهذه الاصالة .

وتعيش العشائر والجماعات الفلاحية والبدوية في عزلة عن بعضها ، منشئة قواعد حياتية خاصة بها ، تؤمّن لها السلام في بوتقتها . وان كان الدين موحدا للمجتمع الاسلامي، لكونه منبع التشريع والاخلاق، غير ان للجماعات الفلاحية والعشائرية منبعها الاخلاقي الخاص الموافق للمستلزمات الحياتية والتراث الحضاري القديم .

وبسبب التعصب الديني ، الناتج عن عصور التأخر والمؤامرات الاجنبية، ظهرت العزلة بين فئات الطوائف الدينية. وتعطي الاحياء في المدن وتوزيع القرى والمناطق صورة لهذه العزلة . فبينما كان الوعي القومي ينتشر بين الشباب المتعلم، كان التجمع الديني الجغرافي في تزايد ، وخاصة بسبب نمو العداء ضد الاستعمار الغربي (المسيحي) وسعي الدولة العثمانية لتقوية مركزها في الاوساط السنية لمجابهة مؤامرات الدول الاوروبية ، ولم تكن الطائفة المسيحية موحدة ، بل كان العداء قويا بين الكاثوليك والروم الارثوذكس ، وبدأ التقارب بين الطوائف الدينية حين اكتشف المسيحيون السوريون عروبتهم ، كمقاومة للنفوذ الديني الغربي ، خصوصا نفوذ اللاتين والانجيليين ، او كمقاومة لتزعّم الاكليروس الاجنبي

للطائفة الوطنية ، مثل تزعّم الاكليروس اليوناني لطائفة الروم الارثوذكس العربية . ولا بد من التنويه ان مفهوم العروبة في ذلك الوقت كان معناه امتلاك اللغة العربية والتراث الادبي ، كقسم من الشخصية المميزة .

ساهمت اربعة امور في التمهيد للوحدة الاسلامية المسيحية في فلسطين بعد الحرب الكونية الاولى :

اولا : اكدت العائلات الاسلامية المقدسية على تقاليد التسامح في الدين الاسلامي ، وساهمت التجربة الطويلة في الاستفادة من الحجاج في توطيد ذلك التسامح ، واصبحت مدينة القدس ، بسبب مركزها الديني الفريد ، ملتقى لتجار الامم الشرقية والغربية (٢٩) .

ثانيا : اعتاد الشعب العربي الفلسطيني ، على وجود الاجانب بينه ، فبالرغم من تصعيد الحقد ضد الاجانب ، فانه لم يكن من الحدة التي عرفتها المناطق الاخرى من سوريه او الدولة العثمانية عامة . فوجود الاديرة كان قديما ، خصوصا في القدس ، ولذا كان اخماد التعصب الديني سهلا .

ثالثا : كان الاختلاط المسيحي الاسلامي قويا في فلسطين ، بالرغم من التجمع الطائفي في المدن والقرى ، فلم يكن للمسيحيين مناطق واسعة خاصة بهم ، كما وجد في جبال لبنان ، بل كان المسيحي يعايش المسلم والعكس كذلك ،

---

٢٩ — مراجعة : **Heyd, W. : Geschichte des Levante handeln in Mittelater,** Stuttgart 1879, p. 48.

باستثناء بعض المناطق القليلة . وزامل الكثيرون من الفلاحين المسلمين اخوانهم المسيحيين . ولم يبدأ نزوح المسيحيين الهائل الى المدن ، الا بعد انتشار التعليم وازدياد الهجرة .

رابعا : نتيجة لهذه الظروف ، استطاع شعب فلسطين التغلب على الايادي الاجنبية القذرة ، التي حاولت اثارة حرب اهلية لمصلحتها . فأخمدت بسرعة بوادر الانشقاق في نابلس والناصرة، وتعجب القناصل الاوروبيون ، حين حاولوا التحري عن الامر لبسط نفوذهم ، من الوئام بين جميع الاطراف . وهكذا لم تصل مذبحة ١٨٦١ الى فلسطين ، وربح الشعب الفلسطيني مناعة ، ظهرت فيما بعد خلال مقاومته للاستعمار البريطاني والصهيوني .

٢ — ذكر سابقا تأثير النهضة اللغوية على الادراك الذاتي لفئات المجتمع العربي . وكانت هذه النهضة مرتبطة بالوعي التام للتراث الثقافي الضخم الذي عني به الاجانب قبل ان يكتشفه مجددا ابناء الضاد . وبدأت تظهر اللغة المطبوعة في المدن السورية ومصر ، وهذا اقام وحدة وحوارا فكريا بين فئة من الشباب ، الذين كوّنوا وحدة فكرية نامية تشعر بترابطها العضوي ، ونتيجة لادراكها لظواهر تحديث اوروبه ، اخذت هذه الفئة تطلب لنفسها ولمجتمعها التطور نفسه. فبدأ الشباب السوري يدرك معنى وطنه ، ويدرك اخطار الانقسام الطائفي . وحين بدأت الحركة الطورانية بالظهور ، اخذ اتباعها يشددون على اللغة التركية ويحاربون اللغة الديوانية وتأثير العربية عليها فتوحد الشباب العربي في الدفاع عن لغته وادرك تمايزه عن الاتراك ، بالرغم من الوحدة الدينية التي

تجمع الشعبين ، وزادت من هذا الادراك محاربة الاتراك للغة العربية . يعلمنا الدكتور جميل صليبا ان حولية المعارف لسنة ١٣١٧ هـ (حوالي ١٩٠٧ م) ، تضمنت الجدول الآتي لساعات مواد التدريس في صفوف المرحلة الاولى الاعدادية :

	الاول	الثاني	الثالث	الرابع	الخامس	السادس	السابع	المجموع
اللغة التركية والكتابةوالادب	٦	٥	٣	٢	١	٢	٣	٢٢
اللغة العربية	٢	٢	٢	٢	١	١	١	١١
اللغةالفارسية	.	٢	٢	٢	١	.	.	٧
اللغةالفرنسية	.	.	٣	٣	٤	٤	٤	١٨

يبلغ مجموع ساعات اللغة العربية في هذه المرحلة ١١ ساعة فقط ، ولم يرض مثقفو الامة العربية بهذا الاجحاف ، ولغتهم لغة مقدسة عند المسلمين كافة . ووجد المسلمون ، ان المدارس المسيحية تعنى باللغة العربية اكثر من مدارس المعارف ، فوجّه قسم من العائلات البرجوازية الاسلامية اولادهم شطر هذه المدارس ، مما ساهم في نشر التعليم اولا ، ونشر اللغة العربية الحديثة ثانيا ، اي لغة الصحافة والكتب الحديثة مؤلفة او مترجمة . وتسربت هذه اللغة ايضا من مصر ، حيث سعي هناك الى تطوير اللغة العربية لتوافق التطور الاداري القائم .

كان هذا التمسك باللغة العربية وتطورها لتتحمل اعباء المرحلة الحضارية الجديدة اكبر عامل في توحيد الشباب العربي المثقف الملتزم بلغته .

وكان من نتيجة تعليم التركية ، انتشار هذه اللغة في الدوائر الحكومية، وبما ان كان الاتراك يتقنونها اكثر من الشعوب الاخرى ، وتجاوبا مع الدفع الطوراني ، عيّن الاتراك في اكثر الوظائف ، « وكان كثير من الموظفين في هذه البلاد حتى في اتفه الوظائف كتوزيع البريد وتعمير خطوط البرق وكتابة الديوان وضباط الدرك ومفوضي الشرطة وتسجيل النفوس وجباية الضرائب من غير العرب الذين لا يعرفون لغة البلاد مما كان فيه تعطيل للمصالح وخلق المشاكل » (٣٠) . وعيّن بعض معلمي اللغة العربية من الاتراك ، كما لم يكن تعليم الصرف والنحو سليما .

وفي خضم الدفاع عن اللغة الام وتعميم تعليمها ، وفي خضم المطالبة باللامركزية ، ليستطيع الشعب العربي حكم نفسه بنفسه ، وتسهيل المعاملات ، بدأ العداء التركي ، المرفق بشعور الاستعلاء ، يظهر ضد الامة العربية .

نشأ الاستعلاء من قبل البرجوازية التركية النامية ، للسببين الآتيين :

اولا : لان التفكير الديني ، يقف عائقا امام تحديث الدولة والاقتصاد، ويرتبط الدين الاسلامي بالعنصر العربي ، بينما لا تقدم الوحدة الدينية اية قوة عضوية متينة .

ثانيا : لان الدول الاجنبية كانت تسعى الى ايقاظ الوعي القومي لدى الشعب العربي ، لفصله عن الامبراطورية العثمانية ،

٣٠ – دروزه ، محمد عزة : **حول الحركة العربية الحديثة** ، صيدا ١٩٥١ ، ج ١ ، ص ٢٢ .

كما حصل في البلقان ، واحلال نفوذها محل النفوذ التركي .

وامام سلبية العلاقة الدينية وامام تدخل الدول الاجنبية، وجدت البرجوازية التركية ، ان الوحدة العنصرية ، اي العنصر الطوراني ، اقوى رابطة في ايجاد الدولة الحديثة والقوية . ولتحقيق هذا الوعي القومي يجب توفير المميزات تجاه العناصر الاخرى : فنشأ التعالي .

ولم تكن البرجوازية العربية النامية لتقبل مثل هذا الاستعلاء ، وهي تتفاخر بكونها « خير امة اخرجت للناس » ، فبدأت تستهزىء بالاتراك وبضآلة تراثهم الثقافي . ومع زيادة حدة الافتخار بالعنصر العربي ، بدأ ينمو التفكير بالاستقلال وارجاع الخلافة الاسلامية العربية. واضحى الافتخار بالماضي نهجا لطريق الحاضر والمستقبل . اذ ان البرجوازية العربية بعد تأكدها من حتمية عملية التحديث ، باندفاع تيار كبير من الوجاهة التقليدية نحوه ، بدأت تسعى لانشاء الكيان الجديد المتمايز والذي يستمد من التراث والتاريخ العربي قاعدته الجديدة . كانت هذه العملية مزدوجة :

اولا : اكتشاف الذات القومية بجميع ابعادها ، وادراك تمايزها عن الشعوب الاخرى .

ثانيا : ادراك الامكانات البعيدة ، التي يوفرها كيان متمايز مستقل .

كان نشوء الوعي القومي العربي عملا تقدميا نسبيا ، لكونه سعى الى اطلاع الفرد العربي على تاريخه وحضارته السالفة العظيمة . وفي الوقت نفسه تحرير الارض العربية

من الطغيان العثماني والاستعلاء الطوراني ، وزيادة معدلات التحديث في سوريه . وسنتطرق خلال الحديث عن فئة الشباب المتعلم ، الى ايجابية وسلبية التفكير القومي العربي الاول .

حققت النهضة اللغوية والادبية اداة اساسية من ادوات التحديث الشامل . اذ افرزت وسيلة اتصال حديثة ، قادرة في ظروف ايجابية معينة ، على تحقيق سرعة توعية الجماهير، ورفع مستواها الثقافي . وقد اكد التطور اللاحق اهمية اللغة العربية الحديثة ، في توحيد مشاعر افراد الشعب العربي وكفاحهم .

ثالثا : الشباب المتعلمون

١ ــ مع انتشار التعليم ، نتيجة دخول القطاع الحديث في الاقتصاد السوري وزيادة معدلات التحديث ، بدأت تظهر فئة من الشباب العربي المتمايز عن المجتمع التقليدي ، بصرف النظر عن عمق هذا التمايز . فظهر تأثير هذا الشباب ، كما ذكر ، على صفحات الصحف وكذلك في الاندية والجمعيات العلمية في البدء ، وبعد ذلك في التنظيمات القومية .

تتميز حركة الشباب هذه ، بكونها انعكاسا للتحديث الحضاري ، فلذا كانت حتمية الظهور . كما ان الافراز الدائم لعناصر جديدة ، متخصصة في مجالات جديدة مثل الطب والمحاماة والصيدلة والصحافة ، جعل منها قوة جديدة ، تتجاوب معها اعداد متزايدة من طلبة المدارس والجامعات .

بل ان دخول الجيل الجديد المعاهد والجامعات ، جعله

يدخل حلبة التمرد ، اذ ان التعليم الحديث ، بالرغم من ركاكته لدى المعارف ، اخذ يطعمه بقيم جديدة مستمدة من امكانات المستقبل ، اي من امكانات التحديث الحضاري ، فيتمرد على عدد متزايد من القيم التقليدية ، ويتوحد هذا الشباب ، بشكل ارادي او غير ارادي نتيجة لزمالة الدراسة والعمل ووحدة المحيط الحياتي كالمدن .

كان الشباب يتجمع في البداية لمناقشة تصوره عن عالم متقدم حضاريا . اي لمناقشة ظاهرة التقدم الاوروبي وطرق ادخال هذا التقدم الى الشرق .

تأثر بعض طلاب المدارس الدمشقية ، بآراء الشيخ طاهر الجزائري ، الذي كان يدعو الى تعليم العلوم العصرية والاخذ بالتحديث دون المساس بالقيم الاسلامية (٣١) . فتعرّفوا على بعضهم بعضا من خلال حلقاته ، وتنادوا الى تنظيم انفسهم ، والدفاع بصورة اكثر حزما عن اللغة العربية وحقوق العرب ، وسمّوا انفسهم الحلقة الصغرى تميزا عن حلقة الشيخ طاهر . فكان نشاطهم او عملهم حزبيا منظما ، ونشروا دعوتهم في المدن الاخرى خصوصا في بيروت . وازداد نشاطهم مع دخول بعضهم الجامعات في اسطنبول ، حيث التقوا بأعداد كبيرة من الشباب العربي ، وكان معظمهم لا يتقن اللغة العربية ، فتولوا تدريسهم اللغة الام وتوعيتهم على التاريخ العربي والشخصية

٣١ — مراجعة : الشهابي ، الامير مصطفى : **القومية العربية** ، جامعة الدول العربية : معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨ — ٣٥ .

العربية . وانشأوا عام ١٩٠٦ جمعية النهضة العربية ، المتصلة بالحلقة الصغرى في دمشق ، وبعد ذلك المنتدى العربي . وذهب آخرون الى باريس ، حيث اسسوا مع زملاء آخرين جمعية العربية الفتاة عام ١٩١١ ، ومن المؤسسين : محمد رستم حيدر البعلبكي وعوني عبد الهادي النابلسي ، وجميل مردم الدمشقي ، ومحمد المحمصاني البيروتي ، وعبد الغني العريسي البيروتي ، ورفيق التميمي النابلسي ، وتوفيق السويدي البغدادي . وانضم الى هؤلاء بعد ذلك عدد كبير من المثقفين العرب من مدنيين وعسكريين . وكانت هذه الجمعية اول حزب عربي يعمل بطريقة سرية ، ويدقق في الانتسابات . ولعبت هذه الجمعية دورا كبيرا خلال العهد الفيصلي ، اذ كان الامير فيصل عضوا فيها (٣٢) .

وفي خلال ذلك ، انشئت الاحزاب الاخرى ، وتنامى عدد الطلبة العرب في اسطنبول ، وانضم الى الحركة الموظفون العرب وممثلو الولايات العربية في البرلمان العثماني الجديد ، بعد ثورة ١٩٠٧ .

من خلال مسار الحركة الطلابية الاولى نجد التصاعد في طرق النضال مع التوسع في التعليم وزيادة الوعي القومي والارادة التحررية من الحكم العثماني والطغيان الطوراني . وفي مدة قصيرة لا تتجاوز عشرين سنة نهضت الحركة من كونها عديمة القوة ، وطورت من اسلوب نضالها ، انعكاسا لوعيها ولقوة الارهاب .

٣٢ — مراجعة : دروزه ، محمد عزة ، **المرجع السابق** ، ص ٢٧ .

٢ ـ لم يحصل في تلك المرحلة من تطور القيادة السياسية الجديدة ، اي تناقض يذكر بين افواجها ، اذ يحفظ الجيل الجديد من الشباب المثقف كل احترام للجيل السابق. اذ يشعر انه يقوم بنفس الرسالة ، رسالة تحديث المجتمع العربي ، حسب مفهوم البرجوازية العربية النامية ، خصوصا، اذا وضعنا بعين الاعتبار العناصر الاسلامية في سوريه والعراق ، والتي ارتبط نموها بعاملين ذاتيين :

اولا : تزعّم بعض العلماء لعملية التحديث ، من ادخال العلوم العصرية وتحديث بعض مؤسسات المجتمع الاسلامي .

ثانيا : حتى الحرب العالمية الاولى كانت النسبة الكبرى من طلاب المعاهد والجامعات من ابناء العائلات الوجيهة التقليدية ، التي ظلت محافظة على بعض القيم التقليدية حفاظا على وجاهتها .

وعزز استبداد العثمانيين واضطهادهم للشعب العربي من الوحدة بين جميع الفئات المتعلمة . ولذا نرى خلال مؤتمر باريس عام ١٩١٣ ، جمعية الفتاة تتنازل عن رئاسة المؤتمر ، بالرغم من دعوتها العامة اليه ، الى الجمعية اللامركزية ، والتي كانت تحتوي الرعيل الاول من الشباب المتعلم .

ولكن التناقض وجد بين الشباب المتعلم وبين العلماء والوجهاء التقليديين ، الرافضين مبدئيا لعملية التحديث ، او المرتبطين بشكل اعمى بالاستانة « عاصمة الخلافة » . فهم مبدئيا ضد التحديث ، واذ قبلوا القرارات السلطانية في تحديث الادارة والجيش فلكونها آتية من الخليفة نفسه .

ولكنهم كانوا يرفضون الانفتاح الفردي على الحضارة الغربية، لتأكدهم من حتمية تقلص سيطرتهم المادية والادبية . وانفجر الصراع حين دعي لعقد مؤتمر باريس ، فسعى الشباب الواعي في دمشق لنشر الفكرة ، لكسب تأييد الجماهير له ، واظهار اعضائه كممثلين حقيقيين للشعب العربي في سوريه والعراق . واخذت العناصر التقليدية الرجعية تتهم هؤلاء الشباب بالكفر، وما الى ذلك من نعوت ، ولكن وحدة المثقفين الواعين فوتت عليهم حملة التشهير والتخريب، خصوصا وان مطالب القيادات السياسية الجديدة اتجهت نحو الدفاع عن اللغة العربية ، لغة القرآن ، والدفاع عن مصالح الشعب العربي . غير ان التناقض الاكبر ظهر بين قسم من الجيل الجديد المسيحي والتفكير التقليدي . اذ سعت الارساليات الاجنبية الى كسب مسيحيي الشرق ، فتوسعت بشكل كبير في نشر التعليم ، واخذت الارساليات الانجيلية تساعد العائلات على ارسال اولادهم الى مدارسها . فوجد الكثير من الشباب المسيحي مجالا للعمل لدى الارساليات . ونتيجة للتعليم وللاطلاع على الافكار الليبرالية الاوروبية والاميركية ، عن طريق الاجانب من رجال دين او علمانيين ، او عن طريق قراءة الكتب والمجلات الاجنبية، بدأ تمردهم على التفكير التقليدي يظهر ، تجاه طائفتهم او تجاه المجتمع ككل . وثار بعضهم على طوائفهم وعلى رجال الدين المتحكمين بأمور المجتمع وحرية الناس .

وساعد الاغتراب على معرفة مبادىء وعلاقات انسانية، غير التي عهدوها في بيئتهم الاصلية ، وبالرغم من تطور الكنائس الشرقية ، الا ان رجال الدين ظلوا متمسكين بسلطتهم ونفوذهم المادي ، مما يتنافى وحقيقة حرية الفرد الاجتماعية،

ولذا وقفت الكنيسة ضد الجانب الفكري المسلكي من عملية التحديث ، اي ضد انبثاق مفاهيم جديدة تنظم العلاقات الاجتماعية وتعطي للاخلاق ابعادا اوسع من تلك المرتبطة بالمجتمع المغلق .

بالرغم من بقاء نفوذ رجال الدين ، كما سيأتي ذكره ، جعلت سرعة التحديث لدى الفئات المسيحية رجال الدين يفقدون كل مبادرة او نفوذ فعلي في تحديد قيم المجتمع . وقد حصل التطور نفسه لدى الفئات الاسلامية ، في الربوع السورية والعراقية بعد الحرب العالمية الاولى .

٣ ـ بسبب اختلاف المدارس التعليمية والجامعات العليا ، غدا هناك تناقض في المدارس الفكرية ، انعكاس للبرامج التعليمية والتوجيه التربوي عامة . وقد يكون لتعبير «مدارس فكرية » محتوى اكبر من محتواه الحقيقي هنا ، ولكن يحتفظ بهذا التعبير لتحليل اسباب تشتت المثقفين او المتعلمين البرجوازيين بعد الحرب ، وعدم ظهور وحدة عضوية تخطط لاقتصاد يتجاوز الاقتصاد التجاري ، وتوجه التحديث في هذا الشأن .

بان هذا التناقض في ثلاث ظواهر :

اولا : الاختلاف في استيعاب مفهوم الحضارة .

ثانيا : فقدان الوحدة الفكرية .

ثالثا : التعصب للانتماء التعليمي .

بدأ الخلاف في التوجيه التربوي بين النظام التعليمي الفرنسي والنظام الانجليزي ـ الاميركي . فبينما كانت اكثرية

اعضاء الارساليات الفرنسية او الكاثوليكية عامة مرتبطة بالنظام القديم في اوروبه او بالتفكير المحافظ ، كان الانجلو سكسونيون والانجيليون عامة اكثر انفتاحا على الحضارة الحديثة خصوصا الحضارة الصناعية . يشعر البروتستانت ، كما يؤكد عالم الاجتماع ماكس فيبر ، انهم المهيمنون واكبر المساهمين في تطوير النظام الحضاري المادي الجديد . ولذا كان نظامهم التربوي تهيئة الفرد لهذا التغيير والانفتاح الكامل على العلوم الحديثة . بينما يشعر الكاثوليك ان التطوير الحديث يصير ضد ارادتهم ، اذ ان الكنيسة الكاثوليكية كانت مرتبطة في اوروبه بالعناصر التقليدية من ملاك اراض وتجار ، ومسيطرين على الريف بينما كان العمال او بالاحرى سكان المدن عامة متحررين من تأثيرها ، وفي نصف القرن الماضي ، اضطهدت الحركة الليبرالية في اوروبه اليسوعيين ، فأتى بعضهم الى الشرق . ولذا اهتم هؤلاء والارساليات الافرنسية عامة في تخريج شباب يخدمون الاقتصاد التجاري : ثقافة متوسطة محدودة ، تخشى المدنية الحديثة ، وتنظر الى التطور الاجتماعي بعد الثورة الافرنسية الكبرى على انه كفر ، وضد مشيئة الله . يتعلم الفرد الحقد على الحركات الاجتماعية الجديدة من برجوازية ليبرالية او اصلاحية او من ثورية . كما يعتاد على استعمال اسماء الليبرالية او الاشتراكية او الشيوعية ، كنعوت شتم .

اهتمت الجامعة اليسوعية بالاداب ، واذا ما ادخلت الطب والهندسة ، فلكي تقاوم نفوذ الجامعة الاميركية فقط ، واذا ما اهتمت بدراسة الحقوق فلأنها تخدم المجتمع التجاري المحافظ .

اما الجامعة الاميركية او الانجيلية سابقا ، فقد اهتمت بالعلوم الطبيعية والرياضية والانسانية ، ووضعت المجتمع الاميركي معيارا للتقدم الحديث ، فلذا كان التفكير الليبرالي مسيطرا على خريجي هذه الجامعة ، وخصوصا ان دراسة التاريخ في المدارس الانجلو ـ سكسونية والانجيلية عامة ، اهتمت بتحليل التطور الاجتماعي ، المتعلق بانتصار التفكير الليبرالي والتأكيد على الديموقراطية والحرية الفردية .

وكان خريجو المعارف والمدارس الاسلامية ، الواقعة تحت اشراف الدولة ، لا يعرفون الكثير عن التطور الفكري في اوروبه ، اذ عمد السلطان عبد الحميد الى منع نشر او تعليم اي شيء ينبه رعايا الدولة العثمانية الى نماذج لنظام حكم وحقوق الافراد ، تتناقض والنظام الاستبدادي الفردي . اكتسب بعض الشباب افكارا ليبرالية عن طريق صحف بيروت في بادىء الامر ، اي قبل تشديد الرقابة ، وبعد ذلك عن طريق الجرائد المهرّبة من القطر المصري او من السمع او من قراءة الكتب الاجنبية ، ممن اتقن احدى اللغات الاوروبية . وحصل آخرون على معلومات خلال اقامتهم في الاستانة او في اوروبه .

ولكن لم تتوفر للشباب المتخرج من المدارس الحكومية ، بشكل عام صورة لفحوى المجتمعات المتقدمة ، ومع ذلك كانوا يجدون انفسهم ، خصوصا ابناء الطبقات المتوسطة ، في صدام مع الواقع المتأخر : من علاقات اجتماعية ونظام حكم .

تضامن الشباب نسبيا ، في سبيل دفع عملية التحديث المادي ، والمطالبة بالكرامة الوطنية ونشر اللغة الام واحلال

اللامركزية ، وبعد ذلك المطالبة بالاستقلال . كان هذا الحد الادنى للتضامن كافيا لتلبية مطاليب البرجوازية العربية النامية . ولا ينفي هذا التضامن تناقضا فكريا ، انعكاسا لعمق الالتزام القومي ، وعمق الوضوح الفكري وارتباطا بالانتساب الطبقي ، ولكن هذا الاختلاف ظهر بعد الحرب .

وتطور الارتباط بالمدارس المختلفة الى نشوء نوع من تحزّب للمدرسة والمنهاج التعليمي والنظام التربوي ، وكذلك تبعية الى جنسية المدرسة خصوصا في مدارس الارساليات وجامعاتها . ولم تكن هذه العوامل لتساعد على توحيد قاعدة التفكير لدى المجتمع العربي ، لتهيئة عامل اولي للعمل المشترك الطويل الامد . ولا ننسى مبدأ المفاخرة لدى البرجوازية العربية : تفاخر بالعنصر العربي وتفاخر بالاصل العشائري او العائلي ، اضيف اليها مفاخرة جديدة في الانتماء التعليمي وذلك حبا بالوجاهة وابتغاء للمصالح المادية سعيا لحصر النشاط بفئة معينة دون غيرها .

٤ ـ ذكر اكثر من مرة ، تأثير الانشاء الطبقي على تفكير الشباب في تلك الحقبة ، ولقد ذكر عمدا اسماء مؤسسي جمعية العربية الفتاة ، ليدرك القارىء هذا الانتماء الطبقي ، بل سيتأكد من ذلك حين يقرأ اسماء جميع الاعضاء المدنيين من التنظيمات الحزبية العربية قبل الحرب العالمية الاولى ، ويختلف الامر مع العسكريين ، حيث يأتي بعضهم من العائلات البرجوازية المتوسطة ، بسبب نظام التعليم لدى الجيش العثماني ، والذي افسح المجال لابناء هذه العائلات دخول معاهده المتوسطة والعليا والجامعات العسكرية . ولم يتوحد

نشاطهم السري مع الفئات الاخرى الا خلال الثورة العربية .

نتيجة لتغلب ابناء الطبقة البرجوازية العليا عدديا وادبيا على مجموع الجمعيات الحزبية ، عجزت هذه الجمعيات عن تحليل مجمل المشاكل الاجتماعية والاسباب الحقيقية لتخلف المجتمع العربي ، بل انحصر النضال بالمدافعة عن العنصر العربي والمطالبة باللامركزية ، لتلمسها استفادة منها . وحين بلور هذا الشباب المثقف صورة للحياة البرلمانية ، عني منها مشاركته للحاكم ، وليس التمثيل الفعلي لجماهير الشعب ، فهذا الشعب بنظره غير واع يرضخ لحكم الاستانة ، اي للخلافة الاسلامية هناك .

واظهر الشباب مقاومة للنظام الاقطاعي التقليدي ، لوقوفه عثرة امام تقدم نفوذه وتوطيد مصالحه ، وبدلا من ازالة هذا الاقطاع ، انشأ مكانه اقطاعا زراعيا جديدا ، اشد سطوة واكثر استغلالا للفلاحين . وعطل التيار الاول للقومية العربية واجبه التاريخي في دفع عملية التحديث اذ بسعيه لاخذ مكانة الاقطاع التقليدي في المحيط الاقتصادي ، وجه التحديث في اطار معين لا يختلف في قيمه ، عن بعض قيم المجتمع التقليدي المهترىء . وسنجده في عصور الحكم الذاتي والاستقلال المشوه (سوريه — لبنان — العراق) يلتحم مع بقايا الاقطاع التقليدي ، بل يقوّي من نفوذه ، طلبا لمؤازرته في معركته ضد المعارضة الشعبية . ولا بد من التنويه بان قلة من الشباب ، خصوصا من ابناء الطبقة المتوسطة ، ظلت محافظة على تمردها ، مهيئة بذلك مجالا لظهور اجيال متمردة وثائرة .

رابعا : تسييس الجهاز الديني

من ضمن القرارات الادارية الحديثة ، وتحت تأثير الدول الاوروبية ، صدر عام ١٨٥٦ قرار باعادة تنظيم شؤون الملل المسيحية بما يخص البطركيات والاسقفيات واعطائها الحكم الذاتي لتصريف بعض الامور المدنية . كما تم تكوين المجالس الملّية والجسمانية والروحانية (٣٣) ونتج عن هذا التنظيم زيادة النفوذ السياسي لرجال الدين وظهور الوجاهة المسيحية العلمانية عن طريق تزعّم هذه المجالس .

لم تكن الملل في الماضي مستقلة في كل شؤونها ، وكانت كل واحدة منها مبعثرة ، نتيجة للتقسيم الاقطاعي . وجدت المؤسسة الطائفية نفسها ، مع اقرار التنظيم الجديد واحلال المركزية ، تمثل مجمل رعاياها ، وزاد نفوذها نتيجة نمو نشاطها الاجتماعي. فطورت من مدارسها الاكليريكية ، وانشأت المدارس العادية والمستشفيات .

مع انهيار النظام الاقطاعي وفقدان الزعامة التقليدية ، ومع محاربة الاصلاحات الدستورية من قبل عبد الحميد ، بدأت التجمعات الملّية تتطور ، لتظهر كتنظيم سياسي ، يعطي الرئيس الروحي للطائفة الزعامة السياسية . وسينمو هذا النشاط الجديد خلال عهد الانتداب في فلسطين ، ليشمل النوادي الثقافية والرياضية .

وبما ان النشاط الاجتماعي مرتبط بالقدرة المالية ، تعاظم دور المحسنين ، والعائلات الثرية التي هي اقدر الناس

---

٣٣ — مراجعة: الحصري، ساطع : **المرجع السابق** : ص ٨١ .

على التبرع الدائم والسخي نسبيا ، فعظم شأنها وكثر مدحها، خصوصا من الاكليروس ، فوجدت طريقا مفروشا لها لتزعّم المجالس الملّية ، والفوز بالوجاهة السياسية . ولقد كانت الانتخابات الملّية دائما مجالا للصراع داخل الطائفة ، خصوصا لدى طائفة الروم الارثوذكس ، اكبر طائفة مسيحية في فلسطين .

ذكر سابقا حالة هذه الكنيسة ، وتفجّر الصراع علنا في اوائل عهد الانتداب ، اذ سعى الارثوذكس العرب الى التخلص من الرئاسة الدينية اليونانية ، وتوطد نتيجة هذا الصراع مركز العلمانية داخل الكنيسة ، واصبح الصراع قسما من النضال العربي الفلسطيني ، وقوّى من الترابط المسيحي ـ الاسلامي.

كان المسلمون الواعون يحسدون الملل المسيحية على استقلالها الذاتي، مما ساعد على نشر التعليم والعمل الاجتماعي عامة في الاوساط المسيحية . بينما كان العمل المركزي العثماني يعيق المعارف ويرتبط برجعية السلطان عبد الحميد.

اعتمدنا ذكر تسييس الجهاز الديني المسيحي لعدة اسباب :

أ : كانت فكرة المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين مستمدة من التنظيم الملّي ، انتظره المتعلمون المسلمون بفارغ الصبر . ولعب هذا المجلس دورا كبيرا في تاريخ فلسطين اما من ناحية تزعمه للعمل السياسي ، او ما اوجده الصراع على الزعامة من تفرقة في صفوف الطبقة الوجيهة الفلسطينية.

ب : ظل التنظيم الملّي عامة مسيطرا على العمل السياسي

في فلسطين حتى اواخر الانتداب لارتباط الوجاهة السياسية به .

ج : تأثير التنظيم الديني في تعطيل عملية التحديث الشاملة ، لشله لحركة التطور الفكري الحر .

خامسا : قيم المجتمع الفلسطيني حتى عهد الانتداب

١ ـ ساهم التحليل حتى الآن في توضيح التركيب الاجتماعي للمجتمع والتحولات التي حصلت خلال تلك الحقبة، وهكذا توفر المحيط الموضوعي او بالاحرى القاعدة الموضوعية لدراسة المستوى الفكري للشعب الفلسطيني . يهمنا هنا معرفة اسباب تأخر ظهور التفكير العلمي ، لنعرف بعد ذلك الاسباب الذاتية للتطورات اللاحقة ، وتحدد القيم والمسالك السائدة في اي مجتمع على نطاق التفكير . ويدعو الواجب الاول معرفة القيم والمسلك لمعرفة سلبيات التفكير العربي الفلسطيني بعد ذلك .

من الصعب معرفة جميع قيم المجتمع العربي، خصوصا في تلك الحقبة ، لعدم توفر المراجع الكافية ، ولم تقم حتى الآن مجهودات متواضعة لبحث علمي واسع ، ولا يستطيع البحث الحالي اعطاء صورة دقيقة لاكثر القيم ، لان اي مجهود اضافي لا يتكافىء وفحوى هذا البحث . واذا كان الهدف من هذه الفقرة هو اظهار للقيم فقط ، فلن يهمل بحث المسلك لارتباطهما ، كما سيكون موضوع المسلك نقطة ارتباط بين هذه الفقرة والفقرة السادسة .

ليس سليما ما يقوم به بعض الكتاب الغربيين من استقاء

القيم من مصدرين او ثلاثة فقط (مثل الدين والبداوة والمدنية الحديثة) . وذلك لان القيم السائدة في المجتمع العربي في الحقيقة تأتي من مصادر عديدة، ارتباطا بالنماذج الحضارية الصغيرة والكبيرة التي تعاقبت او تشاركت خلال العصور ، خصوصا القريبة منها .

٢ ـ كانت الاديان ، وخاصة الدين الاسلامي ، اهم مصدر للقيم ، اذ استمدت منه قوانين الاحوال الشخصية والمدنية وحددت اسس الاخلاق ، ولكن يجب التأكيد على ان مفهوم الدين مرتبط بالمستوى الاجتماعي السياسي ، لان هذا المستوى يحدد فهم الدين وتوارثه ، فالطبقات المسيطرة تسعى دائما الى تفسيره في صالحها ، كما يحدد المستوى الفكري العام المفاهيم الدينية .

نتيجة لعصور الجهل والفساد والطغيان اضحت القدرية مسيطرة على الافراد ، فنتجت عن ذلك حلقة كئيبة : تديّن مفرط لدى الفرد يزيد من ازدرائه بالحياة الارضية ، تصل الى حد التصوف ، فلا يرمق الا الى حياة الآخرة . ونتجت عن هذا التدين ، المزاحمة على تمجيد رجال الدين والطاعة لهم ، خصوصا في المدن ، كذلك نتج التطرف في التشفع بالاولياء والقديسين طلبا للحماية . فتولد لدى الفرد نوع من الاتكالية، يعتقد ان الكثير من الامور فوق ادراكه وامكاناته، فيتسرع في وضع حد لمقدرته البشرية .

يؤكد التفكير الديني التقليدي على عجز الفرد وتفاهته ، فيسلبه هذا الثقة بالنفس ، اساس اي عمل جديد ، ولا يعطيه الا المسؤولية الشكلية . وفي هذا النطاق الفكري

الجامد ، المبني على العلوم النقلية ، عظم شأن كبار السن او الشيوخ واعتاد الناس تسميتهم : الاولياء والحكماء الذين يعرفون من الحياة اكثر من غيرهم ، فالشباب بعرفهم جاهلون، عليهم الطاعة والاسترشاد .

حدد للفرد في هذا المجتمع المغلق نسبيا ماذا يجب عمله ، وليس ماذا يجب ان لا يفعله ، كما نتلمسه في القوانين الجديدة ، فقيدت حرية الفرد وازدادت مراقبة المجتمع له .

٣ ـ ترك التنظيم الاقطاعي السابق ايضا قيما معينة ، واهمها قيم الحكم المطلق من استبداد تام وعطف تام ، اي ربط الفرد بالاقطاعي عن طريق الشراء المعنوي والمادي او عن طريق الاكراه ، ويزيد هذا المسلك من اقتناع الطبقة الاقطاعية بتفوق « عنصرها » ، ليوازيه في الوقت نفسه اقتناع من الفلاحين الجهلاء بوضاعة « عنصرهم » .

وتتناقض بعض القيم الاقطاعية مع قيم الفلاحين ، فتربط الجاه الاقطاعي بالملك والثراء ، بينما تعتمد القيم الفلاحية على امتلاك الارض ، ولا يغيب عن الذهن ان النظام الفلاحي كان دائما مرافقا للنظام البدوي في المجتمع العربي. فالتناقض بين الاقطاعي والفلاح اساسي ، فالفلاح يحب ارضه ، ويرفض البقاء اجيرا مشتغلا فيها . ويعطي الملك في القرية لصاحبه وجاهة . بالرغم من نموذج الحياة الجماعية للفلاح العربي ، كان تملك ادوات الانتاج هدفا دائما للفلاح ، يسعى لتحقيقه متى سنحت الفرصة ، اذ يتطلب العديد من الواجبات زيادة الدخل ، مثل المهر والسعي للحصول على مشيخة القرية او زعامة القرية وتكاليف المناسبات ، كما كان هناك فارق

اجتماعي بين فلاح مالك وفلاح غير مالك .

٤ ـ ولعل القيم العشائرية او البدوية كانت اهم قيم اثّرت على المجتمع العربي ، اذ تتلازم البداوة مع الحضرية ، وليس هناك حد فاصل بينهما . خلال عهود الامان تتقلص المساحة البدوية وتزداد الحضرية . ونشاهد الآن امتداد الحضرية ، بينما اجتاحت البداوة الكاملة والجزئية مسافات شاسعة من الريف السوري حتى العقد الثامن من القرن الماضي . وبعد احلال المركزية العثمانية واستتباب الامن ، بدأت تتراجع .

تمتاز الحضارة البدوية بالترابط العشائري القوي ورفض كل سلطة جغرافية سياسية تعلو التنظيم العشائري هذا. اي ان النظام العشائري يتحلى بالتصميم على الاستقلال، كأساس حماية الذات ، والتعامل مع العشائر الاخرى او الحكم العام عن طريق التكافؤ . ليس لدى العشائر البدوية اية صورة واضحة للمجتمع او للامة ، فمنظار البدوي الاجتماعي ضيق .

تتصاعد عندهم قيم الشهامة والضيافة ، لكنها مرتبطة بالنظام البدوي المبني على العصبية والفردية والنظام الاقتصادي العام ، فباضمحلال بعض هذه الاسس ، تهتز او تنهار اسس القيم والسلوك الاخرى .

حين بدأ النظام البدوي ينهار ، لم يجد امامه نظاما آخر يحتويه كليا ، اذ يحتوي النظام الحضري قسما من النظام البدوي ، ونتيجة لعصور الظلام والاستبداد والرشوة ، افتقر

المجتمع العربي الحضري الى الامان والوحدة الاجتماعية والحكم الصالح عامة . فوجد الفرد العربي في عشيرته او عائلته اكبر ضمان له ، تحميه وتسند مساعيه لكسب لقمة العيش . ويستلزم الابقاء على العصبية العشائرية والعائلية ، الابقاء على بعض قيم البداوة من التضامن والاخذ بالثأر الخ ... وظهر لنا خلال الفقرات العديدة تمسك الوجاهة التقليدية وتفاخرها بعنصرها ، ولما كانت القبائل البدوية تمثل نقاء العنصر ، وبما ان الادب العربي من اساطير وقصص وشعر يمجد الحضارة البدوية من شهامة وكرم وحرية الخ ... سعى وجهاء المدن الى التمسك او الادّعاء بالتمسك ببعض هذه القيم ، للحفاظ على مكاسبهم المادية ولاسباغ الشرعية على استغلالهم .

وتأثر المجتمع الحضري في قيم المجتمع البدوي ، باحتقار المرأة والاذلال من مكانتها الاجتماعية بل الانسانية ، فتولدت قيم التفاخر لدى الرجال بجنسهم ، وذكر العديد من البحاثة ، وكما شهد ويشاهد ، استعلاء الصبي على البنت ولو كانت اكبر منه ، اعتقادا من مجتمعه أن لديه تفوقا فكريا، غير التفوق الجسدي ، على الجنس الآخر .

٥ ـ يعرف الكثير من المدن العربية تاريخا طويلا من النشاط الاقتصادي والاجتماعي ، وافرزت حضارتها قيما عديدة ، مثل تقدير العمل والعلم ، وتظهر هنا بصورة اوضح قيم الملكية، وما ينتج عنها من استغلال ومقاومة له واضطهاد. وبما ان المدن تحضن القسم الاكبر من رجال الدين والمؤسسات الدينية، فانها تشعر اكثر من غيرها بوطأتهم المعنوية والحسية. يقدم التصوف الشديد والمواعظ الدينية الدائمة نماذج من

عالم المثالية يتمثل بالاتقياء ، ويشعر اهل المدينة بوطأة رجال الدين الحسية من خلال القوانين العديدة التي تحدد لهم ماذا عليهم ان يفعلوا .

وفي الوقت نفسه ، الذي شاع فيه التدين والسلطة الدينية ، سرت الفوضى في الربوع السورية ، نتيجة عدم انضباط جند الانكشارية ، خصوصا في القرن الثامن عشر والربع الاول من القرن التاسع عشر ، واضحوا حكومة داخل حكومة ، يسطون بالقوة على الاملاك ويضطهدون عامة الشعب، ونشأت كلمة « زعران » ، من احدى فرقهم . كان الناس يخشونهم ولكن في الوقت نفسه ابدوا اعجابا بشجاعتهم ، وحين قضي عليهم نشأ بدلا عنهم اشقياء المدن ، ونسميهم حاضرا « القبضايات » .

ويؤكد الدكتور علي الوردي ، استاذ علم الاجتماع في جامعةبغداد ، على مشكلةازدواجية اهل المدن فيقول: «مشكلة اهل المدن انهم يحترمون المواعظ البليغة ولكنهم لا يستطيعون اتباع ما فيها من تعاليمٌ ومثل عليا . فهم قد نشأوا منذ طفولتهم على اخلاق اخرى حسبما توحي به قيمهم المحلية ، وهي اخلاق مناقضة ، تماما لتلك التي تدعو اليها المواعظ الدينية ، فالمواعظ تدعو الى قيم الحلم والعفو والمساواة والعدالة ، وتشجب قيم العصبية والثأر والفخار والغلبة . واما القيم المحلية فهي على النقيض من ذلك . ومعنى هذا ان الناس اصبحوا تحت تأثير نظامين متعاكسين من القيم ، فماذا يصنعون تجاه ذلك ؟

... اكثر اهل المدن ليسوا بأشقياء ولا اتقياء ، بل هم

بين بين . وهم الذين يستفحل عندهم ازدواج الشخصية ، فهم يحترمون الاشقياء والاتقياء في آن واحد ، وهذا ما جعلهم يقتدون بالاشقياء طورا وبالاتقياء طورا آخر . فترى احدهم يترنم بآيات القرآن ، وبأحاديث النبي واصحابه واهل بيته ، وهو قد يشهر سيف لسانه على المخالفين لها ، ولكنه لا يدري انه نفسه قد اعتاد مخالفتها في كثير من قيمه وفعاله. فهو عندما يغضب ويشتم او يتعصب ويتأثر ، ينسى الله ورسوله ويجري مندفعا وراء قيمه المحلية لا يلوي على شيء ، اما اذا جلس في مجلس المواعظ والوقار ، انقلب الى تقي زاهد ، واخذ يشكو الى الله من الظلم السائد ومن سوء اخلاق الناس . انه يذم اخلاق الناس كأنه ليس واحدا منهم ، او كأنه نشأ في مجتمع آخر » (٣٤) .

٦ ـ كان على هذا المجتمع الحضري استيعاب المجتمع البدوي والعشائري الفلاحي ، ولكن انى له القيام بهذا الدور وهو متناقض القيم ، يحتوي على بعض قيم البادية ، وقيم التصوف وقيم الملك والنظام المدني وقيم الجند الانكشاريين، وتزداد فوضى القيم بتسرب الحضارة الاوروبية الحديثة الى الحضارة التقليدية وما اوجدته من بلبلة وتغيير .

خلال الكلام عن قنوات التحديث ، اتضح لنا التناقض بين التجديد والهيكل التقليدي ، اذ خلال الانغلاق والمحافظة الشديدة ، تجمدت المؤسسات وحددت القيم والمسالك ،

---

٣٤ ـ الوردي ، د. علي : **دراسة في طبيعة المجتمع العراقي**، بغداد ١٩٦٥ ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦ .

وربط التصرف اليومي من كل جوانبـه بالتصور الديني ، فكانت كل عملية تحديث ولو صغرت تمردا على التفكير الديني التقليدي ، وفي الوقت نفسه تمردا على التدين الاعمى .

بدأت الاستفادة من القوانين الغربية في الاصلاح الدستوري والاداري ونظريا في القوانين المدنية . كما ان الاطلاع على التفكير الليبرالي الغربي ونشوء الوعي القومي العربي ، زادا من علمانية التفكير. بدأ التساؤل عن علاقة الفرد بالحاكم ، وما يلي ذلك من حقوق وواجبات ، وعن مفهوم الشعب والمجتمع وبالاختصار دخلت افكار ومصطلحات وصور جديدة على تفكير وكلام الفرد العربي ، تحثه على التمرد في سبيل الاصلاح ... او الثورة لاحقا .

غير ان التحديث الحضاري ، لم يكن متزنا او مجددا لجميع اوجه النشاط الانتاجي ، بل على العكس من ذلك اتى مزاحما للنشاط التقليدي وليقضي على بعض اوجهه ، لحساب الصناعة الاوروبية كما حصل بالنسبة للصناعة المحلية. ووقفت الاسواق الداخلية فريسة الشراسة الامبريالية ، كما ارتبط قسم من الانتاج الزراعي بهذا الانتاج مثل تربية دود القز . ويعتقد البعض ان ميزة سوريه هي في خبرتها التجارية، وان دمشق وحلب وصيدا والقدس قد بنت شهرتها على هذا الاساس . لكن هذه المدن اشتهرت ايضا بالصناعة الحرفية ، واضحت دمشق سوقا لسلع كثيرة ، وكانت مجموعة الحرفيين واسواقها منظمة تنظيما دقيقا يقف على رأسها شيخ الصنعة، ينظمها ويتأكد من سلامة الانتاج ، وتعليم الاولاد الحرفة ، وضمان مدخول افراد الحرفة ، وافتخرت كل حرفة ، ومعها

المدينة ، بانتاجها . ولا بد من التنويه بأن قيم المجتمع الحرفي تختلف عن قيم المجتمع التجاري البحت . فالتاجر الصرف يعتمد على تقلبات السوق من عرض وطلب ، مهتما بالصفقات، بينما يسعى الحرفي التاجر الى ضمان سوق ثابت له ، يضمن نجاحه بواسطة مستوى الانتاج وزيادة الطلب عليه ، وقد شجعت عملية التحديث المبتورة قيم التاجر الصرف ، اي قيم « الشطارة » : السرعة في عقد الصفقات والتهيئة لها بجميع الوسائل .

تبين من خلال البحث ، استئثار تجار القطاع الحديث، خصوصا قطاع التجارة الخارجية، بالمبادرة في ولوج القطاعات الاخرى من حديثة ومتطورة ، فتزعّموا القطاع المصرفي ، واتجهوا شطر القطاع الزراعي كمرابين او كملاك . فرفعوا معنويا من شأن عقلية الصفقات والثراء السريع ، ولو من خلال الرشوة والتلاعب بالسوق . اعطوا هكذا « للشطارة » ابعادا جديدة . فاعتقد التقليديون انها عنوان التحديث ، اذ لم يجدوا في القطاع التجاري والمالي تخصصا يتطلب سنوات عديدة من العلم والجد ، بل تمرنا وممارسة فقط في « السوق » ، وامتلاك اللغات الاوروبية ان امكن ، وما الدراسات الجامعية من محاماة وطب وهندسة مدنية وصيدلة واداب ، الا تخصصات تابعة او هامشية للنظام التجاري ، الذي يرفض كل تخصص لا يتلاءم وهذا المفهوم التجاري والمالي .

ولم تساعد سياسة الدولة العثمانية ورضوخها لمطاليب الدول الاوروبية على تطوير الحرف المحلية او انشاء الصناعات

الوطنية . فبقيت عقلية التجار، عقلية الصفقات ، هي السائدة، وتجاوبت الوجاهة التقليدية من اهل المدن مع النشاط التجاري الحديث ، فوسّعت من نشاطها الداخلي ، ووضعت امام اعينها هدف الدخول متى امكنها مجال التجارة الخارجية . ولذا كان من مطاليب التجار المسلمين في سوريه السماح لهم، بالتعامل مع اوروبه على منوال زملائهم المسيحيين .

يعتقد البعض ان القيم التجارية المالية وريثة آلاف السنين ، ولكن الحقيقة العلمية تؤكد عكس ذلك وبالرغم من اهمية التراث التجاري في مدن وشواطىء سوريه ، نشأت هذه القيم بمفهومها الحالي مع التطور المبتور للقطاع الحديث، تحت تأثير الضغط المباشر وغير المباشر للاستعمار الغربي ، وفي رعاية تربية ونظام تعليميين مشوهين .

سادسا : المستوى الفكري

١ ـ لقد قمنا حتى الآن بتحليل المجتمع الفلسطيني قبل عهد الانتداب كي ندرك خلفيات التطور الذي جاء بعده ونعرف اسباب تأخر نشوء التفكير العلمي . اذ اننا حين نضع التفكير العلمي كنموذج امام اعيننا فاننا نريد مقارنته بالتفكير السائد في سبيل معرفة مساوىء هذا الاخير .

من المستطاع اجمال مفهوم التفكير العلمي بالنقاط الآتية : ثقة الانسان التامة بقدرته على معرفة العوامل الموضوعية والذاتية وتوجيه مستقبله ، ولذا عليه التمسك بالعقلانية والتخطيط ، وتتطلب هاتين الصفتين عملا جماعيا منظما .

يمتاز التفكير العلمي السليم او الثوري ، بأنه ينظر الى

بعيد اي الى مستقبل الانسان ، لان المستوى الانساني اساس التغييرات الارادية . بالرغم من كون الليبرالية تحتوي على تفكير علمي في طريقة الانتاج وضمان مسيره ، الا ان ايمانها بالقانون الطبيعي للمبادرة الفردية وخدمتها للمجتمع ، لا يفسح المجال لتصور مجتمع افضل والعمل في سبيل تحقيقه . هناك اختلاف كبير بين المبادرة الفردية وبين تنمية كفاءة الفرد لخدمة المجتمع ، وليست الكفاءة تجميعا عدديا للانتاجية الفردية فقط ، بل ايضا الارادة الفردية في تقديم هذه الانتاجية ، وعلى كل عمل عقلاني ادراك القناعة الذاتية او ايجادها .

ساعد التفكير العلمي المحدود في العالم البرجوازي الصناعي الانسان على الدخول الى عالم الطبيعة غير المتناهي والمادي في جميع ظواهره ، ولكن التفكير البرجوازي يرفض تحليل المجتمع وادراك العوامل الديناميكية الموجودة في البنيان الاجتماعي . فقد رفض في البدء العلوم الاجتماعية وارتضى بها عندما حوّرها لتنصهر في بوتقته ، اي بعد تجاوبها مع فلسفة المبادرة الفردية خصوصا ، الفلسفة النفعية . فأصبح علم الاجتماع مثلا تحليلا لمسلك الفرد وليس تحليلا للمجتمع والعوامل الديناميكية التي توجهه .

ان التفكير العلمي السليم ، كما حدد اعلاه ، هو ادراك شامل لجميع العوامل التي تسير وتحيط بالانسان ككائن جماعي عقلاني ، واي تهرب من حقيقة كفاءة الانسان هو مساس لانسانيته ، وقد وجدت فئة معينة ، الجمود والتطور المشوه ضمانا لاستغلالها .

٢ ـ تلمّسنا حتى الآن من خلال التحليل ، كيف ان الطبقات المستغلة سلبت الفرد انسانيته ، خصوصا الثقة بالنفس ، وكيف ثابرت على استغلاله. ونتج التطور الحضاري من خلال بروز فئات جديدة، انعكاسا للضغط الخارجي، ذلك ان الوجاهة التقليدية تنافست على الزعامة ساعية الى اخذ مكانها في الاستغلال المادي . وادركت هذه الوجاهة خلال المنافسة ، ايجابية بعض اوجه الحضارة الحديثة ، في خدمة وجاهتها ونفوذها المادي. فسعت الى توجيه عملية التحديث، ولكنها عجزت عن ادراك تأثير دخول قيم جديدة على البنيان التقليدي ، وتسليح المستغل بارادة متعاظمة للتمرد استجابة لاكتشاف الذات ونمو ثقته بنفسه ، ولكن هذا النمو كان بطيئا ، بسبب قيم المجتمع التجاري الذي ولّد تأثيرا معاكسا، من سلب الفرد ثقته بقيمته الانتاجية امام الانتاجية الاوروبية المتفوقة . ربح الفرد تحرره النسبي ولو ببطء ، مثل ارادة التحرر والحركة ، ولكنه اخذ يفقد ثقته بمقدرته على التغيير، ليشعر بامكانية التغيير ولديه نماذج بمجتمعات اخرى ، ولكن طريقة وسرعة التغيير تبقى له مبهمة ، ويبقى غير قادر على سلوكها وتوجيهها .

ترتبط قوة التمرد بالصدام الحضاري ، فالاكثرية الكبرى من الفلاحين في فلسطين اكتشفت الحضارة الحديثة عن طريق المدن القريبة والاجانب من سياح ومقيمين وعن طريق المهاجرين خصوصا العائدين منهم ، وساعد تكوين الريف العربي الفلسطيني والاندماج الطائفي على الاسراع في عملية التحديث . بدأ الفلاحون العرب بالاقتناع بامكانات الانسان ، مما زاد في تمردهم واستعدادهم لقبول التغيير، ذلك انه لم تتوفر

لهم خلال الحكم العثماني الامكانات للتوسع في التجديد من ذاتهم ، اذ حرموا من التعليم الحديث ، وكان التفكير الديني السلبي ضاغطا عليهم ، بتحريض من الوجاهة التقليدية ، ولم تتوفر طبقة متوسطة (برجوازية متوسطة وصغيرة) ، مرتبطة فعليا معهم اذ كان اكثر افراد هذه الطبقة من العرب المسيحيين لانتشار التعليم بينهم ، ولانفتاحهم الحضاري عامة ، وقد ساعدت هذه الفئة على نشر الوعي الحضاري ، غير انها لم تستطع قيادة عملية التمرد .

كان اكثر المتعلمين من ابناء العائلات الوجيهة التقليدية او من ابناء تجار المدن ، غير مطلعين على التفكير التقدمي لاسباب موضوعية ، مثل نشأتهم ، ونمط الثقافة الحديثة التي حصلوا عليها . كان تفكيرهم مبتورا ، ويشكل انعكاسا للتناقض الذي كانوا فيه ، الوجاهة التقليدية والتحديث، ولم يكن الوعي القومي لاكثرهم الا رد فعل على التعجرف التركي وافتخارا بأصلهم خصوصا اصل عائلتهم الوجيهة . ونظروا الى التحديث على انه ضمان لنشاطهم المادي ومزاحمة للوجاهة التقليدية المحافظة . واذا ما قبلوا ببعض الاصلاحات ، فذلك تحت الحاح القوى النامية في المدن والتي ازداد عدد المتعلمين من ابنائها ، خلال عشر السنين الاخيرة من عمر الحكم العثماني ، ولكن معظم الشباب الجامعي ظل منتميا الى الطبقة العليا .

لم تستطع الفئة المتعلمة في سوريه استيعاب المطامع الاستعمارية الجديدة بالرغم من اطلاعها على المقاومة المصرية للاستعمار البريطاني ، الا انها كانت في جو فكري وعملي

يرفض فهم معنى الاستعمار الاوروبي ، اذ اخذت بسرعة التحديث في مصر نتيجة احتلالها من قبل الاستعمار البريطاني، واستفاد بعض المتعلمين السوريين ، خصوصا المسيحيين منهم من هذا الوضع ، وتزعّم بعضهم الدعوة الى اللامركزية وبعد ذلك الدعوة الى الاستقلال . ووجدت البرجوازية السورية نفسها في عداء مع البرجوازية المصرية ، التي كانت تسعى الى توطيد العلاقة مع السلطنة العثمانية، تعاونا في طرد الاستعمار البريطاني ، بينما اعتمدت البرجوازية السورية على بريطانيه وفرنسه لتحرير سوريه والمشرق العربي عامة من النير العثماني .

لم يسمح الانتماء الطبقي والمستوى التفكيري للفئة المتعلمة الا القيام بالامرين التاليين :

اولا : قبول التحالف مع الاستعمار للاعتقاد بالمصلحة المشتركة بينه وبين العرب .

ثانيا : المطالبة بالخلافة العربية والارتباط مع الرجعية العربية ، فبينما كان التقدميون الاتراك ضد الحكم السلطاني، نجد الشباب العربي الواعي ، يبحث عن ملك ويجده في فيصل المثقف ، معتقدين ان الالتفاف حول زعامته سيخلق الدولة العربية الحديثة .

استطاع بعض الشباب الواعي ، المطّلع على الحضارة الاوروبية والمخلص تجاه المجتمع والوطن ، ان يساهم بعد الحرب العالمية الاولى في بناء اجيال جديدة . ولكن اظهرت التطورات في الدويلات العربية، المصطنعة بعد الحرب ، حقيقة

القسم الاكبر من الفئة المتعلمة ، وانصياعها لمصلحتها الخاصة، ولم تكن معارضتها في بعض الاحيان الا حقدا شخصيا ، او خوفا من الغضب الشعبي .

كانت الدولة العربية الاولى في دمشق عملا رومنطيقيا لهم، وليست عملا ثوريا لتجديد المجتمع العربي، فلم يستعينوا، بعد التهديد الافرنسي عام ١٩٢٠ ، بالطبقات ذات المصلحة الاولى في التجديد ، والتي ظهر استعدادها خلال التجاوب الكامل مع الدولة العربية . فملكهم تردد امام انذار غورو ، وترك يوسف العظمة يقوم بعمل انتحاري لاظهار الارادة الاستقلالية العربية . وشهد العقدان الثالث والرابع من هذا القرن ، الصورة الطبقية الحقيقية للقسم الاكبر من هذه الفئة المتعلمة ، وقبولها بالحلول الوسطية ضمانا لمصالحها .

ان الشوائب التي رافقت عملية التمرد في ظل تأثير المجتمع التجاري وتوجيهه لحركة التحديث كتوجيهه للتعليم والثقافة بشكل عام ، تطرح الآن تساؤلا حول قدرة هذا التمرد على اتمام عملية التحديث الشامل من خلال استكشاف التفكير العلمي وتطبيقه، لن يستند الجواب على النتائج المقبلة من زيادة في الوعي التحرري للجماهير بعد الحرب العالمية الاولى ، خصوصا في العقد الرابع، بل سيسعى الى استكشاف التفكير والحركة من خلال الاستنتاجات السابقة .

بدأ التمرد وانتشر دون ان يولد الوعي الطبقي وينصهر في حركة منظمة ، وذلك بسبب المستوى التحديثي وتحت تأثير هذا المزيج الغريب من القيم التي وقفت عائقا امام تحرير ارادة الفرد . وجابهت ولادة الثقة بالنفس ضغطا مضادا من

قبل قيم المجتمع التجاري الجديد ، افقد الفرد ثقته بانتاجاته .

من مميزات قيم « الشطارة » دفع الانسان الى التهرب من واقعه وذاته والعيش في جو من النفاق على الذات وعلى المجتمع ، في ظلال تعجرف وجمود فكري يتلاءمان مع العقلية التجارية المرتبطة بالوجاهة ، وكضمان للقدرة على العمل غير الشرعي . يؤمن الفرد بعظمة شخصه ولا يهمه جهله بجميع الامور ، لان « شطارته » تترجم الى صفقات ومزيد من الدخل، عنوان كل « نجاح » . لا يقبل تفكيره الثقافة الحقيقية ، لان عمله لا يوفر له الجهد الذهني ، القادر على استيعاب التسلية الفكرية . يريد ادبا لفظيا ، وجيّده ما يمدح عبقريته . ويكره الادب والعلوم الملتزمة حفاظا على مصالحه. ان هذا ليس بالجو الملائم لولادة التفكير العلمي او تشجيعه ، بل يجد التفكير العلمي نفسه في صراع مع هذا المجتمع التجاري ، لتوسيع عدد مؤيديه ، وايصاله الى الطبقات ذات المصلحة الحقيقية بالتغيير .

واذا اخذنا بعين الاعتبار الازدواجية القاطنة في ذات العربي ، تحت تأثير العديد من القيم ، نجد هذا الفرد غير قادر على مراقبة تصرفه ، لافتقاره الى قيم مترابطة من سلبية وايجابية . وتزجه قيم المجتمع التجاري الحديث المتصاعدة في مأزق ، لتناقضها مع كل مسلك جماعي .

جلب الاتجاه الحضاري ، الذي سار عليه المجتمع العربي خلال عملية التحديث ، مزيدا من الفردية ، انسجاما مع قيم المجتمع التجاري النامي . فتضافرت هذه الفردية مع الفردية النابعة من القيم البدوية لتولد شخصا عربيا يشعر بالعزلة ،

وتوازيا مع هذه العزلة ، يدرك الفرد العربي نتيجة لتمرده ووعيه القومي ، قوته العددية، ولكن في اطار الصورة القديمة، صورة التضامن العشائري المتجسدة في بعض الاوجه التي ما تزال حية في الذاكرة او الخيال . ومن هنا تنبع العاطفة السياسية لدى الفرد العربي .

ينتج المسلك العاطفي السياسي للفرد العربي من وعيه السياسي النامي او بالاحرى من تمرده وظهور ثقته بالمقدرة البشرية ، ومن مواقف معاكسة من فردية وعزلة . ولذا تتجاذب الفرد العربي مرة عزلة وضعف ، ومرة اخرى شعور بالقوة المستوحاة من وعيه وخياله . تجعله يثور طورا ويخمد الى السكينة طورا آخر . وسنشاهد صور هذه المسرحية بعد الحرب العالمية الاولى ، مع انتشار الوعي والتمرد . ولا يفسح هذا المسلك لعمل منظم طويل الامد ، لان مثل هذا العمل يحتاج الى ثقة تامة بالنفس وتضافر جماعي منظم .

تحت تأثير القيم التجارية ، خصوصا « الشطارة » والفردية ، وفقدان الثقة الانتاجية وبقاء بعض القيم البدوية والانكشارية ، نشأت لدى الفرد العربي الشخصية الفهلوية التي حللها د. حامد عمار (٢٥) واكدها د. صادق جلال العظم :
« من خصائص الشخصية الفهلوية التي يعددها الدكتور عمار البحث المستمر عن اقصر الطرق واسرعها لتحقيق هدف معين

---

٣٥ ــ مراجعة: د.عمار، حامد : **في بناء البشر : دراسات في التغيير الحضاري والفكر التربوي**، مركز تنمية المجتمع في العالم العربي ، سرس الليان، ١٩٦٤ ، ص٨٠-٩١ .

او غاية معينة مع تجنب العناء والجد المطلوبين عادة في اجتياز العقبات للوصول الى تلك الغاية وتجنب استخدام الوسائل الطبيعية لتحقيقها ، لان هم" الفهلوي ليس انجاز العمل على اكمل وجه وانما انجازه وتحقيق هدفه حتى لا يقال عنه بأنه عاجز عن ذلك او انه (ما بيقدر) او (ما بيطلع بيده) . . . »(٣٦) .

لا يستطيع الفرد الفهلوي تنظيم عمله والنظر الى الفائدة البعيدة ، بل يريد اظهار شخصيته ونجاحه في اقرب وقت ، فالقضية باطنيا له « شطارة » فلا يحتاج الى نقد ذاتي لان الحظ يلعب دوره ، كما ان الازدواجية التي حللها د. علي الوردي تجعله ينسب الى غيره سبب فشله ان ظهر عجزه بوضوح .

في هذا الجو من الفردية والعاطفية والازدواجية والعمل الفهلوي في اطار المجتمع التجاري ، يصعب نشوء التفكير العلمي ، حتى ولو اطلع الشباب العربي على العلوم المرتبطة بهذا التفكير . ان بدء استيعاب كل تفكير علمي يشترط التحرر الكامل من القيم البالية ، والاستمداد بقيم جديدة تتجاوب مع المجتمع الذي سيولد هذا التفكير .

اعتمادا على التحليل السابق ، نستطيع ادراك التطورات التي كانت حتى نكبة ١٩٤٨ :

اولا : ازداد نفوذ البرجوازية الكبيرة المتطورة او الجديدة من خلال استيعابها للقطاع التجاري الحديث وتوجيهه

---

٣٦ – د. المظم ، صادق جلال : **النقد الذاتي بعد الهزيمة ،** بيروت ١٩٦٨ ، ص ٧٠ .

في مصلحتها .

ثانيا : تلاءمت هذه الطبقة ضمنيا وعلنيا مع الحكم الجديد ، ضمانا لاستمرار نجاحها المادي .

ثالثا : ازداد الصراع على النفوذ بين الوجهاء ، سعيا وراء مزيد من النفوذ والثراء .

رابعا : ازداد تمرد الجماهير العربية على النظام الفكري التقليدي ، الذي يعيق تحررها ، واستمدت من هذا التمرد الثقة بالنفس والحركة .

خامسا : اتسع حجم التعليم وظهرت فئات جديدة من برجوازية متوسطة وصغيرة متسلحة بمزيد من الوعي القومي التحرري .

سادسا : ازدادت قيم المجتمع التجاري وبقي مسلك الشخص فرديا فهلويا ازدواجيا وعاطفيا. ولكن انتشار الوعي الاجتماعي والسياسي ، وتأثير الازمات المتتالية ، ساعدا على ظهور النقد الذاتي والشعور الجماعي . غير ان مرحلة مكافحة القيم البالية والمؤثرة على شخصية الفرد الفلسطيني كانت طويلة ، لا تفسح المجال لظهور الكادر الثوري .

كما ذكر في المقدمة لن يكون هدف الكتاب الحالي بحث تاريخ نضال الشعب الفلسطيني من جميع اوجهه وليس هو تحليلا عميقا للمجتمع الفلسطيني من خلال النضال ، ولكنه بحث تأثير التفكير السائد على التعليم ، وتأثير التعليم على التطور . وفي هذا الفصل سعينا الى استخلاص صورة للتركيب الطبقي والتكوين الفكري **لمعرفة الاتجاهات المقبلة** .

وهكذا ، عرضنا التغييرات الجديدة من موضوعية (التكوين الطبقي والهيكل الاقتصادي وذاتية الوعي القومي والاجتماعي وقوة التمرد والشعور الجماعي) . هذا من ناحية مقارنة حقبة بحقبة اخرى . وكان هدف هذا الفصل ايضا الجواب على السؤال التالي ، لماذا لم يتحقق التفكير العلمي في تلك الحقبة؟ ذلك التفكير القادر على توجيه النضال العربي الفلسطيني وتحقيق النصر له . فكان الجواب ، ان الهيكل الاقتصادي للمجتمع الفلسطيني بدأ يتغير ولكن ببطء ولمصلحة القطاع التجاري الحديث ، الذي افرز قيمه واستوعب قيما متوارثة، ولكنها ليست في صالح التحديث الشامل اساس التفكير العلمي . وتزعمت الوجاهة التقليدية المتطورة والرأسمالية التجارية توجيه التطور ، وتجاوبت هذه الارادة مع التخطيط الاستعماري .

نستخلص من ذلك انه لم يكن للتفكير العربي ، حين بدأ الانتداب ، اي صورة واضحة لمهمة التعليم ، من ناحية تربية جيل جديد ، قادر على تحمل اعباء قومية واجتماعية .

كان فحوى التعليم في نظر هذا التفكير : زيادة عدد المتعلمين تجاوبا مع الحاح الطبقات الصاعدة واحتياج التوسع التحديثي المشوه ، وفي الوقت نفسه تأكيد زعامة اللغة العربية وادبها ، وتوعية الطالب العربي لتاريخه ووطنه ، انسجاما مع نظرة هذه الطبقات للقومية العربية .

الفصل الثاني

تطور التعليم والسياسة التعليمية في عهد الانتداب

كان التحليل حتى الآن مهتما بمعرفة الخلقية الاجتماعية والفكرية لتطور المجتمع الفلسطيني في عهد الانتداب ، وفي هذا الفصل سنتحدث عن تطور التعليم واهداف السياسة التعليمية الاستعمارية ، ولكن في اطار الالتزام بالسؤالين اللذين طرحا في المقدمة ، وهما :

- ما مدى التوسع الفعلي في القطاع الحديث، وانتشار قوة التحديث ؟
- ما هي القيم التي قدمها نظام التعليم في خلال عهد الانتداب ومجابهتها بقيم العمل الجماعي اساس التفكير العلمي ؟

ولذا ، سنسعى في هذا الفصل الى معرفة اعداد المتعلمين ، وتحليل نظام المعارف الدراسي لنطلع على كيفية تربية التلامذة من قبل حكومة الاستعمار . نحتاج الى معرفة تعداد المتعلمين او نسبة التعليم لادراك التوسع الفعلي في القطاع الحديث ، اي معرفة تجاوب الشعب الفلسطيني مع متطلبات القطاع الحديث ، ولذا سمي تعليم المعارف في العهد العثماني التعليم الحديث او العصري استجابة لمستلزمات النشاط الاقتصادي الجديد ، غير ان تحليل طريقة التعليم

يساعدنا فقط على معرفة مدى تناسق هذا التعليم مع المتطلبات الحقيقية لعملية التحديث ، اي تغيّر قيم ومسلك الفرد لزيادة فعاليته وتحقيق رفاهيته .

سنتجنب الحديث في هذا الفصل عن الصورة التي وضعتها الجهات الوطنية لنشاطها التربوي ، سنتحدث فقط عن التعداد الطلابي المختلف انعكاسا لمتطلبات البحث في الشطر الاول من هذا الفصل . وفي الفصل الثالث ، حين نتحدث عن موقف الشعب العربي في فلسطين من التعليم ، سنذكر ذلك الموقف ، ونتعمق في التحليل مع الدراسات الشاملة المرتبطة بالفصل الرابع والخامس ، حيث سيدرس الوضع الاجتماعي الاقتصادي وكذلك النضال السياسي من خلال علاقته بالتعليم .

اولا : انتشار التعليم حسب احصاء ١٩٣١

لم يكن الاحصاء السكاني لعام ١٩٢٢ وافيا كما هو عليه لعام ١٩٣١ . اذ بعد ١٢ سنة من حكم الانتداب توفر لحكومة الانتداب الجهاز الاداري والخبرة اللازمة للقيام بعملية احصاء شاملة . وكانت النتيجة الاحصائية لا بأس بها وتعطي صورة اولية للمجتمع الفلسطيني ، خصوصا العربي ، اذ لا تتوفر الا مراجع حكومة الانتداب ، بينما كان للوكالة اليهودية والتنظيمات الاجتماعية الصهيونية ، ادارات الاحصاء والابحاث ، التي تقدم لها دائما صورة لتطور المجتمع الصهيوني في فلسطين .

وبالرغم من ان الاحصاء الشامل الاولي جاء بعد ١٢ سنة

من الانتداب الا ان المعلومات التي قدمها قادرة على تغطية التطور منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى .

١ ــ حسب الاحصاء السكاني لعام ١٩٣١ ، كان عدد السكان العرب او بالاحرى عدد سكان فلسطين من غير اليهود ٨٥٩ر٠٠٠ نسمة (من اصل ١ر٠٣٣ر٠٠٠ نسمة) (١) . وبلغ عدد المتعلمين منهم اي الذين دخلوا المدارس حوالي ١٢٠ر٠٠٠ الف (٢) واذا حسمنا من هذا العدد مقدار ٢٠٠٠ شخص من الاجانب الغربيين غير اليهود (مدنيين انكليز ــ المان ــ الارساليات ، جاليات اخرى ...) ، يكون العدد حوالي ١١٨ الفا من المتعلمين العرب . ونستطيع حسم نفس العدد (٢٠٠٠ شخص) من حجم السكان فيكون عدد العرب حوالي ٨٥٧ر٠٠٠ . ونتيجة لذلك تكون نسبة المتعلمين العرب ١٣ر٧٥ بالمائة من عدد السكان العرب .

يعطي هذا الرقم مبدئيا صورة كئيبة للوضع الثقافي في فلسطين عام ١٩٣١ غير ان هذا المعدل لا يعطي الصورة الحقيقية. اذ ان هناك تفاوتا في التعليم بين العناصر الاسلامية والعناصر المسيحية كما جاء في الفصل الاول ، لقد توفر للمسيحيين عدد كاف من المدارس ، سهّل عليهم الانتساب اليها بسبب تجمّع الاكثرية منهم في المدن ، بينما وقف الحكم العثماني موقفا لا يشجع على نشر العلم بشكل واسع. وسنرى في الفقرات التالية عدم اكتراث الانتداب البريطاني بالواجبات التعليمية ، تجاوبا مع مفهومه الاستعماري . علينا

---

١ ــ Survey of Palestine 1946, Vol. I, p. 141.

٢ ــ Census of Palestine 1931, Vol. II, p. 124.

تحليل الوضع التعليمي مذهبيا لنوفر المعلومات الصادقة بهذا الشأن ، كما ان تحليلا مثل هذا يساعد على فهم التطور لدى العرب المسلمين في فلسطين وهم يمثلون الاكثرية (٦٧ بالمائة من سكان فلسطين عام١٩٣١ ، و ٨٠ بالمائة من السكان العرب. فتعداد المتعلمين المسلمين هو حوالي ٧٥ر٥ الف من اصل ٦٩٣ الف نسمة اي حوالي ١١ بالمائة من السكان ، بينما النسبة لدى المسيحيين هي ٤٧ر٥ بالمائة . ويعلمنا جدول (رقم ـ ٤) ان ٨١ بالمائة من المتعلمين درسوا فقط اقل من ست سنوات ، منهم من درس اقل من سنة ومنهم من انهى الاعدادي الادنى . اي ان ١ر٢ بالمائة من المسلمين في فلسطين درسوا اكثر من الخامس اعدادي .

٢ ـ بعد هذه الصورة العامة عن العرب المسلمين ، علينا ان نتوقف عند المتعلمين من عمر ٢١ سنة وما فوق، اذ يكوّنون نسبيا مجتمع الراشدين ، وهم الذين يؤثرون على مجرى الامور فنجد ان تعداد المتعلمين ٣٩ر١٢٥ شخصا درس القسم الاكبر منهم (٧٣ ٪) اقل من ست سنوات . وحسب جدول (رقم ـ ٥ ـ) نجد ان عدد السكان العرب المسلمين في فلسطين من عمر ٢١ سنة وما فوق هو ٣٦٣ر٦٢٠ اي ٤٧ر٥ بالمائة من المسلمين ، ونسبة المتعلمين الى هذا العدد هو ١٠ر٧ بالمائة ، اي ان ٨٩ر٣ بالمائة من الراشدين كانوا اميين .

ولا بد حين دراسة ارقام الاحصاءات للفئة المسيحية حذف معدل قدره الفي شخص من الاجانب تقريبا ، القسم الاكبر منهم من الراشدين . فنسبة التعليم لدى الراشدين

من المسيحيين العرب هي ٢٩ بالمائة وتكون نسبة الاميين من الراشدين الى تعدادهم ٧١ بالمائة .

ولما كان عدد الدروز ضئيلا نسبيا ، حوالي ١٠ آلاف نسمة حسب احصاء ١٩٣١ ، وعدد المتعلمين اقل نسبيا من المسلمين ، ولما كانت احصاءات حكومة الانتداب تضع ارقام الدروز تحت اسم « الآخرين » وتفاديا لزيادة حجم الجداول، سعي الى عدم ذكر « الآخرين » ، ولكن مع الاهتمام بتصحيح الصورة كلما سمحت الظروف بذلك ، خصوصا عند ذكر النسب ، ويجدر بنا هنا التنويه الى ان الاحصاءات والنسب، تستعمل هنا كادوات لمعرفة خلفية تطور معيّن ، وليس لها اي مدلول آخر .

واعتمادا على الارقام والجداول المذكورة ، يتضح ان نسبة المتعلمين لدى الراشدين من العرب هو ١٥ر٧ بالمائة اي ان الامية لديهم هي بنسبة ٨٤ر٣ بالمائة .

واذا نظرنا الى جدول (رقم ـ ٤ ـ) نجد ان الاكثرية الكبرى من المتعلمين الراشدين الذين درسوا اقل من ست سنوات ، تصل بين المسلمين الى ٧٤ بالمائة .

ويبلغ عدد من درس ممن هم فوق سن ٢١ من المسلمين ١٤٨٣ واذ زدنا على ذلك ١٦٠٠ شخص من المسيحيين العرب والدروز بعد حذف الاجانب يكون العدد ٣ آلاف شخص تقريبا ويشمل هذا العدد قسما لا بأس به من الجامعيين .

٣ ـ تظهر الصورة الواضحة للتأخر المرحلي للشعب الفلسطيني تفاوتا تعليميا بين الذكور والاناث ، فبينما كانت

نسبة المتعلمين من الذكور في فلسطين تصل الى ٤ر٢٣ بالمائة وبين المسلمين الذكور الى ١٩ بالمائة، نجد هذه النسبةتنخفض بين الاناث الى ٧ر٦ بالمائة عامة و ٤ر٢ بالمائة بين المسلمات ، وتصل هذه النسبة الى ٣٥ بالمائة بين المسيحيات العربيات. وتنخفض كثيرا نسبة المسلمات المتعلمات الراشدات لمجمل الراشدات .

يتضح لنا ان المشكلة الاجتماعية الكبرى التي عاشها المجتمع الفلسطيني العربي ، كانت عدم الاهتمام الكافي بتعليم المرأة ، قد يقال انه لم يكن هناك اماكن كافية للصبيان، فكيف يمكن لهذا المجتمع ان يهتم بالبنات ، ان هذا التحليل بعينه يحتوي على المأساة ، اذ يضع الرجل في مقام اعلى من مقام المرأة . لم يعترف المجتمع الفلسطيني بمساواة المرأة للرجل مساواة كاملة قبل ١٩٢٨ .

٤ — من هذه الايضاحات ومن الجداول المرفقة تتضح لنا الامور الآتية :

أ — ان نسبة المتعلمين كانت ضئيلة خصوصا لدى الراشدين ، ولكن ان اخذنا هذهالنسبة في الاطار العام لتطور المجتمع الفلسطيني ، نجد ان نسبة المتعلمين لا بأس بها ، وليس هذا الفضل راجعا لحكومة الانتداب ، اذ سنرى ان توسع التعليم بالرغم من ارتفاعه الكبير عن ارقام ما قبل الحرب ظلت نسبيا جامدة حتى سنة ١٩٢٩ . توسع التعليم في اواخر الحكم التركي واول سني الحرب كثيرا في فلسطين خصوصا في ولاية القدس . اذ في عام ١٩١٤ كان هناك ٩٥ مدرسة ابتدائية وثلاث مدارس ثانوية يعلّم فيها ٢٣٤ معلما وتعداد

جدول رقم (٤)

الاشخاص المتعلمون من العرب حسب احصاء ١٩٣١ (1)

عدد سنين الدراسة	عامة: جميع الاعمار	عامة: فوق ٢١ سنة	ذكور: جميع الاعمار	ذكور: فوق ٢١ سنة	اناث: جميع الاعمار	اناث: فوق ٢١ سنة
المسلمون						
من صفر (٢) حتى ٥ سنوات	٦١ر٤٧٦	٢٨ر٨٤٥	٥٤ر٢٥٩	٢٦ر٦٨٠	٧ر٢١٧	٢ر٢٢٥
من ٦ — ٧ سنوات	٧ر٢٢٨	٤ر٨١٠	٦ر٢٢٢	٤ر٢٥٧	١ر٠٠٦	٤٥٣
من ٨ — ٩ سنوات	٢ر٩٥٩	٢ر٠١٠	٢ر٥٠٩	١ر٨٢٥	٣٨٠	١٨٥
من ٩ — ١١ سنة	٢ر٤٢٦	١ر٩٧٧	٢ر١٨٥	١ر٨٢٨	٢٤١	١٤٩
من ١٢ وما فوق	١ر٥٠٠	١ر٤٨٣	١ر٥٢١	١ر٣٢٤	٧٩	٥٩
المجموع	٧٥ر٥٨٩	٣٩ر١٢٥	٦٦ر٦٩٦	٣٥ر٩١٤	٨ر٩٢٣	٣ر٠٧١
المسيحيون						
من صفر — ٥	٢٤ر٨٨٥	١٢ر٠٠٧	١٤ر٦٧٤	٧ر٤٧٧	١٠ر٢١١	٤ر٥٣٠
من ٦ — ٧	٦ر٠٩٦	٣ر٩٢٦	٣ر٥٨٦	٢ر٣٥٨	٢ر٥١٠	١ر٥٦٨
من ٧ — ٩	٥ر٦٠٥	٤ر٢٦٠	٣ر٧٢٨	٢ر٨٨٦	١ر٨٧٧	١ر٣٧٤
من ٩ — ١١	٤ر٠١٨	٣ر٣٥٦	٢ر٦٣٧	٢ر٢٤٩	١ر٣٨١	١ر١٠٧
من ١٢ وما فوق	٢ر٨٠٩	٢ر٦٠١	١ر٩٤٥	١ر٨٢٤	٨٦٤	٧٧٧
المجموع	٤٣ر٤١٣	٢٦ر١٥٠	٢٦ر٦٧٠	١٦ر٧٩٤	١٦ر٨٤٣	٩ر٣٥٦
	١١٩ر٠٠٢	٦٥ر٢٧٥	٩٣ر٣٦٦	٥٢ر٧٠٨	٢٥ر٧٦٦	١٢ر٤٢٧

١ — ص ١٢٤ ,Census of Palestine 1931 ٢ — صفر معناه اقل من سنة .

جدول رقم (٥)

المسلمون والمسيحيون في فلسطين حسب العمر والجنس لعام ١٩٣١ (١)

العمر	السكان المسلمون			السكان المسيحيون			المجموع		
	الاشخاص	الذكور	الاناث	الاشخاص	الذكور	الاناث	الاشخاص	الذكور	الاناث
المجموع	٦٩٣ر١٥٩	٣٥٢ر١٧٢	٣٤٠ر٩٨٧	٩١ر٣٩٨	٤٥ر٨٩٦	٤٥ر٥٠٢	٧٨٤ر٥٥٧	٣٩٨ر٠٦٨	٣٨٥ر٤٨٩
سنة									
من صفر – ٥	١٣٠ر٧٠٨	٦٦ر٤٨٣	٦٤ر٢٢٥	١٢ر٦٩٠	٦ر٦٠٧	٦ر٠٨٣			
من ٥ – ١٠	١٠٠ر٢٨١	٥٣ر٥١٠	٤٦ر٧٧١	١١ر٥٩٦	٦ر٠٢٩	٥ر٥٦٧			
من ١٠ – ١٥	٥٧ر١٥٦	٣١ر٨١٤	٢٥ر٣٤٢	٧ر١٤٨	٣ر٧٨٣	٣ر٣٦٥			
من صفر – ١٥	٢٨٨ر١٤٥	١٥١ر٨٠٧	١٣٦ر٣٣٨	٣١ر٤٣٤	١٦ر٤١٩	١٥ر٠١٥			
من ١٥ – ٢٠	٤١ر٣٨٤	٢٢ر٨٢٩	١٨ر٥٥٥	٧ر٧٦٩	٣ر٧٨٣	٣ر٣٦٥			
من صفر – ٢٠	٣٢٩ر٥٣٩	١٧٤ر٦٣٦	١٥٤ر٨٩٣	٣٩ر٢١٣	٢٠ر٢٠٢	١٨ر٣٨٠			
من ٢٠ وما فوق	٣٦٣ر٦٢٠	١٧٧ر٥٣٦	١٨٦ر٠٩٤	٥٢ر١٦٥	٢٥ر٦٩٤	٢٧ر١٢٢	٤١٥ر٧٨٥	٢٠٢ر٢٣٠	٢١٣ر٢١٦

١ – Census of Palestine 1931, Vol., II, p. 46.

تلامذتهـا ٨ر٢٤٨ منهـم ١ر٤٨٠ تلميـــذة . وكـان يوجد ٣٧٩ مدرسة تقليدية اكثرها « كتاب » يعلم فيها ٤١٧ معلما ويزورها ٨ر٧٠٥ تلاميذ منهم ١٣١ تلميذة (٣) .

ب – توفر للشعب الفلسطيني في العشرينات حد ادنى من فئة الجامعيين قليلهم تخرّج من الجامعات الاوروبية او الاميركية .

ج – الضآلة الكبيرة في نسبة المتعلمات الراشدات من الشعب الفلسطيني العربي في تلك الحقبة .

ثانيا : تطور عدد الطلاب في عهد الانتداب

توخّى التحليل في الفقرة السابقة ، اعطاء صورة عن نسبة المتعلمين لدى الشعب العربي الفلسطيني عام ١٩٣١ ، واعتمد اساسا على احصاء عام١٩٣١ لمعرفةنسبةالتعليم لدى الراشدين، اذ ان معظمهم بدأ فيالدراسة خلال الحكم التركي او بعد الحرب مباشرة ، وبعضهم اكمل الدراسة خلالالسنين الاولى للانتداب ، ولذا نستطيع مع بعض التحفظ الاعتماد على احصاء عام١٩٣١ لاعطاء صورة للوضعالتعليمي خلال بدء الانتداب، وتساعدنا على هذه تلكالنسبة العالية منالراشدين الذين لم يصلوا حتى السنة السادسة الاعدادية . وسنتحدث في هذه الفقرة عن تطور عدد الطلاب خلال حكم الانتداب ، ونستخلص صورة اولية لنسبة المتعلمين في الاربعينات :

٣ – مراجعة : Tibawi, A.L. : Arab Education in Mandatory Palestine, London 1956, p. 20.

١ — يتبين لنا من الاحصاءات لتلك الحقبة ان عدد التلامذة العرب ارتفع من ٢٥ر٠٦٥ تلميذا عام ١٩٢٠/١٩٢١ الى ١٠٤ر٩٤٠ تلميذا عام ١٩٤٣/١٩٤٤ ، اي اكثر من اربعة اضعاف. ولكن بما ان عدد التلامذة ارتفع بمقدار الربع خلال السنين الاولى لحكم الانتداب (١٩٢٠ — ١٩٢٢) ، كما ان احصاء عام ١٩٢٢ هو رسمي ، فمن المستحسن اعتماد عام ١٩٢٢ ، كأساس وسنشرح في مناسبات اخرى سبب هذه القفزة الكبيرة .

يظهر من جدول (رقم — ٦ —) ان نسبة التلامذة لعدد السكان العرب ارتفعت من ٥ر١٧ بالمائة عام ١٩٢٢ الى ٨ر٦٨ بالمائة عام ١٩٤٤ ، ويتضح لنا ان نسبة الطلبة حتى عام ١٩٣٠ ظلت نسبيا ثابتة مع انخفاض في السنتين الاخيرتين . ومع عام ١٩٣١ بدأت النسبة تزداد لتصل الى ٨ر٦٨ عام ١٩٤٤ . ففي عام بدء الثورة الفلسطينية كان عدد الطلاب يزيد عن ٧٥ الف طالب اي ٧ر٨٢ بالمائة من السكان العرب .

وبالرغم من الزيادة في عدد الطلاب الا ان اعدادا كبيرة من الاولاد ظلت خارج المدرسة واذا حدد عمر ٥ سنوات الى ١٥ سنة كمرحلة دراسية من عمر الولد ، نستنتج مع الاستاذ جبرائيل كاتول (٤) ان نسبة التلامذة في هذا العمر الى مجمل عدد الاولاد في العمر نفسه تكون ٣٤ بالمائة عام ١٩٤١ ، اي ان ٦٦ بالمائة من الاولاد لم يدخلوا ابدا المدرسة او تركوها باكرا .

ويتضح من جدول (رقم — ٦ —) ان ازديادا كبيرا طرا

٤ — مراجعة : كاتول ، جبرائيل : **التعليم في فلسطين** ، القدس ١٩٤٧ ، ص ٧ — ٩ .

على عدد المتعلمين ، فالنسبة التي توفرت من خلال بحث نتائج احصاء عام ١٩٣١ وهي ١٣ر٧٥ بالمائة اضحت اقل بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن لعدم توفر احصاء مماثل لعام ١٩٣١ يصعب اعطاء النسبة الجديدة ، بالرغم من ذلك نستطيع التأكيد انها عالية ، وقد نستطيع اعطاء صورة تقريبية بعد دراسة النسب المتعلقة بالتعليم الابتدائي والثانوي .

٢ — ان هذا المعدل بحد ذاته لا يعطي صورة واضحة للتطور ، اذ ان الصورة الاجمالية تخفي حقيقة التطور الفعلي خصوصا لدى العرب المسلمين في فلسطين . ليست هناك حاجة لدراسة معدلات النمو لدى المسيحيين بشكل موسع ، اذ ان الاستنتاجات السابقة كافية لاعطاء الصورة السليمة ، كما ان جدول (رقم — ٧) يتمم ما استنتج في الفقرة السابقة حول انتشار التعليم بشكل كبير لدى المسيحيين العرب .

ارتفع عدد التلامذة المسلمين من ١٨ر١٢٦ عام ١٩٢٠—١٩٢١ الى ٦٩ر٠٣٥ عام ١٩٤١ — ١٩٤٢ واذا اخذنا التطور حتى النكبة ، يكون الازدياد اكثر من اربعة اضعاف . فبينما كانت نسبة التلاميذ الى السكان ٣ بالمائة عام ١٩٢٢ اصبحت ٧ بالمائة عام ١٩٤٤ . ففي عام الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ كان عدد التلامذة يزيد عن ٥٤ الفا اي ٦ر٢٥ بالمائة .

وفي سنة ١٩٤٥ (٥) كان عدد التلامذة المسلمين من عمر ٥ الى ١٥ سنة ٦٨ر٠٠٠ تلميذ ونسبتهم هي ٢٥ بالمائة الى مجمل الاولاد المسلمين من هذه الاعمار ، اي ان ٧٥ بالمائة من الاولاد في عمر الدراسة اميون او تركوا المدرسة باكرا .

٥ — مراجعة : **Statistical Abstract of Palestine 1945-46** p. 186.

جدول رقم (٦)

تطور عدد الطلبة والسكان العرب من عام ١٩٢٢ — ١٩٤٤

	عدد الطلبة (٢)	عدد السكان (١)	النسبة المئوية لعدد الطلبة من تعداد السكان
١٩٢٢/٢١	٣٤٫٥١٧	٦٦٨٫٢٥٨	٥٫١٧ ٪
١٩٢٣/٢٢	٣٤٫٩٣٢	٦٨٩٫٢٥٩	٥٫٠٦ ٪
١٩٢٤/٢٣	٣٦٫٦٢٠	٧١٠٫٠١٧	٥٫١٣ ٪
١٩٢٥/٢٤	٣٩٫١٧٤	٧٢٥٫٥١٣	٥٫٣٨ ٪
١٩٢٦/٢٥	٣٧٫٩٢٩	٧٤٨٫٧٦٢	٥٫١٥ ٪
١٩٢٧/٢٦	٣٩٫٨٨٠	٧٦٧٫٥٢٦	٥٫٢٠ ٪
١٩٢٨/٢٧	٣٩٫٧٣٩	٧٨٤٫٣٩٥	٥٫٠٥ ٪
١٩٢٩/٢٨	٤٠٫٨٣٨	٨٠٣٫٥٦٢	٥٫٠٨ ٪
١٩٣٠/٢٩	٤٣٫٠٤٢	٨٢٧٫٧٦٣	٥٫٢٠ ٪
١٩٣١/٣٠	٤٨٫٠٦٠	٨٥٩٫٧٠٨	٥٫٥٧ ٪
١٩٣٢/٣١	٥٠٫٤٤٤	٨٨١٫٤٩٠	٥٫٧٠ ٪
١٩٣٣/٣٢	٥٣٫٦٠٦	٩٠٤٫٩٧٤	٥٫٩٢ ٪
١٩٣٤/٣٣	٥٨٫١٦٧	٩٢٧٫٥٧٩	٦٫٣٥ ٪
١٩٣٥/٣٤	٦٦٫٤٢٥	٩٥٢٫٩٥٥	٦٫٩٥ ٪
١٩٣٦/٣٥	٧٥٫٧٩٨	٩٨٢٫٦١٤	٧٫٨٢ ٪
١٩٣٧/٣٦	٧٧٫٢٣٨	١٫٠٠٥٫٩٥٨	٧٫٦٥ ٪

١ — مراجعة : المرجع السابق , Survey I ، ص ١٤١ .
٢ — تحتوي الارقام عدد الطلبة العرب الدروز .

(تابع)	عدد الطلبة (٢)	عدد السكان (١)	النسبة المئوية لعدد الطلبة من تعداد السكان
١٩٣٨/٣٧	٨٦٫٤٧١	١٫٠٢٤٫٠٦٣	٨٫٥٢ ٪
١٩٣٩/٣٨	٨٧٫٤٢٩	١٫٠٥٦٫٢٤١	٨٫٣ ٪
١٩٤٠/٣٩	٩٢٫٩٣٦	١٫٠٨٠٫٩٩٥	٨٫٦ ٪
١٩٤١/٤٠	٩٣٫٨١٣	١٫١١١٫٤٠٨	٨٫٤٥ ٪
١٩٤٢/٤١	٩٥٫٦٤١	١٫١٣٥٫٥٩٧	٨٫٤٣ ٪
١٩٤٣/٤٢	٩٨٫٨٠٠	١٫١٧٣٫٦٥٩	٨٫٤٢ ٪
١٩٤٤/٤٣	١٠٤٫٩٤٠	١٫٢١٠٫٩٢٤	٨٫٦٨ ٪

جدول رقم (٧)

عدد الطلبة العرب من مسلمين ومسيحيين في جميع المدارس من عام ١٩٢٠ — ١٩٤٢ (١)

السنة الدراسية	المسلمون	المسيحيون
١٩٢١/٢٠	١٨٫١٢٦	٧٫٤٣١
١٩٢٢/٢١	٢١٫٦٨٧	١١٫٩١٣
١٩٢٣/٢٢	٢٠٫٩٢٤	١٣٫٧٢٢
١٩٢٤/٢٣	٢١٫٦٣٥	١٤٫٩٨٥
١٩٢٥/٢٤	٢٠٫٨٠٦	١٨٫٠٤٨
١٩٢٦/٢٥	٢٢٫٣٣٣	١٥٫١٠٨
١٩٢٧/٢٦	٢٣٫٩٣٧	١٥٫٥٦٧

١ — مراجعة : Nardi Noah : **Education in Palestine**, Washington 1945, p. 124.

السنة الدراسية	المسلمون	المسيحيون
١٩٢٨/٢٧	٢٤ر٨٤٨	١٤ر٢٧١
١٩٢٩/٢٨	٢٥ر٢٧٧	١٤ر٩٣٥
١٩٣٠/٢٩	٢٧ر٦٢٤	١٤ر٨٣٨
١٩٣١/٣٠	٣٠ر٥٣٥	١٦ر٩٦٦
١٩٣٢/٣١	٣٣ر١٠٠	١٦ر٧٦٠
١٩٣٣/٣٢	٣٦ر١٧٥	١٦ر٨٣٦
١٩٣٤/٣٣	٤٠ر٠٨٨	١٧ر٤٥٤
١٩٣٥/٣٤	٤٥ر٩٤٢	١٩ر٧٦٦
١٩٣٦/٣٥	٥٤ر٠٣٧	٢٠ر٨٨١
١٩٣٧/٣٦	٥٤ر٠٦٦	٢٢ر٤١٠
١٩٣٨/٣٧	٦٢ر٧١٠	٢٢ر٩٢١
١٩٣٩/٣٨	٦٣ر١٩٠	٢٣ر٥٢٣
١٩٤٠/٣٩	٦٦ر٩٣٦	٢٥ر٣٠٧
١٩٤١/٤٠	٦٨ر١٤٩	٢٤ر٩٤١
١٩٤٢/٤١	٦٩ر٠٣٥	٢٥ر٨٠٨

٤ ـ يتضح لنا من احصاء عام ١٩٣١ ان تعليم البنات الصغار لم يكن مشجعا في عشر السنوات الاولى من الانتداب، اذ يتضح لنا من معطيات ملحق رقم ـ ١ ـ ان عدد المتعلمات من عمر ٥ الى ١٥ لم يزد عن ٣٥٠٠ متعلمة او زائرة للمدرسة ونسبتهن الى مجمل البنات في هذا العمر هي حوالي خمسة بالمائة . واذا اخذنا بعين الاعتبار جميع البنات العربيات الزائرات للمدرسة ـ من تلميذات ومن بنات تركن المدرسة باكرا ـ يصبح هذا العدد حوالي ٨١٥٠ شخصا ، ونسبتهن

الى مجمل البنات في هذا العمر هي ١٠ بالمائة . اصبحت هذه النسبة عام ١٩٤١ (١٩ بالمائة) . ويتضح ايضا من جدول (رقم ـ ٨ ـ) ان عدد التلميذات في مدارس المعارف ، ارتفع من ٢ر٧٨٦ تلميذة عام ١٩٢١/٢٠ الى ١٣ر٧٦٦ تلميذة عام ١٩٤٤/٤٣ واذا اخذنا بعين الاعتبار الازدياد في الاعوام التالية ، يكون العدد قد ازداد اكثر من خمسة اضعاف بعد الحرب العالمية الثانية . ونستنتج من ذلك ان تعليم البنات ظل لاسباب موضوعية وذاتية متأخرا ، خصوصا لدى المسلمين حيث ظلت بعض القيم التقليدية مسيطرة ، لا سيما في الريف، حيث تقطن الاكثرية . وزاد في الطين بلة سياسة الاستعمار التعليمية غير المشجعة لنمو التعليم كما سيظهر لنا في الفقرة التالية .

ثالثا : نظرة عامة حول تطور التعليم في مدارس المعارف والمدارس الاهلية والاجنبية

بعد هذه النظرة العامة عن تطور عدد التلامذة ، علينا الآن دراسة المؤسسات التعليمية من رسمية واهلية ، وتطور نشاطها خلال الانتداب ، وفي الوقت نفسه يجب دراسة النظام التعليمي وانتشاره الجغرافي .

١ ـ اعتمدت المعارف في بدء عملها على المدارس الموجودة منذ الحكم العثماني وكذلك على مساعدة الاهلين لبناء المدارس ، فمع بدء الانتداب عام ١٩٢٠ كان عدد المدارس ١٧١ مدرسة ، فلما دعت الحكومة الاهلين لبناء المدارس ارتفع هذا العدد في السنوات التالية الى ٣١٤ مدرسة ولكنه انخفض بعد ذلك الى ٢٩٩ عام ١٩٣٣ كما يبدو في جدول (رقم ـ ٨ ـ) .

جدول رقم (٨)
نمو المعارف خلال عهـد الانتـداب

السنة الدراسية	عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد التلامذة صبيان	بنات	المجمـوع	متوسط عددالتلامذة لكل معلم
١٩٢٠/١٩	١٧١	٤٠٨	٨ ٤١٩	٢ ٢٤٣	١٠ ٦٦٢	٢٦ر١٣
١٩٢١/٢٠	٢٤٤	٥٢٥	١٣ ٦٥٦	٢ ٧٨٦	١٦ ٤٤٢	٣١ر٣١
١٩٢٢/٢١	٣١١	٦٣٩	١٦ ٦٠٦	٣ ٠٣٣	١٩ ٦٣٩	٣٠ر٧٣
١٩٢٣/٢٢	٣١٤	٦٧٢	١٦ ٠٤٦	٣ ٢٨٥	١٩ ٣٣١	٢٨ر٧٤
١٩٢٤/٢٣	٣١٤	٦٨٥	١٥ ٥٠٩	٣ ٦٥٥	١٩ ١٦٤	٢٧ر٩٨
١٩٢٥/٢٤	٣١٥	٦٨٧	١٦ ١٤٧	٣ ٧٣٤	١٩ ٨٨١	٢٨ر٩١
١٩٢٦/٢٥	٣١٤	٦٨٧	١٦ ١٤٦	٣ ٥٩١	١٩ ٧٣٧	٢٨ر٧٣
١٩٢٧/٢٦	٣١٥	٧٢٢	١٦ ٤٨٨	٣ ٥٩١	٢٠ ٠٧٩	٢٧ر٨١
١٩٢٨/٢٧	٣١٤	٧٣٣	١٧ ١٣٣	٤ ١٢٦	٢١ ٢٥٩	٢٩ر٠٠
١٩٢٩/٢٨	٣١٠	٧٥٠	١٧ ٢٩١	٤ ٣٤٥	٢١ ٦٣٦	٢٨ر٨٥
١٩٣٠/٢٩	٣١٠	٧٦٠	١٨ ١٧٤	٤ ٧٨٢	٢٢ ٩٥٦	٣٠ر٢٠
١٩٣١/٣٠	٣٠٨	٧٤٤	١٩ ٣٤٦	٤ ٩٤٢	٢٤ ٢٨٨	٣٢ر٦٠
١٩٣٢/٣١	٣٠٥	٧٨٣	١٩ ٦٥٦	٥ ١٧٩	٢٤ ٨٣٧	٣١ر٧٢
١٩٣٣/٣٢	٢٩٩	٨٢٧	٢١ ٢٠٢	٥ ٤٨٩	٢٦ ٦٩١	٣٢ر٢٧
١٩٣٤/٣٣	٣٢٠	٩٣٣	٢٣ ٩٢٥	٦ ٩١٧	٣٠ ٨٤٢	٣٣ر٠٥
١٩٣٥/٣٤	٣٥٠	١ ٠٥٥	٢٧ ٧٣٧	٨ ٢٦٨	٣٦ ٠٠٥	٣٤ر١٢
١٩٣٦/٣٥	٣٨٤	١ ١٤٨	٣٣ ٠٥٣	٩ ٧١٢	٤٢ ٧٦٥	٣٧ر٢٥
١٩٣٧/٣٦	٣٨٢	١ ١٧٦	٣٣ ٢٠٣	٩ ٥١٠	٤٢ ٧١٣	٣٦ر٣٢
١٩٣٨/٣٧	٤٠٢	١ ٢٩٩	٣٨ ٢٤٥	١١ ١٥٥	٤٩ ٤٠٠	٣٨ر٠٠
١٩٣٩/٣٨	٣٩٥	١ ٣١٢	٣٩ ٧٠٢	١٠ ٣١٨	٥٠ ٠٢٠	٣٨ر١٢
١٩٤٠/٣٩	٤٠٢	١ ٣٤٠	٤٢ ٢١٩	١٢ ٦٤٨	٥٤ ٣٦٧	٤٠ر٥٧
١٩٤١/٤٠	٤٠٣	١ ٣٦٤	٤٢ ٦٦١	١١ ٩٨٤	٥٤ ٦٤٥	٤٠ر٠٠
١٩٤٢/٤١	٤٠٤	١ ٤٥٦	٤٤ ٢٤٤	١٢ ٣١٤	٥٦ ٥٥٨	٣٨ر٨٤
١٩٤٣/٤٢	٤٠٣	١ ٤٥٢	٤٥ ٦٠٣	١٢ ٧٣٢	٥٨ ٣٣٥	٤٠ر١٧
١٩٤٤/٤٣	٤٢٢	١ ٦٨٧	٤٩ ٣٧٥	١٣ ٧٦٦	٦٣ ١٤١	٣٧ر٤٢
١٩٤٥/٤٤	٤٧٨	١ ٨٧٢	٥٦ ٣٥٩	١٥ ٣٠٣	٧١ ٦٦٢	٣٨ر٢٨
١٩٤٦/٤٥	٥١٤	٢ ١٥٦	٦٤ ٥٣٦	١٦ ٥٠٦	٨١ ٠٤٢	٣٧ر٦٠
١٩٤٧/٤٦	٥٣٥	٢ ٤٨٠	—	—	٩٣ ٥٥٠	٣٧ر٧٠
١٩٤٨/٤٧	٥٥٥	(٢ ٧٠٠)	—	—	(١٠٣ ٠٠٠)	(٣٨ر٠٠)

المصدر : حتى سنة ١٩٤٣/١٩٤٤ من Statistical Abstract 1944-45, p. 188. بعد ذلك من
Tibawi A. L. : Arab Education in Mandatory Palestine, London, 1856, p. 49.

وفي خلال خمس سنوات (١٩٣٣ – ١٩٣٨) زادت المدارس الحكومية حوالي ٣٤ر٥ بالمائة ، وتلت ذلك فترة جمود حتى عام ١٩٤٣ حيث زادت المدارس نتيجة اهتمام البلديات المباشر في توسيع التعليم .

وازداد عدد المعلمين من ٦٣٩ معلما عام ١٩٢٢/٢١ الى حوالي ٢ر٧٠٠ معلم عام ١٩٤٨/٤٧ . كان ازدياد عدد الطلاب بطيئا جدا حتى عام ١٩٣٣ ، ثم بدأ يرتفع بمعدل اكبر مع زيادة عدد المدارس ، حتى وصل الى ٤٢ر٧٦٥ تلميذا عام ١٩٣٦/٣٥ ، ثم اصبح بطيئا بعض الشيء خلال الثورة ولكن عاد فارتفع الى ان وصل عام ١٩٤٨/٤٧ الى ١٠٣ر٠٠٠ تلميذ . ويجب التنويه هنا ان قسما من هذا التوسع كان ، بالرغم من الزيادة في المدارس ، على حساب الصفوف والمعلمين . فبينما كان معدل نسبة التلاميذ الى الاساتذة ، ٣٠ تلميذا لكل معلم في عشر السنوات الاولى من الانتداب ، وصلت هذه النسبة الى حوالي ٤١ عام ١٩٤٠ ، ولم تنخفض كثيرا بعد ذلك .

٢ – كما ذكر سابقا لم تسمح الادارة العثمانية للمسلمين بالاهتمام مباشرة بالتعليم ، اي نشر التعليم عن طريق المبادرة المحلية غير الرسمية ، بل كان التعليم مرتبطا بالمعارف مباشرة . بينما انتشرت الارساليات في الدولة العثمانية وخصوصا في سوريه كما جاء سابقا . ولم تزد مدارس الارساليات بعد ذلك بشكل ظاهر ، بل اصبح هناك تبديل بين ارسالية واخرى وجددت بعض المدارس ووسعت . ولكن الطوائف الملّية الوطنية توسعت بدورها في التعليم خصوصا الكنيسة الارثوذكسية . ويتضح من جدول رقم ٩ ان عدد المدارس

المسيحية ظل ثابتا نسبيا بالرغم من التموجات في العدد ، ولكن ازداد عدد التلامذة ، فارتفع عددهم من ١١ر٩٥٢ عام ١٩٢٢/٢١ الى ٢٢ر٥٠٤ عام ١٩٤٥/٤٤ .

ومما يجدر ذكره انه بعد الاستقرار في عدد التلامذة حتى عام ١٩٣٤ ، بدأ العدد بعد ذلك يزداد بشكل ملحوظ ، وتبرز نفس الظاهرة حين دراسة تطور التعليم في المعارف اذ ان الازدياد الملحوظ بدأ بعد عام ١٩٣٣ . وسنحلل هذه الظاهرة في الفصل الثالث .

ولكن الاهتمام الاكبر في التعليم جاء عن طريق المجلس الاسلامي الاعلى والجهات الاسلامية الاخرى . حيث ارتفع عدد المدارس من ٤٢ مدرسة عام ١٩٢٢/٢١ الى ١٩٠ مدرسة عام ١٩٣٥/٣٤ وبعد استقرار نسبي، انخفض العدد الى ١٣١ مدرسة عام ١٩٤٦/٤٥ . ولكن زيادة التلامذة كانت نسبيا تصاعدية اذ ارتفع عدد التلامذة من ٢ر٢٨٧ عام ١٩٢٢/٢١ الى ١٥ر٣٨٩ تلميذا عام ١٩٤١/٤٠ اي حوالي ستة اضعاف . ويلاحظ ان الارتفاع بدأ عام ١٩٣٠ وتجمد نسبيا بعد عام ١٩٤١ ، بل مع بعض انخفاض .

٣ – بعد هذه الصورة العامة لتطور التعليم لدى المعارف والمؤسسات التعليمية الخاصة . علينا الآن دراسة تطور عدد الطلبة حسب التوزيع الجغرافي والنظام الدراسي، كما علينا اعطاء صورة للتعليم الجامعي . وفي هذه الفقرة سنهتم بدراسة التوزيع الجغرافي .

جدول رقم (٩)

عدد المدارس والتلامذة في المدارس الاهلية خلال عهد الانتداب

السنة الدراسية	المدارس الاسلامية: عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد التلامذة	المدارس المسيحية: عدد المدارس	عدد المعلمين	عدد التلامذة
١٩٢٢/٢١	٤٢	١١٤	٢ ٢٨٧	١٣٩	٦٦٨	١١ ٩٥٢
١٩٢٣/٢٢	٣٨	١١٢	٢ ٤٧٧	١٧٢	٧٨٦	١٣ ٣٤٨
١٩٢٤/٢٣	٤٧	١٣١	٣ ٠٤٤	١٧٩	٨٤٣	١٤ ٣٢٨
١٩٢٥/٢٤	٥٠	—	٣ ٥٦٥	١٨٤	—	١٥ ٣٢١
١٩٢٦/٢٥	٤٥	١٤٠	٣ ٤٤٥	١٨٣	٨٦٦	١٤ ٣٨٥
١٩٢٧/٢٦	٥٣	١٨٤	٤ ٥٢٢	١٩٢	١ ٠٠٥	١٤ ٩١٩
١٩٢٨/٢٧	٧٣	١٨١	٤ ٥٢٥	١٩١	٩٩٧	١٣ ٥٩٧
١٩٢٩/٢٨	٧٥	١٩٥	٤ ٧١٩	١٦٢	١ ٠٢٣	١٤ ٠٩٦
١٩٣٠/٢٩	٩٤	٢٣٧	٥ ٦٤٤	١٤٩	١ ٠٢١	١٤ ١٢٤
١٩٣١/٣٠	١٣٧	٢٧١	٧ ٢٤٣	١٨١	١ ٠٩١	١٤ ٣٦٠
١٩٣٢/٣١	١٥٧	٣٣٠	٩ ١٢٧	١٥١	١ ٠٦١	١٤ ١٠٠
١٩٣٣/٣٢	١٧٤	٣٨٠	١٠ ٥٤٩	١٥٤	١ ٠٦١	١٤ ٠١٢
١٩٣٤/٣٣	١٧٤	٤٠٤	١٠ ٨٦٢	١٤٨	١ ٠٧٧	١٤ ١٩٨
١٩٣٥/٣٤	١٩٠	٤١٨	١١ ٧٠٥	١٧٩	١ ٢٠٤	١٦ ٠٦٧
١٩٣٦/٣٥	١٨٣	٤٤٠	١٢ ١٠٠	١٨٧	١ ١٨١	١٦ ٦٣٧
١٩٣٧/٣٦	١٧٥	٤٢٤	١٢ ٤٦٧	١٨١	١ ٢٥١	١٨ ٣٣٧
١٩٣٨/٣٧	١٨٤	٤٦١	١٣ ٩٦٦	١٩٣	١ ٣٣٦	١٨ ٤٣٠
١٩٣٩/٣٨	١٨١	٤٤١	١٤ ٠٧٦	١٩٢	١ ٣٥٥	١٩ ١٥٧
١٩٤٠/٣٩	١٧٨	٤٤٢	١٤ ١٢٣	١٩٥	١ ٣٨٥	٢٠ ٢٩٥
١٩٤١/٤٠	١٩١	٤٧٧	١٥ ٣٨٩	١٨٦	١ ٣٠٣	١٩ ٧٧٦
١٩٤٢/٤١	١٧٧	٤٦٧	١٤ ٦٣٩	١٨٩	١ ٣٣١	٢٠ ٣٦٤
١٩٤٣/٤٢	١٦١	٤٣٩	١٤ ٤٠٩	١٨١	١ ٣٨٣	٢٠ ٩٩٣
١٩٤٤/٤٣	١٥٠	٤٤٣	١٤ ٧٦٧	١٧٧	١ ٤٢١	٢١ ٨٠٦
١٩٤٥/٤٤	١٣٥	٤٣٢	١٤ ١٦٩	١٨٢	١ ٤٦٨	٢٢ ٥٠٤
١٩٤٦/٤٥	١٣١	—	١٤ ٦٤٩	—	—	—

المصدر : طيباوي ، **المرجع السابق** ، ص ٢٧١ .

ملاحظة : الارقام المدونة في الجدول تختلف بعض الشيء ، اما تلك المذكورة في Statistical Abstract لعامي ١٩٤٠ و ١٩٤٥/٤٤ ، خصوصا بما يتعلق بعدد التلامذة في المدارس المسيحية ، فيعتقد الكاتب ان الاختلاف آت من ان احصاءات الدكتور طيباوي لا تحتوي على الصفار في صفوف الحضانة ، مراجعة جدول رقم ١٥ . مثالا على ذلك: St. Ab. 1944-45 ص (٨٥ — ١٨٦) .

عام ١٩٣٩/٣٨ عدد التلامذة في المدارس المسيحية ٢٣٫٩٩٧ .

عام ١٩٤٤/٤٣ عدد التلامذة في المدارس المسيحية ٢٧٫٢٣٢ .

حسب الجدول رقم ١٠ يتضح لنا انه في خلال ٣٢ سنة من الانتداب لم تتغير نسبة سكان الريف من العرب بشكل كبير بالنسبة الى مجمل السكان العرب . انخفضت هذه النسبة من ٧١ بالمائة الى ٦٦ بالمائة ، ولكن يجب التنويه ان بعض المدن الفلسطينية شهدت اكثر من غيرها زيادة سكانية خصوصا المدن الثلاث الكبرى القدس ويافا وحيفا (جدول رقم ١١) ، وشهدت حيفا اكبر توسع . فبينما كانت الزيادة في المدن الفلسطينية عامة خلال ٣٢ سنة ضعفين ، كانت في هذه المدن ضعفين ونصف .

كان عدد القرى الفلسطينية ٨٤٤ قرية حسب احصاء عام ١٩٢٢ ، كما ان الاكثرية الكبرى من مدارس القرى كانت تابعة للمعارف ، ويتضح لنا ذلك ، من الاحصاء المذكور في جدول رقم ١٣ ، حيث كان الاولاد في الصفوف الابتدائية الاهلية والاجنبية في القرى عام ١٩٤١ اقل بكثير من زملائهم في مدارس المعارف (الخمس تقريبا) . ولذا نستطيع الاعتماد على التطور الجغرافي لتعليم المعارف ، لتكوين فكرة واضحة عن تطور التعليم في المدن والقرى واستنتاج صورة واضحة لمستوى القرية التعليمي ، ويجب التنويه هنا ان المستوى التعليمي ، لا يتكافأ دائما والمستوى الثقافي ، حيث يدخل في الاخير نسبة الوعي والاستفادة من التعليم . مما سنتطرق اليه في الفصول القادمة .

كما يجب التنويه ان عدد مدارس الصبيان تعطي الصورة الواضحة للقرى التي لديها مؤسسات تعليمية ، اذ تبنى دائما مدرسة للبنات بعد بناء مدرسة الصبيان .

جدول رقم (١٠)

السكان العرب في المدن والقرى

السنة	عدد السكان	سكان المدن	سكان القرى	نسبة سكان القرى الى السكان
١٩٢٢	٦٦٨ر٢٥٨	١٩٥ر٦٩٧	٤٧٢ر٥٦١	٧١٪
١٩٣١	٨٥٩ر٧٠٨	٢٧٤ر٦٤٠	٥٨٥ر٠٦٨	٦٨٪
١٩٤٤	١ر٢١٠ر٥٥٥	٤١٠ر٠٠٠	٨٠٠ر٥٠٥	٦٦٪

جدول رقم (١١)

السكان العرب في المدن الثلاث الكبرى

السنة	١٩٢٢	١٩٣١	١٩٤٤
القدس	٢٨ر٦٠٠	٣٩ر١٠٠	٥٩ر٩٠٠
يافا	٢٧ر٤٠٠	٤٧ر٥٠٠	٦٦ر٢٠٠
حيفا	١٨ر٤٠٠	٣٤ر٢٠٠	٦٢ر٥٠٠
المجموع	٧٤ر٤٠٠	١٢٠ر٨٠٠	١٨٨ر٦٠٠

ويتضح من الجدول رقم١٢ ان عدد القرى التي تحققت فيها مدارس ارتفع من ٢٥٤ قرية عام ١٩٢٦ الى ٣٥٤ قرية عام ١٩٤٥ ، ولكن ٤٦ قرية فقط احتوت عام ١٩٤٥ على مدرسة للبنات ، وهكذا بقي ٥٨ بالمائة من القرى دون مدارس معارف ، و ٩٥ بالمائة دون مدرسة للبنات . واذا زيدت المدارس الاصلية ، فان الصورة لن تتغير كثيرا . قد

جدول رقم (١٢)

المدارس والتلامذة حسب الجنس في المدن والقرى – (المعارف)

	١٩٢٥/١٩٢٦				١٩٣٥/١٩٣٦				١٩٤٤/١٩٤٥			
	المدن		القرى		المدن		القرى		المدن		القرى	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث
مدرسة	٢٩	٢٠	٢٥٤	١١	٣٩	٣٠	٢٩٥	٢٠	٤٤	٣٤	٣٥٤	٤٦
تلميذ	٤ر٨٤٢	٢ر٧٨٨	١١ر٣٠٤	٨٠٣	١١ر٥٢٩	٨ر٢٤٩	٢١ر٥٢٤	١ر٤٦٣	١٧ر٥٩٩	١١ر٩١١	٢٨ر٧٦٠	٣ر٣٩٢

المصدر : طيباوي ، **المصدر السابق** ، ص ٤٩ .

تصل نسبة القرى التي فيها مدارس الى ٥٠ او ٥٥ بالمائة ، ولكن عددا لا بأس به من القرى كان يفتقر الى مدارس. الجدول رقم ١٣ يقدم الصورة الشاملة ، حيث نتعرف على الامية بين الاولاد في سن التعليم . اعتمدت الدراسة في فلسطين من عمر ٧ سنوات حتى ١٢ سنة كحد ادنى لاستيعاب العمليات الثلاث الاساسية : قراءة ، كتابة وحساب . وهكذا يتضح لنا ان ٦٣ بالمائة من البنين و ٥ر٧ بالمائة من البنات كانوا في المدرسة . بينما كانت هذه النسب في المدن ٩٠ بالمائة للذكور و ٦١ بالمائة للاناث .

كانت الامية في المدن لدى الاولاد الصغار في اواخر حكم الانتداب قليلة نسبيا خصوصا للصبيان ، بينما كانت في القرى عالية جدا لدى البنات ومتوسطة لدى البنين ، ونستطيع القول ان المستوى التعليمي لدى الذكور قد يصل في القرى الكبيرة الى مستوى المدن .

٤ – تدل الاحصاءات ان المعارف في فلسطين لم تكن مهتمة كثيرا بالتعليم الثانوي ، بقدر الاحتياج الى تخريج معلمين ، وقبل الاهتمام بالارقام علينا اعطاء فكرة عن النظام التعليمي العمودي الفلسطيني . كان تقسيم هذا النظام كما يلي : حضانة – ابتدائي ادنى (خمسة صفوف) – ابتدائي عالي (صفان) – ثانوي ادنى (صفان) – ثانوي عالي (صفان)، وبانتهاء هذه المرحلة يستطيع التلميذ تقديم امتحان التركيوليشن الفلسطيني (مترك)، ويحق للشخص بعد ذلك الانتساب الى الصف الثاني العلمي في الجامعة الاميركية في بيروت او الدراسة في بريطانيه .

جدول رقم (١٣)

عدد التلاميذ والتلميذات العرب من سكان المدن والقرى الذين اعمارهم من ٧ سنوات الى ١٢ سنة في سنة ١٩٤١

	المدن			القرى		
	الصبيان	البنات	المجموع	الصبيان	البنات	المجموع
التلامذة من عمر ٧ ــ ١٢ سنة في مدارس الحكومة	٨ ٩٠٠	٦ ٣٨٠	١٥ ٢٨٠	٢٢ ١٠٠	١ ٨٠٠	٢٣ ٩٠٠
التلامذة من عمر ٧ ــ ١٢ سنة في المدارس الاهلية	١٠ ٨٦٠	٦ ٣٦٠	١٧ ٢٢٠	٣ ٩٠٠	١ ٢٠٠	٥ ١٠٠
المجموع	١٩ ٧٦٠	١٢ ٧٤٠	٣٢ ٥٠٠	٢٦ ٠٠٠	٣ ٠٠٠	٢٩ ٠٠٠
الاولاد الذين اعمارهم من ٧ الى ١٢ سنة	٢٢ ٠٠٠	٢٠ ٧٠٠	٤٢ ٧٠٠	٤١ ٤٠٠	٣٩ ٢٠٠	٨٠ ٦٠٠
الاولاد الذين اعمارهم من ٧ الى ١٢ سنة	٪ ٩٠	٪ ٦١	٪ ٧٦	٪ ٦٣	٪ ٧ر٥	٪ ٣٦

المصدر : كاتول ، جبرائيل : **التعليم في فلسطين** ، القدس ١٩٤٧ ، ص ٤ ــ ٦ .

في الـ ١٥ سنة الاولى من الحكم البريطاني لم يكن في مدارس المعارف ، عدا الكلية العربية ، اكثر من الصف الثاني الثانوي (٦) ، ولم تضف الصفوف الثانوية الا حين شعر بحاجة ملحّة لمعلمين ذوي مستوى اعلى ، فزيدت الصفوف الثانوية الاخرى (الثالث والرابع الثانويين) ، كما زيد بعد ذلك صفان ما بعد المترك لتخريج معلمين للصفوف الثانوية العالية .

وحتى سنة ١٩٣٠ كان يوجد لدى المعارف ٢٥ صفا ثانويا تضم ٣٥٣ تلميذا. وحتى السنة المدرسية ١٩٤٥/٤٤ كان عدد تلامذة المعارف في الصفوف الثانوية ٩٥٩ تلميذا يضاف الى ذلك ٩٨ طالبا يدرسون ما بعد المترك بينما كان عدد التلامذة في الصفوف الثانوية في المدارس الاهلية والاجنبية في عام ١٩٤٢/٤١ ٢٦٥٠ تلميذا (جدول رقم ١٥) .

وبعد هذه النظرة السريعة ، من الواجب تحليل النظام التعليمي بتوسع اكبر . فيظهر من جدول رقم ١٤ ، ان الاكثرية الكبرى من المدارس الحكومية عام ١٩٤٤ كانت ابتدائية تحتوي حتى الابتدائي الادنى ، ولم يكن الوضع كذلك في القرى بل ايضا في المدن ، وتصل نسبة التلامذة في هذه المرحلة الى مجموع التلامذة ٩١ بالمائة والنسبة المئوية الباقية تتوزع بين الدراسة الابتدائية العالية والدراسة الثانوية .

ويتضح ان الاكثرية الكبرى من تلامذة المعارف ، تترك الدراسة بعد الصف الخامس ابتدائي او قبله . بينما قسم

٦ ــ مراجعة : الطيباوي ، **المرجع السابق** ، ص ٢٧ ــ ٤٨ .

جدول رقم (١٤)

النظام التعليمي العام لدى المعارف عام ١٩٤٤

	المدن			القرى		
	صبيان	بنات	مجموع	صبيان	بنات	مجموع
١ـ المرحلة الابتدائية الاولى (روضة ومن الصف ١ـ٥)	١٣ر٣٣٣	١٠ر٢٩٣	٢٣ر٦٢٦	٣٢ر٧٣٩	٢ر٩١٢	٣٥ر٦٥١
٢ـ المرحلة الابتدائية العالية الصف (٦ و ٧)	١ر٩٦٦	٨٩٢	٢ر٨٥٨	١ر٥٩٥	٥٣	١ر٦٤٨
المجموع (١ + ٢)	١٥ر٢٩٩	١١ر١٨٥	٢٦ر٤٨٤	٣٤ر٣٣٤	٢ر٩٦٥	٣٧ر٢٩٩
٣ـ المرحلة الثانوية الدنيا الصف (١ و ٢)	٦١٦	١٣٠	٧٤٦			
٤ـ المرحلة الثانوية العلمية الصف (٣ و ٤)	١٧١	٤٢	٢١٣			
المجموع (٣ + ٤)	٧٨٧	١٧٢	٩٥٩			

المصدر : Survey II 1946 ص ٦٦٤ .

ضئيل يكمل الدراسة ، فاذا كان من المتفوقين استطاع الانتساب الى الصفوف العليا الحكومية . وتشتد شروط الانتساب للدراسة الحكومية العادية الثانوية ، اذ ليس هناك الا ثلاث مدارس حكومية تحتوي على صفوف حتى المتريك او اعلى ، وجميعها في مدينة القدس وهي الكلية العربية ، والمدرسة الرشيدية ، وكلية البنات . وكانت الكلية العربية تفسح المجال للطلاب الثلاثة الاوائل في المدارس الاخرى لاكمال الدراسة فيها ، ولما كثر عدد الطلبة توازيا مع ازدياد المدارس التي تحتوي على المرحلة الثانوية الاولى ، سعي خلال الاربعينات الى توسيع المدرسة الرشيدية. ان الكلية العربية وكلية البنات هي بالاحرى كليات معلمين . بالاضافة الى هذه الكليات ، انشئت معالوقت فصول ثانوية زراعية في طولكرم عام ١٩٣١ ، وثانوية تجارية في حيفا عام ١٩٣٦ .

ولم يكن امام التلامذة الآخرين الا الانتساب للمدارس الخاصة . وفي سنة ١٩٤٢/٤١ كانت المدارس الاهلية والارساليات تحتوي في نظامها على التلامذة حسب جدول رقم ١٦ .

جدول رقم (١٥)

النظام التعليمي في المدارس الخاصة سنة ١٩٤٢/٤١

	صبيان	بنات	المجموع
رياض الاطفال	٣ ٩٤٠	٤ ٥١٠	٨ ٤٥٠
المدارس الابتدائية	١٩ ٤٨٠	٩ ٧٢٠	٢٩ ٢٠٠
المدارس الثانوية	١ ٥٢٠	١ ١٣٠	٢ ٦٥٠
المجموع	٢٤ ٩٤٠	١٥ ٣٦٠	٤٠ ٣٠٠

المصدر : كاتول ، جبرائيل ، **المرجع السابق** ، ص ٦ .

بالاضافة الى مدارس الارساليات ، التي كان الكثير منها يحتوي على صفوف ثانوية وصل بعضها حتى المترك ، كان هناك ايضا مدارس وطنية مثل مدرسة روضة المعارف في القدس والنجاح في نابلس والمدرسة الارثوذكسية في يافا ... وسنتحدث عنها باسهاب اكثر في الفصل الثالث .

ليس لدينا صورة واضحة عن عدد الذين حصلوا على المترك او الشهادة المدرسية خلال الانتداب . حسب نتائج عام ١٩٤٢ (٧) ، حصل ٧٨ شخصا على المترك العربي و ٣٥ على المترك الانجليزي ، وحصل ٤٦ شخصا على شهادة مدرسية – عربي و ٢٥ على شهادة مدرسية – انكليزي .

٥ – جاء في المقطع السابق ذكر الدراسة العليا ، والتي اسست في بعض كليات المعارف ، وبالدقة في الكليات الثلاث في القدس ، المذكورة اعلاه ، اذ زيد على صفوفها سنتين بعد المترك يستطيع الطالب بعدها اذا اجتاز الامتحان بنجاح الحصول على شهادة جامعية متوسطة . كما يستطيع الشخص التحضير فرديا لامتحان الدبلوم ، ولكن لم يدخل هذه الدراسة الا عدد قليل (٨) .

ومنذ بدء الانتداب البريطاني اسست فصول لدراسة الحقوق ينتسب اليها موظفو الدولة ، ويدرسون خمس سنين يحصلون بعدها على دبلوم . وتخرّج عدد لا بأس به من الشباب الفلسطيني العربي ، ولكن ليس لدينا احصاء دقيق عن عدده .

---

٧ – مراجعة Statistical Abstract لعام ١٩٤٥/٤٤ .

٨ – مراجعة : كاتول ، **المرجع السابق** ، ص ٤ .

ولما كانت الدراسة الثانوية لدى المعارف وفي اكثر المدارس الاهلية تهيىء للدراسة في الجامعة الاميركية في بيروت خصوصا لحاملي المترك ، اتجه اكثر الطلبة ، ابناء الطبقة المتوسطة والوجيهة الثرية للانتساب اليها . ويتضح من الجدول رقم ١٦ ان عدد الطلبة الفلسطينيين في الجامعة الاميركية كان يتزايد كثيرا ، ولكنه تراجع بعض الشيء بعد الحرب ، والسبب في ذلك الزيادة الكبيرة في الصفوف الثانوية وبعد الثانوية في فلسطين . كما اثرّت الحوادث بعض الشيء على عددهم . وهناك نقطتان متعلقتان بهذا الجدول يجب ذكرهما .

اولا : ان عددا قليلا من الطلبة الفلسطينيين كانوا من اليهود . اما الاكثرية فكانت عربية .

ثانيا : ان عدد الطلبة الفلسطينيين في (الانترناشيونال كولدج) (الثانوية العامة) تضاءل كثيرا منذ عام ١٩٣٠/٢٩ . انخفض العدد من ٧٦ طالبا عام ١٩٣٠/٢٩ الى ٤١ طالبا عام ١٩٤٧/٤٦ ، نتيجة لتحسن ظروف الدراسة الثانوية في فلسطين كما ذكر .

وصل عدد الطالبات عام ١٩٤٥/٤٤ الى ١٦ طالبة ، لينخفض بعد ذلك . كان الطلبة الفلسطينيون يكوّنون ٢٠ الى ٢٥ بالمائة من تعداد طلبة الجامعة الاميركية ، ويأتون عدديا بعد الطلبة اللبنانيين ، ولم يكن الفارق كبيرا بين الفئتين . كان وسطي عدد المتخرجين الفلسطينيين ٣٠ شخصا في الثلاثينات ، واصبح ٨١ شخصا عام ١٩٤٦ وانتسب طلبة آخرون الى الجامعة اليسوعية ، خصوصا من درس منهم في

المدارس الافرنسية في فلسطين ، ولكن تعدادهم كان ضئيلا نسبيا . وذهب طلبة آخرون الى القاهرة ، حيث انتسب طلبة العلوم الدينية الى الازهر ، وانتسب آخرون الى دار العلوم، حيث تخرج منها ٤٠ طالبا ما بين١٩٣٢ و ١٩٤٧ (٩).

كما التحق بعض الطلبة بالجامعات الانجليزية ، فكان عددهم في الثلاثينات حوالي ٢٠ طالبا (١٠) . وفي عام ١٩٤٨ اصبح عددهم ٢٥ طالبا (١١) .

٦ ــ والآن بعد هذا التحليل الافقي والعمودي ، علينا الجواب على السؤال الذي طرح بعد تحليل احصاء عام١٩٣١ . ما هي نسبة المتعلمين في اواخر عهد الانتداب ؟ اذ استنتج من ذلك الاحصاء ان نسبة المتعلمين من العرب هي ١٣ر٧٥ بالمائة .

ان زيادة كبيرة حصلت في عدد التلامذة ، وصلت نسبتهم الى عدد السكان ٨ر٦٨ بالمائة عام ١٩٤٤/٤٣ ،

---

٩ ــ مراجعة : كامل السواقيري : **الشعر العربي الحديث في ماساة فلسطين من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٥٥** ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٢٥ . عن محمد عبد الجواد ــ تقويم دار العلوم ــ القاهرة (السنة غير معطاة) ، ص ٥٠٢ ــ ٥٠٥ .

١٠ ــ مراجعة Tibawi ، **المصدر نفسه** ، ص ١١٢ .

١١ ــ مراجعة : كاتول ، جبرائيل : التربية والتعليم في فلسطين من سنة ١٩٢٠ ــ ١٩٤٨ ، **مجلة الابحاث** حزيران (يونيو) ١٩٥٠ ، ص ١٨٧ .

بينما كانت ٥٧ر٥ عام ١٩٣١/٣٠ . وتقلصت كثيرا الامية بين الصغار خصوصا في المدن ، بما ان ٩٠ بالمائة من التلامذة كانوا في الصفوف الابتدائية عام ١٩٤٤/٤٣ ، اي ان هذه النسبة كانت قبل ذلك اعلى من هذا .

وبما ان اعمار ٤٧ر٥ بالمائة من الشعب الفلسطيني اقل من ٢٠ سنة ، فبالامكان الاستنتاج بأن نسبة المتعلمين ارتفعت الى الضعف ، بل وصلت الى ٣٠ بالمائة في اواخر عهد الانتداب .

جدول رقم (١٦)

الطلبة الفلسطينيون في الجامعة الاميركية والانترناشيونال كولدج من عام ١٩٢١/٢٠ حتى عام ١٩٤٧/٤٦

عام	العدد	عام	العدد
١٩٢١/٢٠	١١٣	١٩٣٨/٣٧	٢٩٥
١٩٢٢/٢١	١٠٦	١٩٣٩/٣٨	٤١٩
١٩٣٠/٢٩	٢٨٤	١٩٤٠/٣٩	٤١٧
١٩٣٢/٣١	٢٦١	١٩٤٢/٤١	٤٣٤
١٩٣٣/٣٢	٢٤٧	١٩٤٣/٤٢	٤٣٧
١٩٣٤/٣٣	٢٤٢	١٩٤٤/٤٣	٤١٨
١٩٣٥/٣٤	٢٣٩	١٩٤٥/٤٤	٤١٧
١٩٣٦/٣٥	٢٢٨	١٩٤٦/٤٥	٣٦٥
١٩٣٧/٣٦	١٦٥	١٩٤٧/٤٦	٣٤٢

المصدر : A.U.B. : **Report of the President 1920-21** 1946-47.

جدول رقم (١٧)

عدد الطالبات الفلسطينيات في الجامعة الاميركية

عام	العدد	عام	العدد
١٩٢٢/٢١	٣	١٩٤٤/٤٣	١٠
١٩٣٢/٣١	٦	١٩٤٥/٤٤	١٤
١٩٤٢/٤١	٧	١٩٤٦/٤٥	١٦
١٩٤٣/٤٢	٨	١٩٤٧/٤٦	٤

المصدر : الجامعة الاميركية ، **المرجع السابق** .

رابعا : نظرية التعليم في مدارس المعارف

كما ذكر في بداية هذا الفصل ، سنعتني بتحليل التطور التعليمي العددي ، بالاضافة الى تحليل السياسة التعليمية الاستعمارية . من خلال التحليل السابق اتضح لنا احصائيا نمط النظام التعليمي الاستعماري ، وسنسعى الآن الى تحليل نظرية التعليم لدى هذا النظام . ونود ان نؤكد مرة اخرى ان البحث في مجمله تحليل اجتماعي ـ اقتصادي ، بالدرجة الاولى ومع ذلك فانه يسعى ، قدر المستطاع ، الى معرفة الارتباطات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية ، التي اثرت جدليا على التعليم ونتائجه . ولكن نتيجة لتوفر صورة واضحة نوعا ما للمجتمع المثالي ، الواعي قوميا واجتماعيا ويتميز بالحركية الكبيرة ، تتهيء للباحث صورة للفرد الواعي اجتماعيا وقوميا . يتضمن الوعي الحقيقي الشعور بالمسؤولية تجاه المجموعة المرتبطة عضويا بها . وتحدثنا باسهاب في

الفصل الاول عن الفرد المثالي وقيمه . كما ان كتاب الدكتور عبد القادر يوسف هو اكبر مساعد لتفهم نظرية التعليم وتطبيقها لدى حكومة فلسطين .

١ ـ سعى الانكليز للحصول على اعتراف دولي بانتدابهم على فلسطين ، ليس للقيام بواجب انساني حسب ما جاء في البيانات والمواثيق الدولية الصادرة عن اجتماع فرساي عام ١٩١٩ وما بعده ، بل نتيجة تصميمهم على استعمار فلسطين حفاظا على امبراطوريتهم وزيادة في نفوذهم خصوصا في الشرق الاوسط حيث بدأ الذهب الاسود يوطد نفوذه الاقتصادي . ولم تكن الصهيونية الا مطية لمبتغاهم الاستعماري .

ان نظرتهم عن الشعب العربي الفلسطيني ، لا تختلف عن نظرتهم الى العرب المصريين والى ابناء الهند والى شعوب شرق آسيه عامة . ويستشهد الدكتور عبد القادر يوسف بفقرة من كتاب همفري بومن (١٢) يقول فيها « فهذا لويد جورج رئيس وزراء بريطانيه ولورد بلفور يعتبران العرب قوما صحراويين لا قيمة لهم وانهم سوف يقنعون ببعض التوكيدات والضمانات التي تعطيها لهم الحكومة البريطانية ، فاذا لم يقتنعوا فقد يقومون في البداية ببعض الشغب ولكن سرعان ما يعودون لصوابهم ويخلدون للسكينة بعد ان يروا رأس العصا على غرار قبائل الحدود الشمالية الغربية في

---

١٢ ـ مراجعة : Bowman, H.E. : **Middle East Window**, Longmans, 1942, p. 387.

الهند » (١٣) .

بهذه الرؤية لمستقبل تطوير شعوب المستعمرات او البلاد المنتدبة ، تبدأ بريطانيه سياستها التعليمية . ومن الجدير بالذكر ان بريطانيه استمدت فلسفة النظام التعليمي في فلسطين من تجربتها في الهند وبعد ذلك في مصر . اذ ان النظام التعليمي الفلسطيني اخذ في جوهره من النظام المصري وهذا بدوره مستمد من التجربة الهندية ، وتتضمن هذه الفلسفة التعليمية على تربية فئة مختارة تدخل السلك الاداري الحكومي لتنفيذ السياسة الاستعمارية . ويسعى الى تنشئة هذه الفئة لترتبط بالاستعمار ثقافيا وفكريا . واسلم طريق هي اختيار معظم افراد هذه الفئة من الاقليات او من الطبقة الوجيهة لترويضها وربطها مصلحيا به ان امكن . ولمس الشعب الفلسطيني هذه السياسة ، فسعى الاستعمار في البدء الى توظيف عدد كبير من اليهود وبعد ذلك من المسيحيين، خصوصا الفئة المتخرجة من المدارس الانجلو – سكسونية ، وحين بدأ الشعب الفلسطيني وخصوصا المسلمين يحتجون على هذا الوضع سعي الى توظيف ابناء الطبقة الوجيهة .

واما التوسع في التعليم الابتدائي فمرده التجاوب مع متطلبات المجتمع التجاري ، المستهلك لسلعها ، ورضوخا شكليا للمطاليب الشعبية ، اذ ان النظام التعليمي في الريف كما سيأتي ذكره ، كان اقرب الى التجهيل منه الى التعليم .

١٣ – مراجعة : د. يوسف ، عبد القادر : **مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية** ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٩٧ .

واوضحت لنا احصاءات المعارف ان النسبة الهائلة من التلامذة موجودة في الصفوف الابتدائية الخمسة الاولى ، بينما كان عدد التلامذة في الصفوف الثانوية ضئيلا جدا ، وربط التعليم الثانوي بسياسة تخريج معلمين لجميع المستويات خصوصا الابتدائية منها ، وكانت حكومة الانتداب تفضل تعيين خريجي المدارس الاجنبية للوظائف الادارية العالية .

ولضمان سير سياستها الاستعمارية كان على المعارف تحقيق المركزية القوية وتنظيم دراسة نظرية شكلية بعيدة عن البيئة .

٢ – كان مدير المعارف متسلطا على المفتشين وهؤلاء بدورهم على مديري المدارس والمعلمين ، فلم تتوفر مشاركه في التخطيط والتنفيذ ، بل كانت العلاقة علاقة بيروقراطية بحتة ، مبنية على الاوتوقراطية (١٤) . وقد كانت هناك مشاركة اكثر من الاهلين في شؤون التعليم في عهد الاتراك ، بينما وقفت الادارة الانجليزية ضد كل مشاركة بالرغم من التزامها بذلك في صك الانتداب. وبعد الاحتجاجات الكثيرة، بل وبعد المبادرة الذاتية في تحمّل قسم من اعباء المعارف تكونت في بعض المدن والقرى لجان معارف ، ولكن نشاطها حصر بالامور المالية وتعيين المعلمين .

٣ – واكمالا للاشراف التام على تنشئة الطليعة المختارة، وطدت اركان النظام التعليمي الاكاديمي والمكتبي بعيدا عن

١٤ – مراجعة : د. عبد القادر ، يوسف ، **المرجع السابق** ، ص ١٤١ .

البيئة الاجتماعية والمتطلبات القومية . كما لم يؤخذ تطور المجتمع العربي في فلسطين بعين الاعتبار ، بل كان هم المستعمر تربية فئة غريبة عن مجتمعها متعجرفة ، ترتبط بالسلطة اكثر من ارتباطها بالشعب . فكانت مواد التاريخ والجغرافيا قل ما تمس الشرق الاوسط والتاريخ الحديث ، بل كانت دراسة تثقيفية شكلية للعالم والتاريخ القديم والمتوسط ، كما كانت تسعى الى دراسة الادب العربي او الانجليزي والى توطيد التفكير المحافظ لدى التلامذة . ولذا كان المنهاج مهتما بتجميد تطور الشعب الفلسطيني وتركيز المجتمع التجاري المحافظ ، ولكن المتطور أستهلاكيا. اي كما ذكر في الفصل الاول جاء تطويره داخل علاقات اجتماعية جامدة نسبيا . ويحلل الدكتور عبد القادر يوسف مشكلة منهاج المعارف بقوله (١٥) :

« وكان المنهج موجها نحو الاستقرار ، فجاء من النوع الذي لا يصلح الا للمجتمع الستاتيكي المحافظ ، ولكن الشعب العربي الفلسطيني لم يكن بحال من الاحوال جامدا لانه كان يجتاز فترة انتقال وتغير اجتماعي » . كان المنهاج الفلسطيني يود الابقاء او بالاحرى تحقيق مجتمع متطور شكليا وجامد عمليا ، ضمانا لمصالحه ، ولكن قوة عملية التحديث الذاتية والموضوعية كانت اقوى من هذا الاصرار الاستعماري .

٤ ـ بعد الاحتجاجات الكثيرة والانتقاد الذي وجهه تقرير سيمبسون عام ١٩٣٠ الى سياسة الانتداب التعليمية في الريف ، سعي الى ادخال بعض الدروس الزراعية النظرية

١٥ ـ **المرجع نفسه** ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

والعملية في مدارس الريف ، كما الحق بكل مدرسة ريفية بستانا للتعليم الزراعي العملي. وكانت هبة خضوري سنة ١٩٣١ ، سببا في فتح مدرسة زراعية ، تخرّج معلمين زراعيين ، كان عدد الطلبة فيها عام ١٩٣٦/٣٥ حوالي ٦٠ طالبا ارتفع الى ٦٧ عام ١٩٤٥/٤٤ .

وزيادة في الاهتمام بالتعليم المهني من قبل المعارف ، فتحت الصفوف التجارية في حيفا وبعد ذلك في يافا ، كما فتحت صفوف للتعليم المهني الصناعي في حيفا .

لم يكن هذا التطور وليد تفكير جديد ، بل كان ترضية شكلية للاحتجاجات الشعبية ، كما ان الدراسات التجارية تتلاءم والمجتمع التجاري المحافظ ، وفي هذا المجتمع ، حيث تحتل الوظائف الادارية الرسمية ، المركز الاول معنويا وماديا، نتيجة طموح الشباب الى هذه الوظائف. حتى ان الكثيرين من خريجي مدرسة طولكرم الزراعية ، انخرطوا بعد تخرجّهم في الوظائف الادارية العامة .

ويعلّق الدكتور الطيباوي على هذا التطور في نظام المعارف التعليمي فيقول (١٦) : « انه فقط تحول من نظام اكاديميكي صرف الى نظام اكاديميكي يقبل العملي » .

وفي الحقيقة لم يكن هناك اي استيعاب لحقيقة التعليم المهني او ربط التلميذ ببيئة ، لان اية نظرية مماثلة تصطدم بالتفكير الاستعماري ، وكل ما قام به الاستعمار ، انه تنازل

١٦ ـ مراجعة : الطيباوي ، **المرجع السابق** ، ص ٧١ .

شكليا امام المطاليب الشعبية بعد ادراك قدرته على توجيه البناء الاقتصادي الاجتماعي .

٥ ــ اتضح من خلال البحث في الفصل الاول ، ان قيما عديدة كانت تتصارع داخل الفرد العربي الفلسطيني ، كما ان عملية التحديث اخذت تنمو بسرعة كبيرة خصوصا مع زيادة التعليم والاحتكاك بالحضارة الغربية داخل وخارج فلسطين . ولكن عملية التحديث هذه وبقايا القيم التقليدية كانت تزيد من ازدواجية وفردية الانسان العربي الفلسطيني، ولما جاء الاستعمار الانجليزي وجد ان نمو القطاع الحديث المشوه ، في اتجاه اقتصاد تجاري ، يشجع على نمو المجتمع التجاري المحافظ ، الذي يطمح اليه . صدق الدكتور عبد القادر يوسف حين قال ان النظام التعليمي للمعارف لم يكن ابدا متلائما مع التحول الحضاري للشعب الفلسطيني ، لم تؤخذ متطلبات المرحلة الحضارية وامتدادها التاريخي القادم بعين الاعتبار ، بحيث تطور المجتمع فرديا وجماعيا ، لتزداد انتاجيته ويحقق رفاهيته ، واكثر من ذلك ضمان سلامته القومية . ولكن كان الهدف الاستعماري الانجليزي ، يريد تجميد كل تحول الى هذه المستويات ، انسجاما مع تفكيره الاستعماري وارتباطه بالصهيونية . ولذا شجع النظام التعليمي القيم التجارية من فردية وتفكير جزئي وما ينتج عنه من ثقافة سطحية ، تولد عنجهية وتطلعات بورجوازية ــ مظهرية . كذلك لم تفسح الاوتوقراطية في النظام التعليمي، بل في النظام ككل، المجال لتوازن الشخصية، بل كانت تقوّي الفردية والعداء تجاه الآخرين خصوصا في اطار هذا المجتمع التجاري، حيث يفتقر الى التجمع المهني الواسع ، المهيىء للعمل

الجماعي ، خصوصا في اطار التضامن الطبقي . اي ان هذا النظام التعليمي يزيد من حدة الشخصية الفهلوية . وقد استعملت كلمة « يزيد » ، اي احتمال الزيادة، وليس « زاد »، لان علينا معرفة العوامل الذاتية والموضوعية الاخرى التي اثرت على الفرد الفلسطيني لنعرف تماما تركيب مسلكه . اذ ان هناك اربعة عوامل رافقت التعليم :

اولا : زيادة الوعي القومي، والنضال السلبي والايجابي.

ثانيا : اتساع حجم الطبقة الكادحة في القطاع الحديث وزيادة وعيها الاجتماعي ، واحتدام فقرها نتيجة سياسة الاستيطان الصهيونية .

ثالثا : التضاعف في عملية التحديث ، وتأثيرها على الاجيال الجديدة .

رابعا : النظرة الجديدة تجاه الدوائر الحكومية وتجاه موظف الحكومة ، والتي تختلف بعض الشيء ، عن النمط المعروف خلال الحكم العثماني ، اذ كان الاستعمار البريطاني ينشد ادارة منتجة وامينة نسبيا. كما تطلبت سياسة الاستيطان الصهيونية ادارة منتجة ، لتواكب مخططاتها ، وذلك على نطاق الحكومة او على نطاق البلديات المشتركة ، كما ان المنافسة بين البلديات ، ساعدت على زيادة الانتاجية .

خامسا : المستوى التعليمي الحقيقي

سعينا في الفقرة السابقة ، الى معرفة تأثير النظام التعليمي النظري الرسمي على مسلك الافراد ومستواهم

الفكري . ولكن لم تتحدث الا ثانويا عن المستوى الحقيقي للتعليم المعطى ، اي في اطار النظام الكتبي الذي عرف به ، وسنهتم الآن بتحليل ثلاث نقاط : عدد الطلبة في الصف ، مستوى المعلم واستعداده ، والكفاءة الثقافية بعد الانتهاء من مدة دراسية معينة .

١ ــ ذكر سابقا استنتاجا من الجدول رقم ٨ ، ان عدد التلامذة في الصف الواحد ارتفع من حوالي ٣٠ تلميذا في اوائل العشرينات الى ٤٠ تلميذا في اوائل الاربعينات ثم انخفض بعد ذلك الى حوالي ٣٨ تلميذا في الصف. اي كان على المعلم ان يدرّس ، كمعدل وسطي ، ٤٠ تلميذا ويصل هذا العدد في بعض القرى احيانا الى ٦٠ تلميذا (١٧) . وفي اكثر مدارس القرى كان يدرّس فيها معلم او معلمان ، اذ في العام الدراسي ١٩٤٤/٤٣ كان يوجد ل ٣٤٧ مدرسة قروية ٩٠٠ معلم ومعلمة ، تعلم معظمها حتى الرابع الابتدائي وبعضها حتى السابع الابتدائي ، كما كان هناك تفاوت في حجم المدارس ، وكانت اكثر المدارس ذات المعلم الواحد مؤلفة من غرفة واحدة . وهكذا كان على المعلم تعليم مستويين او اكثر في نفس الوقت ، مما لا يتفق والاسلوب السليم للتعليم ، فلا يستطيع اعطاء مزيد من الوقت لتعليم كل مستوى ، حسب امكانات استيعابه ، ولذا كانت الكمية المستوعبة عقلانيا من قبل التلميذ قليلة .

٢ ــ نتيجة للنظرة التعليمية الرجعية لدى حكومة الانتداب والمعارف ، درّب المعلمون على الطريقة التربوية

١٧ ــ مراجعة : الطيباوي ، **المرجع السابق** ، ص ٤٣ .

المحافظة ، والتي تتلاءم مع المخطط الاستعماري ، اي تلقين التلامذة المواد ، دون الاهتمام بتنمية تفكيرهم ومسؤوليتهم الاجتماعية . فلذا ليس من الغريب ان يظهر رد فعل لدى كثير من الاولاد لطريقة التلقين ، كما ان هذه الطريقة تتطلب مؤازرة الاهل للمعلم ، اي التأكد من اتقان التلميذ خصوصا الولد الصغير لدروسه ، ولم يتوفر لكثير من التلامذة المساندة البيتية بسبب الامية ، خصوصا في الخمس عشرة سنة الاولى من الانتداب .

ولكن الانخفاض التعليمي جاء نتيجة الحاق عدد كبير من المعلمين والمعلمات غير المتدربين ، ومن خريجي المدارس الابتدائية والثانوية الدنيا ، وكان يهدف من وراء ذلك الى سد النقص الكبير في عدد المعلمين ، ومن المستحسن الاستشهاد بتعليق للدكتور عبد القادر يوسف يقول فيه : « وكان اولئك يتقاضون رواتب ضئيلة جدا واطلقت عليهم الادارة لقب المعلمين الاضافيين او غير المصنفين . وكان اولئك المعلمون بصورة عامة اقل مستوى من زملائهم خريجي المدارس الثانوية ودور المعلمين والكليات كما كانوا غير مطمئنين سيكولوجيا واجتماعيا وماليا . ولطالما حاولوا اللحاق بركب زملائهم ولكن ثقافتهم الضحلة كانت تحول بينهم وبين ما يشتهون ، على ان البعض القليل منهم من ذوي الطموح والمواهب اجتاز امتحانات المعلمين وتكيف مع الاوضاع القائمة.

ولكن الوقت الذي انقضى ما بين بدئهم في مهنة التعليم وبين لحاقهم بزملائهم كان كفيلا ان يضر بتلاميذ كثيرين بسبب ضحالة ثقافة وقلة خبرة اولئك المدرّسين . وبعد ان

استحدث جيروم فرل ، مدير المعارف ، هذا الاجراء في سنة ١٩٣٦ اخذ عدد المعلمين الاضافيين يزداد ويتضاعف الى ان اصبح اقل قليلا من عدد المعلمين المصنفين في البلاد .

وكانت الظروف تقتضي ان يكلف اولئك المعلمون بواجبات تدريسية تتجاوز مقدرتهم وقابلياتهم مثل التدريس في الصفوف الابتدائية العليا واحيانا في الثانوية الدنيا . ويستطيع القارىء ان يتصور نوعية التلاميذ الذين يتعلمون على ايدي اولئك المعلمين . وكان نقد عرب فلسطين لهذه السياسة الجديدة لاذعا وسموها سياسة تخفيض المستوى واصبح مألوفا بين الناس ان ينتقدوا المعارف ويتندروا في احاديثهم على اساليبها .

وحتى الفلاحين وصغار المزارعين كانوا لا يؤمنون بسياسة الادارة واساليبها ، اما السواد الاعظم من الطبقة الوسطى وخاصة المتعلمين منهم اصطلحوا على تسمية سياسة ادارة المعارف هذه بسياسة التجهيل او تخفيض المستوى ولكن ما من نقد او تجريح استطاع ايقاف مجرى تلك السياسة فاستمرت حتى انتهاء الانتداب » (١٨) .

٣ ــ والآن وبعد دراسة ، مشكلة الصف والمعلم ، تبقى النقطة الاخيرة : الكفاءة الثقافية بعد انتهاء مدة دراسية معينة، وتتوجه هذه النقطة الى معرفة حقيقة محو الامية لدى التلامذة خصوصا بعد تركهم المدرسة .

ينتقد الدكتور طيباوي نتائج استقصاء عام ١٩٣٢ ،

١٨ ــ د. يوسف ، عبد القادر ، **المرجع السابق** ، ص ١٨٦ ــ ١٨٧ .

الذي سعى الى معرفة المستوى الثقافي لدى الاشخاص الذين درسوا حوالي خمس سنوات وتركوا المدرسة بعدها ، اذ اتضح من عينية احصائية حجمها ٧٤ شخصا ، ان نسبة الذين سقطوا في الامتحان : ٢٤ بالمائة في اللغة العربية و ١٨ بالمائة في الحساب . بنى الدكتور طيباوي انتقاده على ان الاعتماد على خمس سني دراسة خطأ اذ حددت الدراسة الابتدائية في الريف الفلسطيني بأربع سنوات فقط ، فكان يجب بالاحرى انتقاء عينة من المتخرجين بعد الرابع الابتدائي. واعتمادا على هذه الحقيقة قام الدكتور طيباوي ببحث خاص على عينية متنوعة خلال عمله كمفتش في المناطق الجنوبية في العام الدراسي ١٩٤٣/٤٢ . واتضح له : ان اربع سني دراسة في مدارس يشرف عليها معلمون غير اكفاء وسيئة التجهيز ، لا تساعد في مناطق متأخرة اقتصاديا واجتماعيا لمحو الامية . ووجد ان خمس سنوات دراسة تكفي اجمالا في قرى «متقدمة» ، مثل حزام بيارات البرتقال في المنطقة الساحلية ، ولكن لا تكفي في مناطق بئر السبع الجرداء . وتتأكد هذه النتيجة من الحياة العملية ، اذ يجد المعلمون في المدارس ذات الصفوف الاربعة ، خصوصا في المناطق المتأخرة ، ان على تلامذة الصف الرابع البقاء سنة او سنتين كمستمعين (١٩) .

١٩ ــ مراجعة : الطيباوي ، **المرجع السابق** ، ص ٢٢٣ .

الفصل الثالث

الرغبة في التعليم لدى الشعب العربي الفلسطيني والصراع مع الحكم الاستعماري حول المعارف

قد يعتقد في البدء ، ان من الافضل كتابة هذا الفصل بعد تحليل التطور الاجتماعي الاقتصادي خلال حكم الانتداب، اذ ان المعلومات التي يوفرها مثل هذا التحليل ستساعد على معرفة العوامل الموضوعية والذاتية التي اثرت على تصرف الجماهير ، وما طلب العلم والالحاح عليه الا احدى اوجه هذا المسلك . ولكن ولاسباب عديدة يفضل ذكر هذا الفصل قبل القيام بالتحليل الاقتصادي الاجتماعي :

اولا : لان دراسة مرحلة ما قبل ١٩١٨ ، في الفصل الاول ، ساعدت على اعطاء صورة اولية للتطور القادم : اتساع عملية التحديث بشكل تراكمي كبير ، ١) نتيجة للانتشار النسبي للتعليم الحديث ، والاحتكاك بالاوروبيين ، وزيادة الوعي القومي ، ٢) تأثرا بالقطاع الحديث النامي سريعا .

ثانيا : بما ان هدف البحث الحالي ، هو دراسة تأثير التعليم على تطور المجتمع الفلسطيني ، فلذا علينا ، قبل دراسة تطور هذا المجتمع خلال عهد الانتداب ، وقبل دراسة تأثير فئة المتعلمين على النضال الشعبي التحرري ، معرفة

موقف الشعب الفلسطيني من التعليم خلال تلك الفترة ، لنستطيع في الفصول القادمة ، تحليل العوامل الموضوعية والذاتية لهذا الموقف .

ثالثا : هناك وحدة بين موضوع : « تطور التعليم والسياسة التعليمية في عهد الانتداب » وهو عنوان الفصل الثاني وبين موضوع « الرغبة في التعليم لدى الشعب العربي الفلسطيني والصراع مع الحكم الاستعماري حول المعارف » الذي هو عنوان هذا الفصل ، ولذا يجب الابقاء على الوحدة التسلسلية ، وخصوصا ان بعض الاسئلة ، خصوصا حول القيم التي امدها التعليم للتلامذة ، لم تعالج بشكل كامل اذ ترك امر النظر في التعليم الاهلي الى الفصل الحالي . سيقسم هذا الفصل الى ثلاثة اقسام اساسية، يهيىء القسمان الاول والثاني للقسم الثالث . في القسم الاول سندرس الرغبة في التعليم لدى الشعب الفلسطيني ، وفي القسم الثاني سنتحدث عن صراع هذا الشعب مع المستعمر حول المعارف ، وسنعتمد نتائج هذين البحثين في القسم الثالث لمعرفة نظرة الجهات العربية الى التعليم .

اولا : الرغبة في التعليم لدى الشعب العربي الفلسطيني

١ ـ ظهر من خلال بحث المجتمع الفلسطيني قبل الانتداب ، ان المجتمع الفلسطيني بدأ ينشد العلم الحديث ، خصوصا لدى الطبقات المتوسطة وكانت اعداد لا بأس بها من اولاد هذه الطبقة قد دخلت المدارس في اواخر الحكم العثماني خصوصا خلال السنين الاولى للحرب ، كما ان الجماهير الشعبية، بدأت تدرك اهمية العلم بل اظهرت دائما استعدادا

للدراسة متى افسح المجال لها ، كما كان التعليم التقليدي منتشرا بشكل كبير .

رفع القوميون ، الذين ثاروا ضد الحكم العثماني شعار نشر التعليم ، ويظهر لنا ذلك بكل وضوح من اهتمام الحكم العربي في دمشق خلال العهد الفيصلي . فاهتم الامير فيصل شخصيا بالتعليم ، فكان يحث عليه في خطبه ويشجع فتح المدارس، وسلمت المعارف الى ساطع الحصري ليؤمّن نشر التعليم وتحديثه تجاوبا مع الاماني العربية ، خصوصا نشر اللغة العربية والعلوم العصرية ، وكان الشباب العربي ينظر الى التعليم كوسيلة لانهاء التعصب داخل المجتمع العربي .

وابدى الشعب الفلسطيني حماسة كبيرة في سعيه بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة الى فتح المدارس بشكل ملحوظ ، وتجاوبت القرى سريعا مع دعوة حكومة الانتداب الى تحمّل تكاليف بناء المدارس في مناطقها . واعترف المندوب السامي عام ١٩٢١ بالاهتمام العربي بالتعليم ، وذكرته ايضا التقارير السنوية لمديرية المعارف . كما اورد تقرير الخبير سيمبسون عام ١٩٣٠ قولا صريحا عن الاستعداد العربي للتعليم اذ قال : « ... وقد سبقت الاشارة الى ان عدد الاولاد الذين يلازمون المدارس في القرى هو ١٢ر٥٣٩ تلميذا (في العام الدراسي ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩) اي ١٣ر٢ بالمائة .

ولا يمكن تعليل هذه النسبة القليلة بان العرب يحجمون عن ارسال اولادهم الى المدارس فهذا التعليل مناف للحقيقة. واننا لنجد في كل قرية تظلما من الاهلين بسبب قلة

التسهيلات التعليمية والحاحا على طلب زيادة عدد المدارس للصبيان وللبنات ايضا اذ ان المدارس اصبحت في الوقت الحاضر غير كافية لاستيعاب الطلاب الذين يقدمون اليها »(١).

ولاحظ تقرير لجنة بيل عام ١٩٣٧ (٢) ، ان الشعب العربي في فلسطين وزعماءه على جميع المستويات ، احتجوا على سياسة المعارف التعليمية ، التي اغلقت ابواب المدارس امام اعداد هائلة من الاولاد ، وتركت عددا كبيرا من القرى دون امكانيات تعليمية .

وغير هذه التعليقات ، تقر حكومة الانتداب في فلسطين، باستعداد والحاح العربي للتعليم ، عن طريق الارقام :

ـ ارقام طلبات الانتساب للمدارس ، وارقام الرفض.

ـ ارقام وصور عن الدعم المادي من قبل الاهلين للمعارف.

١ ـ تتوفر احصائيتان بشأن ارقام طلبات الانتساب والرفض . الاحصاء الاول في كتاب عبد اللطيف طيباوي ، والثاني في كتاب حكومة الانتداب الذي وضعته اللجنة الانجلو ـ اميركية عام ١٩٤٦ . وتظهر الاحصائيتان بشكل واضح نسبة الرفض ولكن الارقام تختلف بين كل منهما ، ولما كان هدف البحث الحالي اعطاء صورة للوضع وليس التعمق بالارقام من ناحية علمية خاصة ، فسيعتمد على احصاء أ.ل. طيباوي لاظهار الوضع في المدن ، ويعتمد على الاحصاء الثاني لاظهار الوضع في الريف .

١ ـ تقرير سيمبسون ، ص ١١٧ .
٢ ـ مراجعة : تقرير بيل ، ص ٤٤٣ .

من خلال البحث في الفصل الثاني اتضح ان التعليم توسع بشكل هائل بعد سنة ١٩٤٢ ، وكانت الزيادة الكبرى في المدارس في المدن حيث زادت النسبة بين عام ١٩٤١ و ١٩٤٣ حوالي ١٥ بالمائة بينما لم تزد في القرى عن ٥ بالمائة . كما اتضح من البحث السابق حول الامية بين الاولاد من عمر ٧ ـ ١٢ سنة عام ١٩٤٤ ، انها تكاد تكون معدومة بين الصبيان في المدن ، ولكن ثلث البنات بقين دون مدرسة . بينما هذه النسبة عالية في القرى ٤٠ بالمائة للصبيان و ٩٣ بالمائة للبنات. واستنادا لهذه الحقائق يكتفى بالارقام التي اعطاها الدكتور طيباوي عن سنتين مختلفتين قبل الحرب .

بينما سيعتمد على جميع الارقام حول طلب الانتساب في القرى . يذكر عبد اللطيف طيباوي الارقام التالية عن المدن حسب جدول رقم ١٨ .

جدول رقم (١٨)

عدد طلبات الانتساب وعدد قبول الاولاد في عمر الدراسة في المدن والنسبة بينهما ، لعامي ١٩٣٣ و ١٩٣٨

	عام ١٩٣٣ قبل برنامج التوسع	عام ١٩٣٨ بعد برنامج التوسع
عدد الطلبات	٧ر١٣٤	١٠ر٢٨٥
عدد القبول	٤ر٣٩٨	٤ر٦٦٧
النسبة المئوية لقبول الطلبات	٦١ ٪	٤٥ ٪

المصدر : مراجعة: طيباوي ، **المرجع السابق**، ص١٦٢ـ١٦٥ .

اما كتاب حكومة الانتداب فيذكر الارقام الآتية عن الاهتمام بالتعليم في القرى ، مع العلم ان هذه الارقام اقل من ارقام طيباوي ، كما ان هذه الارقام فقط للقرى التي فيها مدارس (جدول رقم ١٩) .

توضح لنا هذه الارقام حماس الشعب العربي الفلسطيني في المدن والقرى للتعليم ، وبالرغم من الزيادة في المدارس والصفوف الا ان عدد الراغبين في التعلم ظل يزداد . تحسنت الحالة التعليمية في اواخر الحرب العالمية الثانية وبعدها خاصة في المدن ، ولكن ظل حجم رفض الطلبات كبيرا . كما كان هذا الرفض كبيرا في المدارس الثانوية او للصفوف الثانوية وفي الابتدائية العالية ايضا ، اذ اتضح لنا من الفصل الثاني ان حوالي ٩٠ بالمائة من التلامذة كانوا عام ١٩٤٤ في المرحلة الابتدائية الدنيا . ويؤكد هذا الالحاح على التعليم في جميع مراحله ، على تطور كبير في قيم ومسلك الشعب الفلسطيني ، كما يظهر التطور الكبير في الاستعداد لتحمل اعباء التعليم .

٢ — كان الشعب يتجاوب بسرعة مع حكومة الانتداب حين كانت تطلب مساهمته في تكاليف المعارف ، وحينما فسحت حكومة الانتداب للبلديات مؤازرة المعارف والتعليم عامة ، بادرت هذه الى العمل بحماس مندفع كانت السياسة الاستعمارية قد جمدته في الماضي . ونستطيع التأكيد على ان التوسع في التعليم الذي نشاهده في عدة فترات من جدول رقم ٨ ، وقد شرحت ارقامه في حينه ، تحقق عن طريق المؤازرة الايجابية في الجهات الشعبية .

جدول رقم (١٩)

عدد طلبات الانتساب وعدد قبول الاولاد في عمر الدراسة في القرى ، والنسبة بينهما ، من سنة ١٩٣٣ حتى ١٩٤٤

	قبل برنامج التوسع		بعد برنامج التوسع					
	١٩٣٣	١٩٣٤	١٩٣٩	١٩٤٠	١٩٤١	١٩٤٢	١٩٤٣	١٩٤٤
عدد الطلبات	٦٫٥٥٥	٧٫٩٨١	١١٫١٣٠	١٠٫٨٦٣	١٠٫٩٥٢	١٠٫٣٤٤	١٢٫٣٢٢	١٣٫٧٨٩
عدد القبول	٣٫٧٦٦	٤٫٩٢٤	٦٫٤٤٦	٦٫٢٢٩	٧٫١٤٦	٧٫٢١٧	٨٫٥١٨	٩٫٥٧٤
النسبة المئوية لقبول الطلبات	٪ ٥٧	٪ ٦٧	٪ ٥٨	٪ ٥٧	٪ ٦٥	٪ ٧٠	٪ ٧٠	٪ ٦٩

المصدر : مراجعة : Survey II, 1946, p. 650 .

وهكذا من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٢٢ (٣) ، تحملت القرى العبء الاكبر في فتح ٣٠٠ مدرسة ، فجمعت الاموال وقدمت الارض ومواد البناء في بعض الاحيان ، ولكن لم تعط التقارير الحكومية اي ارقام عن المبالغ المساهم بها . ونتيجة لحماس الشعب للتعليم ، قررت حكومة الانتداب عام ١٩٢٠ ترك مبادرة انشاء المدارس في القرى على اللجان المحلية ، على ان تجهزها الحكومة وتصرف على المعلمين . ولم تكن البلديات المحلية لتتأخر في بناء المدرسة لو شرعت المعارف في ارسال المعلمين ، فقد كانت ترفض في كثير من الاحيان تزويد القرى بالمدرّسين بحجة عدم مقدرة الميزانية على تلبية جميع الاحتياجات .

ففي احد التقارير الاولى لمديرية المعارف (٤) اعترف صراحة ، ان الاهلين في اكثر القرى يبدون حماسا كبيرا لتعليم اولادهم ، ببناء مدارس جديدة . وجد د. طيباوي من خلال هذا التقرير ان مساهمة القرويين في عام ١٩٢٦ كانت ٣٠ الف جنيه لبناء الصفوف الجديدة و ٣٠ الف جنيه لتجهيزها . ويستشهد الاستاذ خليل طوطح في شهادته امام لجنة بيل عام ١٩٣٧ ان مدير المعارف ذكر في تقريره لعام ١٩٣٠ : « لم تتكفل الحكومة منذ الاحتلال حتى اليوم بنفقات

٣ ــ مراجعة : الطيباوي ، عبد اللطيف ، ص ١٧٢ ــ ١٧٦ .

٤ ــ Report on the Administration of Palestine, عام ١٩٢٦ ، ص ٢٩ .

كافية لبناء اية مدرسة في البلاد » (٥) .

والتوسع في التعليم الذي لمسناه من سنة ١٩٣٣ ــ ١٩٣٤ ، حسب جدول رقم ٨ ، اعتمد التوسع التعليمي في القرى ، اي اعتمد اصلا على مشاركة الاهلين ، كما انه حتى عام ١٩٣٨ بالرغم من ان حكومة الانتداب كانت تعارض النشاط التعليمي للمجالس البلدية في المدن بحجة عدم امكانية حمل اعبائه باستمرار ، الا ان البلديات قامت من حين الى آخر بتوسيع المدارس او بناء بعضها . ولكن نشاطها ازداد بعد ذلك الوقت ، اي منذ تراجع ميزانية المعارف (جدول رقم ٢٠) اي في سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ، وبعد الحاح لجنة بيل على تحقيق لجان معارف في المدن والقرى ، وخصوصا بعد نمو الارادة العربية خلال الثورة الفلسطينية الكبرى . ومما يجدر ذكره ان المدن العربية كبيرة كانت او صغيرة ، ساهمت في التعليم اكثر من المدن المشتركة مثل حيفا او القدس بسبب تناقض المصالح بين العرب واليهود ، وعدم امكانية تحقيق تخطيط واحد .

وحتى عام ١٩٤٦ تأسست ١٦٥ لجنة معارف (٦) ، كما تأسست جمعيات التعليم العربية لمساعدة التلامذة في المدارس الحكومية فانفقت على ١٠ آلاف تلميذ (٧) .

٥ ــ جانا ، محمد توفيق : **الشهادات السياسية امام اللجنة الملكية في فلسطين** ، دمشق ١٩٣٧ ، ص ٣٣١ ــ ٣٣٣ .

٦ ــ مراجعة الطيباوي ، **المصدر السابق** .

٧ ــ مراجعة : شهادة د. توفيق كنعان ، الشقيري ، جميل: **كتاب مجموعة الشهادات والمذكرات** ، عكا ١٩٤٦ ، ص ١١٩ .

جـدول رقم (٢٠)

ميزانية حكومة الانتداب وميزانيات المعارف والامـن والدفاع ونسبـة كل منهما الى الميزانية العامة من سنــة ١٩٢٧/٢٦ الـى سنة ١٩٤٥/٤٤

السنة المالية	الميزانية العامة (١)	ميزانية المعارف (٢)	نسبة ميزانية المعارف الى الميزانية العامة (١)	ميزانية الامن والدفاع (٢)	نسبة ميزانية الامن والدفاع الى الميزانية العامة
	(١) ج٠ف	(٢) ج٠ف	(٢) ÷ (١) ٪	(٣) ج٠ف	(٣) ÷ (١) ٪
١٩٢٧/٢٦	٢ر٠٧٠ر٤٧٩	١١٣ر٨٩٠	٥ر٥٠	٥٠٤ر٧٤٦	٢٤ر٤
١٩٢٧ (١/٤–٣١/١٢)	١ر٩٤٤ر٣٩٧	١٠٠ر٠٣٩	٥ر١٤	٣٩٩ر١٦٦	٢٠ر٨
١٩٢٨	٣ر٣٨١ر٩٩٣	١٣٧ر١١٥	٤ر٠٥	٥٧١ر٢٤٥	١٦ر٨
١٩٢٩	٢ر١٤٠ر٠٣٢	١٣٩ر٧٨٩	٦ر٥٣	٥٤٣ر٧٢٠	٢٥ر٤
١٩٣٠	٢ر٥٣٦ر٥٠٥	١٤٣ر٥٥٥	٥ر٦٦	٧٣١ر١١٥	٢٩ر٠
١٩٣١	٢ر٣٧٤ر٨٦٦	١٤٦ر٩٨٨	٦ر١٩	٧٦٥ر٠٩٠	٣٢ر٢
١٩٣٣/٣٢	٢ر٥١٦ر٣٩٤	١٥٩ر٥٢٠	٦ر٣٤	٧٥٥ر٧٩٩	٣٠ر٠
١٩٣٤/٣٣	٢ر٧٠٤ر٨٥٦	١٧٩ر٦٣٥	٦ر٦٤	٧٨٢ر١٢٣	٢٩ر٠
١٩٣٥/٣٤	٣ر٢٣٠ر٠١٠	٢٠١ر٤٩٨	٦ر٢٤	٨٤١ر٥٨٧	٢٦ر٠
١٩٣٦/٣٥	٤ر٢٣٦ر٢٠٢	٢٢١ر٠٨٧	٥ر٢٢	٨٦٢ر٤٢٠	٢٠ر٤
١٩٣٧/٣٦	٦ر٠٧٣ر٥٠٢	٢٤٣ر٢٤٣	٤ر٠٠	٢ر٢٣٠ر٩٢٠	٣٦ر٧
١٩٣٨/٣٧	٧ر٢٩٧ر٦٨٨	٣٠٠ر٧٤٣	٤ر١٢	١ر٩١٩ر٧٢٣	٢٦ر٥
١٩٣٩/٣٨	٥ر٦٩٢ر٦٧١	٢٨٦ر٠٦٥	٥ر٠٣	١ر٥٩٧ر٢٣٣	٢٦ر٣
١٩٤٠/٣٩	٦ر٠٠٤ر٧٣٩	٢٨٥ر٢٧٢	٤ر٧٥	١ر٩١٥ر٣٨٨	٣١ر٧
١٩٤١/٤٠	٧ر٤٥٠ر٣٥٥	٣٠٢ر٠٧٩	٤ر٠٥	٢ر٠٧٣ر٧٢٢	٢٧ر٨
١٩٤٢/٤١	٧ر٣٦٣ر٦٠٢	٣٨٥ر٢٠٤	٥ر١٦	٢ر٠١٧ر٧٥٩	٢٦ر٩
١٩٤٣/٤٢	١٠ر٢٥٣ر٦٠٢	٤٥٨ر٣٢٢	٤ر٤٧	٢ر٣٣٧ر١٩٢	٢٣ر٣
١٩٤٤/٤٣	١٤ر٨١٩ر٢٥٠	٦٥٢ر١٥٧	٤ر٤٠	٨ر٥٦٥ر٥٣٣	٥٧ر٨
١٩٤٥/٤٤	١٨ر١٩٦ر٥٩٤	٧١١ر٩١٦	٣ر٩١	١١ر٧٦٩ر٤٢٣	٥٩ر٥

المصدر : ١ ــ الحسيني، محمد يونس ، **التطور الاجتماعي الاقتصادي في فلسطين العربيــة** ، يافا ١٩٤٦ .

٢ ــ Statistical Abstract عام ١٩٣٩ حتى السنة المالية ١٩٣٨/٣٧

عام ١٩٤٠ السنة المالية ١٩٣٩/٣٨

عام ١٩٤٥/٤٤ من السنة المالية ١٩٤٠/٣٩ وما فوق.

وكانت البلديات في المدن تمول مشاريعها ، بطرق مختلفة :

– مثلا كانت يافا وطولكرم وطبريه تقوم بالتمول عن طريق اوقاف خاصة .

– الناصرة واللد والرملة ، بتنظيم حملات تبرع فورية .

– اما المدن الاخرى فعن طريق الضرائب خصوصا الزيادة على ضريبة الاملاك ، من نصف الى ٢٥ بالمائة حسب المدن .

ونتيجة لهذا الاهتمام الكبير في التعليم ، ازداد مصروف السلطات المحلية في هذا السبيل ، ويعطي الاستاذ جبرائيل كاتول رقما تقريبيا للمصروفات هذه ، فيقول ان مقدارها السنوي بلغ في السنوات الاخيرة من الانتداب من ١٥٠ الف جنيه الى ٢٠٠ الف جنيه . ساهمت القرى بالنصيب الاكبر لسد احتياجاتها التعليمية . ففي صيف ١٩٤٨ كان يجري بناء ٨٠ صفا ، ووضع تخطيط لمئتي صف آخرين ، وتستوعب كل هذه الصفوف ١٥ الف تلميذ اضافي (٨) .

وكانت يافا اكثر مدينة تتحمل اعباء مالية كبيرة في سبيل التعليم ، حيث فتحت ثلاث مدارس ، وساعدت الكثير من المدارس الاهلية ، وخلال الحرب بدىء تلقائيا في تغذية الاطفال في المدارس ، وكذلك ايواء الاطفال المشردين وتعليمهم . وبلغ ما جمعته لجنة المعارف من سنة ١٩٤١ – ١٩٤٥ ما مقداره ٥٢ الف جنيه .

٨ – مراجعة : الطيباوي ، **المرجع السابق** ، ص ١٧٤ .

وتحملت مدينة الخليل اعباء بناء مدرسة مركزية ، حوت منزلا داخليا للغرباء . ولم تكن المدينة الوحيدة التي افتتحت مثل هذا المنزل بل قامت بذلك مدن عديدة اخرى ، كما ان لجان المعارف تحملت اعباء ٣٤٦ معلما (٩) .

وزادت القرى من مساهمتها المادية حسب جدول رقم ٢١ :

جدول رقم (٢١)

المساهمة المالية النقدية للقرى العربية في سبيل التعليم

العام	المساهمة المالية	المصروف الواقعي
١٩٤١	١٥ر٦٦١	٩ر٠٨٩
١٩٤٢	٣١ر١٣٦	١٩ر٧٨٠
١٩٤٣	٥٤ر٧٩٧	٢٩ر٢٨٦
١٩٤٤	١٣٧ر٩٠٠	٨٢ر٣٦٠
١٩٤٥	١٨٧ر٠٩٨	١٢٤ر٥٣١
المجموع	٤٢٦ر٥٩٢	٢٦٥ر٠٤٦

المصدر : مراجعة : Survey II, 1946, p. 729.

٩ – مراجعة : د. يوسف ، عبد القادر ، **المرجع السابق** ، ص ١١١ .

يتضح لنا منهذا الجدول ازدياد الحماس لنشر التعليم، وبالرغم من هذه المساهمة العالية ، ظلت مساهمة القرى باطراد عظيم ، وتشاهد آثار التعليم في جدول رقم ٨ حيث ارتفع عدد المدارس من ٤٠٣ في العام الدراسي ٤٢/١٩٤٣ الى ٥٥٥ مدرسة في العام الدراسي ٤٧/١٩٤٨ . ولا بد من التنويه بأن ميزانية المعارف ارتفعت ايضا ، نتيجة للازدهار الاقتصادي ولكنها انخفضت نسبيا منذ عام ١٩٤٢ . (جدول رقم ٢٠) . كما يجب ان لا يغيب عن فكرنا ان تضخما ماليا حصل خلال الحرب ففي الفترة ما بين ٤٠/١٩٤٤ فقد الجنيه نسبة ثلثي قوته الشرائية . لذا لم تكن الزيادة في ارقام الميزانية الا اسمية . وكانت مساهمة الاهلين في تلك الحقبة اكبر من مساهمة الحكومة كما نشاهد في جدول رقم ٢١ .

ويروي لنا الاستاذ كاتول مثالا عن حماس القرى للتعليم فيقول : « وكانت ادارة المعارف تعطي السلطات المحلية اعانات مالية لتشييد ابنية المدارس . ولكن الاهلين كانوا يتبرعون بأضعاف تلك الاعانات. وكان ما دفعته القرية الواحدة يتراوح بين الف جنيه وعشرة آلاف جنيه ، بحسب عدد سكانها . ومن الامثلة الغريبة على تضحية الفلسطيني في سبيل التعليم قرية بيت حنينا قرب مدينة القدس ، فمع ان عدد سكان هذه القرية لم يتجاوز الفين وستمائة فقد بلغ ما تبرع به اهلها من المال والارض بمساعدة بعض المقتربين منهم لبناء مدرسة لاولادهم ولتدريب معلمي القرى نحو سبعين الف جنيه» (١٠).

ولم يكن من الغريب ان تشعر القرية بملكيتها للمدرسة

١٠ ـ كاتول : الابحاث ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

وتفتخر بعملها . واكدت لجان المعارف ، وغيرها من اللجان على امكانية العمل الجماعي ، واستعداد الجماهير لمساندة مثل هذه الاعمال .

٤ ـ وظهر النشاط للتعليم في مبادرة شعبية اخرى، خصوصا في الحقبة الاولى من حكم الانتداب ، عندما كانت الحكومة تعرقل اعمال المجالس المحلية في محيط التعليم . بدأ النشاط الاهلي للتعليم بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة، كما ذكر سابقا ، فافتتحت مدارس وطنية في عديد من المدن الفلسطينية ، كما وسع نشاط بعض المدارس الاهلية القديمة. وهكذا انشئت مدرسة النجاح في نابلس والتي اصبحت مدرسة ثانوية ، ووسعت مدرسة روضة المعارف في القدس، التي انشئت بعد العهد الدستوري ، لتصبح مدرسة ثانوية ايضا ، وكانت المعارف في كثير من الاحيان تضم المدارس الاهلية الابتدائية اليها وتتحمل اعباءها ، بدلا من بناء مدارس جديدة .

ونشطت الاوقاف والجمعيات الدينية في نشر العلم . واتضح لنا سابقا من جدول رقم ٩ نشاط الاوقاف الاسلامية ومن ثم المجلس الاسلامي الاعلى بعد تأسيسه . يحتوي هذا الجدول على المدارس الاهلية السابقة الذكر ، وكانت الزيادة الكبيرة في المدارس حتى الحرب العالمية الثانية ثمرة لنشاط المجلس الاسلامي الاعلى ، ووصلت نسبة مصاريف التعليم الى ميزانيته ١٩ بالمائة من ١٩٣٥ـ١٩٣٩ ، كما جاء في بيان د. خليل طوطح امام اللجنة الملكية عام ١٩٣٧، وبلغ مقدار ما صرفه المجلس على المدارس او ما قدمه كاعانات

للمدارس الاهلية ١٠ر٣١٥ جنيها عام ١٩٣٥ .

وكان من نتائج نشاط المجلس الاسلامي الاعلى ، ان وجد عدد كبير من الاولاد طريقهم الى المدارس ، ولما بدأت لجان المعارف في المجالس المحلية تقوم بأعباء توسيع التعليم، اكتفى المجلس الاسلامي بمستوى نشاطه السابق . كما انشأ المجلس الاسلامي الاعلى مدرسة الايتام المهنية ، ورعى الحركة الكشفية .

ونشطت الجمعية الدينية للملل الاخرى في نشر العلم، فجاء نشاط الجمعيات الارثوذكسية في المرتبة الثانية بعد المجلس الاسلامي الاعلى ، فافتتحت مدرسة ثانوية في يافا كما ذكر سابقا ، ومدارس اخرى في المناطق الاخرى وبلغ ما انفقته على التعليم عام ١٩٣٥ ما يزيد عن ٣٠٠٠ جنيه .

ولا ننسى ما انفقه الاهلون فرديا ، من دفع رسوم للمدارس في فلسطين او خارج فلسطين ، وخصوصا ان نشاط المعارف في التعليم الابتدائي العالي والثانوي كان ضئيلا (جدول رقم –١٥–) ، فكان على الاهلين في كثير من الاحيان ارسال اولادهم الى مدارس الارساليات او ارسالهم الى بيروت او دمشق ، كما فضلت الطبقات البرجوازية ارسال اولادها الى مدارس الارساليات، وظل المسيحيون على عادتهم السابقة في ارسال اولادهم الى تلك المدارس .

وبلغ ما دفعه الاهلون من رسوم عام ١٩٣٥ حسب تقدير د. خليل طوطح ١٠٨ر٧٩٩ جنيها . وفي عام ١٩٤٦ بلغ ما دفعه الاهلون من رسوم حسب تقدير د. طيباوي ٣٠٠ الف جنيه .

واذا ما اضيف الى هذه المبالغ (رسوم + مصاريف المؤسسات الاهلية) مساهمة الاهلين العينية والنقدية في تكاليف انشاء مدارس المعارف ، خصوصا في القرى ، يجد المرء ، ان مساهمة الاهلين عامة تجاوزت ميزانية المعارف .

ونستخلص من جميع هذه الارقام والصور ان الشعب العربي الفلسطيني كان دائم الاستعداد للمساهمة في نشر التعليم ، ولما فسحت له الامكانية في القسم الاخير من العهد الانتدابي ، اندفع بحماس كبير ، ينشىء المدارس ويزيد الصفوف .

٥ – قد تكون هناك اسباب مادية لهذا الاندفاع نحو التعليم ، ولكن هناك دلائل تشير الا ان التعليم لدى الشعب الفلسطيني كان اعمق من كونه سعيا نحو ضمان مادي شخصي ، ففي كل مرة كان يزداد فيها النضال العربي ، بعد الحرب العالمية الاولى وبعد ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ وخلال الثورة الفلسطينية الكبرى كان الاهتمام الجماعي بالتعليم يزداد ، اما عن طريق الاحتجاجات او عن طريق المساهمة الفعلية ، وسنحلل ذلك في الفقرات القادمة او في الفصلين الاخيرين . ولكن في هذه الفقرة ستوجه الانظار الى الصورة العميقة بمعنى التعليم عن طريق حادثتين مهمتين .

أ – خلال مطالبته بالصمود ومزيد من النضال يقول المجاهد فؤاد حجازي في رسالته الاخيرة للسيد سليم عبد الرحمن قبل اعدامه مع رفيقيه في حزيران (يونيو) ١٩٣٠ ، « ولن تنسى اتمام تعليم اخي » . فبالرغم من انه ورفاقه اودعوا عائلتهم الى الله والامة ، غير ان الشهيد اكد

على اتمام تعليم قريبه (١١) .

ب ــ ويذكر الاستاذ كاتول : « وقد اظهر العربي الفلسطيني رغبة عجيبة في طلب العلم فكان يدفع الحكومة دفعا لفتح المدارس . وكان سخيا في التبرع بالمال والارض لاقامة ابنيتها ... وكان القروي يعد مدرسة الحكومة في قريته مدرسته وكان فخورا بها مع انه كثيرا ما اشتبك مع الحكومة في صراع مسلح لاسباب سياسية يعرفها الآن العالم اجمع . ففي الثورة العربية التي نشبت بين سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٣٩ كان الثائر ينزل من الجبال الى قريته فيدفع ما عليه من المال لمدرسة الحكومة ثم يعود الى صفوف القتال، مع ان الحكومة لم تكن لها سلطة آنذاك في تلك البقاع. وظلت المدارس تعمل في حماية الثوار ورعايتهم حتى هدأت الثورة عند بدء الحرب العالمية الثانية » (١٢) .

ثانيا : الصراع مع الحكم الاستعماري حول المعارف

١ ــ رفض الشعب العربي في فلسطين الحكم الاستعماري البريطاني واعلن ممثلوه بعد الحرب مباشرة في مؤتمراتهم في اواخر عام ١٩١٨ او خلال عام ١٩١٩ ، رفضهم لتقسيم سوريه واعلنوا ان فلسطين قسم من سوريه تسمى سوريه

١١ ــ مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ، ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨ ــ ١٩٣٩)** ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٧٤ .

١٢ ــ كاتول ، جبرائيل : « الابحاث » ، ص ١٨٠ .

الجنوبية ، واقسموا يمينا بذلك ، كما شاركوا مباشرة في المؤتمر السوري عام ١٩٢٥ وكان شباب فلسطين متعاونين مع اخوتهم العرب الآخرين في بناء صرح الدولة العربية في دمشق . واتضح من خلال الحديث السابق اندفاعهم الكبير في تلك الحقبة لفتح المدارس . واهم هدف لهم آنذاك كان توطيد مركز اللغة العربية بعد اذلال قاس خلال الحقبة الاخيرة من الحكم العثماني ، كما رأوا انه من واجب المدارس العربية تعريف تلامذتها على الثقافة العريقة للامة العربية .

لذا منذ البدء وجد العرب في فلسطين ان ادارتهم المباشرة للمعارف تحقق اهدافهم ، ولكن لم يطالبوا بادارة المعارف بشكل منعزل ، بل طالبوا بذلك عن طريق استقلال فلسطين ضمن سوريه. وبعد زوال العهد الفيصلي في سوريه في صيف ١٩٢٠، بدأوا يطالبون بالحكم الذاتي الذي يحتوي على اشراف على التعليم كما حصل في العراق . وقد جاء ذلك في مذكرة الوفد العربي الفلسطيني الاول الى الحكومة البريطانية في ١٩٢١/٨/١٢ وجاء فيها :

« ان استعداد الشعب الفلسطيني للحكم الذاتي لا يقل عن استعداد غيره من الشعوب التي ساعدتها بريطانيه في الماضي والحاضر على الاستقلال وهنا نذكر اليونان والصرب والجبل الاسود وبولنده والعراق » (١٣) .

وبعد المؤتمر الخامس عام ١٩٢٢ طور العرب من استراتيجيتهم، وبدأ الحديث مع المطالبة بالاستقلال والوحدة

١٣ ــ الوثائق ، ص ٢٦٠ .

العربية ، عن التخطيط لمقاطعة حكومة الانتداب ومحاربة جميع نشاطات الصهيونية ، وتنظيم العمل السياسي العربي في فلسطين . وفي المؤتمر السادس في العام التالي ، بدأ الحديث عن الامور الفرعية ، مثل اقرار اللغة العربية لغة رسمية وحيدة ، والحفاظ على حقوق الاهالي في الاحراج وتخفيض الضرائب ، وكذلك « المطالبة بجعل ادارة المعارف بيد الوطنيين وتسجيل املاك المعارف باسم لجان المعارف الاهلية » (١٤) .

وظلت الجهات العربية تحتج على عدم اعطاء ادارة المعارف الى العرب ، ولكن الاحتجاج بدأ يزداد بعد تجديد النضال العربي الفلسطيني بعد حوادث البراق في اول صيف ١٩٢٩ ، واكتشف الشعب الفلسطيني اصرار الصهيونية على تحقيق دولة اسرائيل ، ووحدة الاستعمار البريطاني مع هذه الصهيونية ، وسعي الاستعمار لتحقيق مطامع الصهيونية ، بتفقير وتجهيل العرب . وبدأ الاحتجاج العربي يأخذ صورة اخرى ، يدرك المعنى الاستعماري لاصرار الانتداب على توجيه التعليم ، ويزداد احتدادا مع النمو السريع للنشاط السياسي والثوري لجميع فئات الشعب الفلسطيني . وسبق موجة الاحتجاجات ، تذمر كامل من الشعب الفلسطيني على فقدان الامكنة لتعليم اولادهم .

وجاء في بيان لحزب الاستقلال في عام ١٩٣٢ (١٥) هجوم عنيف على سياسة المعارف ، التي اكدت سياستها

١٤ ـ الوثائق ، ص ٧٤ .
١٥ ـ الوثائق ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٨ .

التخريبية في ابقاء خمسة اسداس الاولاد العرب دون مدارس وقتل الروح الوطنية لدى التلامذة . وفي الرد الجوابي على بيان المندوب السامي لدى لجنة الانتداب في جنيف عام ١٩٣٣ ، اظهر حزب الاستقلال بشكل موسع تناقض سياسة المعارف مع صك الانتداب ، اذ اهملت تعليم العرب واظهرت محاباة تجاه اليهود ، وتنتهي الفقرة المتعلقة بالمعارف بالتعليق التالي :

« وللعرب كل الحق بعد هذا ان يطلبوا بالحاح ان يعطوا نصيبهم في ميزانية المعارف بنسبتهم العددية وان يتولوا هم بأنفسهم ادارة مدارسهم وسياسة تهذيب ناشئتهم » (١٦) .

وتساءلت اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشباب في رسالة الى المندوب السامي لحكومة فلسطين عام ١٩٣٢ عن سبب سياسة التجهيل في المعارف فقالت : « والا فما بال الحكومة تقف هذا الموقف المزري من الشعب فلا هي تاركة له حق التصرف بادارة شؤون معارفه ، والاشراف على المدارس ، ولا هي عاملة على سد حاجة الشعب في تعليم ابنائه ... ولكن الحكومة لا ترغب في انصاف هذا الشعب ، بالطبع فليس عندها من الشعوب التي يجب ان تتبوأ مكانتها تحت الشمس ، لو انها ترغب في ذلك لتركت له حق ادارة نفسه بنفسه » (١٧) .

وقرر الشباب في مؤتمرهم الثاني في ايار (مايو) ١٩٣٥ : « ان تتولى مدارس العرب بفلسطين ادارة عربية

١٦ ـ الوثائق ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤ .
١٧ ـ الوثائق ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

اسوة بالمدارس اليهودية التي تتولاها ادارة صهيونية » (١٨).

وكانت لهجة الطلبة اعنف اللهجات ، اذ اعلنوا في مؤتمرهم المنعقد في يافا ايار (مايو) ١٩٣٦ خلال الاضراب الكبير سخطهم على المعارف : « يعلن المؤتمرون سخطهم على نظام المعارف الاستعماري المرتكز على المصالح والاغراض الاستعمارية ويطالبون الحكومة بادارة معارف عربية » (١٩).

وطالب ممثلو الشعب الفلسطيني أمام اللجنة الملكية عام ١٩٣٧ ، تحويل المعارف الى العرب للاشراف عليها اسوة باليهود .

٢ ـ بالرغم من المطالبة الدائمة بتسليم المعارف الى العرب كما هو الحال مع المعارف اليهودية ، الا ان الزعماء العرب والتنظيمات الشعبية لم تطلب يوما مقاطعة المعارف ، بل بالعكس كانت الجماهير تتبرع لها كلما طلب منها ذلك ، كما لمسنا من قبل . لان الفرد العربي يجد في التعليم ، ولو مشوها ، وسيلة نضال . كما لوحظ ان سخطه في كثير من الاحيان ، يجبر المعارف والحكومة ان تنشط ولو قليلا ، اي انه كان يلمس من هذه الناحية بعض التحسن ، بينما لم يشاهد الا قليلا من التحسن في النواحي الاخرى .

كان هناك دائما تظلم من الاهلين بشأن ضآلة اماكن الدراسة والمدارس عادة ، وفي كل سنة دراسية كانت

١٨ ـ السفري ، عيسى : **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية** ، يافا ١٩٣٧ ، ص ١٩٧ ـ ٢٠١ .

١٩ ـ الوثائق ، ص ٣٩٥ .

الشكاوى الفردية ترتفع ضد سياسة المعارف ، الا ان الاحتجاج الجماعي بدأ بعد حوادث عام ١٩٢٩ ، اذ انتعشت الحركة السياسية العربية بعد صمود كبير ، كما بدات بسرعة تظهر التنظيمات الشعبية بصورة لم يشهدها المجتمع الفلسطيني سابقا . ظهر التنظيم النسائي والتنظيم الطلابي والتنظيم العمالي ، وقوي صوت التنظيمات المهنية الجامعية من محامين واطباء وصيادلة .

واول تحليل للوضع قام به بعض طلبة الجامعة الاميركية في بيروت وعرضوه في المؤتمر الطلابي الاول في يافا في ايلول ١٩٢٩ (٢٠) ، وتهجموا على سياسة المعارف واهمالها ، ووجد هذا التهجم صدى لدى الصحف العربية. ونشط التهجم بعد ذلك بشكل كبير ، يظهر اهمال المعارف من ناحية المدارس العادية او من ناحية المدارس المهنية ، ويظهر تسلط المعارف على المعلمين وعلى الطلاب . وزاد من نقمة العرب تلك الحقيقة الظاهرة وهي كونهم يدفعون القسم الاكبر من الضرائب ، بينما لا يحصلون على القسط الكافي من التعليم ، وتقدم الحكومة اعانة لمدارس الوكالة اليهودية ، تزيد نسبيا عن حجم المصروف الذي تدفعه على المعارف العربية ، واعترف مدير المعارف بذلك فكتب في تقرير له عام ١٩٣٠ :

« ان توسيع المدارس حجما وعددا في بلاد يتزايد فيها السكان بكثرة ويتوق اهلها الى تحصيل العلم ليس من الامور المرغوب فيها فقط بل هو ضروري جدا في سبيل

٢٠ ـ مراجعة : الطيباوي ، **المرجع السابق** ، ص ١٥٩ .

المصلحة العامة ولم يكن في استطاعتنا سد هذه الحاجة بينما ان الشعب العربي الذي يدفع القسط الاوفر من ايرادات الحكومة اضحى بحق ساخطا على الحكومة لانها لم تنزل عند رغباته لا سيما ان الوكالة اليهودية قد تمكنت بمساعدة جمعيات اخرى من اعداد التعليم العام لاولاد اليهود » (٢١) .

وكانت الجهات العربية تعتمد على تقارير المعارف وتقارير لجان التحقيق لتبرهن اهمال الحكومة ومعارضتها في نشر التعليم للشعب العربي في فلسطين ، وقد اعتمد البحث الحالي على ارقام حكومة فلسطين وارقام المعارف ليظهر نشاط وتطور المعارف ، ولذا سيهمل هنا ترديد الارقام التي تسلح بها العرب في دفاعهم عن حقوق التعليم ، ولكن سيستشهد بأقوالهم فيما يخص مهاجمتهم لميزانية المعارف والمصاريف الادارية الكبيرة .

في الفترة الاولى من الاحتجاجات الجماهيرية كان التركيز على مطالبة حكومة الانتداب ، لاعطاء حصة العرب من الميزانية للتصرف بها ، وحين اشتد سخط العرب ، بدأت الاصوات ترتفع ضد ضآلة حجم الميزانية نسبة الى الميزانية العامة والمصاريف الادارية الباهظة .

وقد رفض مؤتمر الشباب تبرير الحكومة التي تقول ان مقدرتها المالية لا تساعدها على التوسع : « واذا كانت حجة الحكومة بأن ميزانيتها ضعيفة لا تساعد على فتح مدارس اخرى ، فنجيبها على ذلك بأن ميزانية حكومة فلسطين هي من اكبر الميزانيات بالنسبة الى مساحتها وعدد سكانها ،

٢١ ــ تقرير سيمبسون ، ص ١١٧ .

وان الذي يتحمله المكلف الفلسطيني من الضرائب لا يتحمله غيره في معظم البلدان الاخرى » .

واستشهد د. خليل طوطح في بيانه عام ١٩٣٧ بميزانية العراق ليؤكد ضآلة ميزانية المعارف في فلسطين حيث كانت ميزانية المعارف في العراق عام ١٩٣٣/١٩٣٤ ٩ر٨ بالمائة من الميزانية العامة . بينما كانت ميزانية المعارف في فلسطين ٤ر٨ بالمائة فقط . (مراجعة النسبة في جدول رقم ٢٠) .

وبدأ الشعب العربي الفلسطيني يتذمر من التباين الشاسع بين ميزانية المعارف وميزانية الدفاع ، فبينما كان معدل نسبة ميزانية المعارف ٥ بالمائة طوال حكم الانتداب كان معدل نسبة ميزانية الدفاع ٣٠ بالمائة (جدول رقم ٢٠) ، ويؤكد هذا التباين اهداف السياسة الاستعمارية الكامنة في تجهيل الامة مع تقوية امكانية مراقبتها عسكريا .

وانتقد العرب حجم النفقات الادارية فذكر بيان حزب الاستقلال عام ١٩٣٢ « وها هي البلاد تقاسي اليوم ازمة شديدة في التعليم وها هم ابناؤها ، يتسكعون في الازقة محرومين من دور العلم ، بينما ادارة المعارف وغيرها مكتظة بذوي الرواتب الكبيرة الذين ليس للبلاد من حاجة اليهم الا رغبتهم في استمرار الوظائف وقبض المرتبات من الانجليز ، التي تأتي من عرق جبين الاهالي البائسين » (٢٢) .

وبدأت تكتب التعليقات والنوادر في الصحف عن الرواتب الضخمة لموظفي المعارف الانجليز وجهل بعضهم ،

٢٢ ــ الوثائق ، ص ٢٧٤ ــ ٢٧٨ .

وكان بعض معلمي المعارف في كثير من الاوقات يكتبونها باسماء مستعارة او من دون تواقيع . فتحت عنوان « هل علمتا ايها العربي » في العدد الثامن من مجلة « العرب » ١٥ تشرين الاول ١٩٣٢ – كتب احدهم :

« ١ – ان في دائرة المعارف اربعة مفتشين على نسق « وزير بلا وزارة » .

٢ – وان مرتب احد الاربعة لا يقل عن الف جنيه فلسطيني في السنة وان احد هؤلاء الاربعة يقال ان وظيفته تفتيش الالعاب الرياضية وهو رجل عسكري بسيط ولكنه حاد الذهن جدا لانه لما باشر عمله لم يكن يعرف من وظيفته شيئا فجعل يراقب ويلاحظ ويشاهد الالعاب الرياضية حتى صار يميز اصول الحركة الرياضية » .

واما المدير العام جيروم فرل ، فيتحدث عنه مطولا الاستاذ ساطع الحصري في مذكراته، ويؤكد جهله وكان سابقا موظفا في الاستخبارات البريطانية في العراق ، وكان يتمسك دائما بالمركزية المطلقة ، ويرفض التنازل عنها .

وفي عام ١٩٣٧ كانت نسبة النفقات الادارية في مديرية المعارف ١٢ر٣ بالمائة ، بينما كانت لدى المعارف في الوكالة اليهودية ٤ر٩ بالمائة . واتجه ايضا غضب الشعب العربي الفلسطيني الى سياسة المعارف في محيط التعليم الثانوي والمهني ، فيعلق حزب الاستقلال على بيان المندوب السامي امام لجنة الانتداب عام ١٩٣٣ .

« انه لم توجد الى الآن مدرسة صناعية واحدة ولم

توجد الا مدرسة ثانوية واحدة كاملة الصفوف ، وانه لولا هبة خضوري اليهودي لما وجدت مدرسة طولكرم الزراعية التي فتحت منذ سنتين والتي يذكرها المندوب السامي كأنها عمل من اعمال السلطات البريطانية التي يحق لها ان تفتخر بها» .

وكان المؤتمر الاقتصادي العربي في القدس عام ١٩٢٣ قد طالب بتأسيس مدرسة زراعية ، وتشجيع تعليم فن الخياطة في مدارس البنات (٢٢) .

كما طالب بيان مؤتمر الشباب الثاني :

« ١ – ايجاد المدارس الكافية من تعليمية وزراعية وصناعية وتجارية وغيرها .

٢ – ارسال بعثات علمية بصورة كافية » .

وهاجم د. خليل طوطح سياسة المعارف في حقل التعليم الثانوي والمهني في بيانه امام اللجنة الملكية .

وكان من نتائج ضرب المستر فرل للتلامذة شخصيا عام ١٩٢٩ لمشاركتهم في الاضراب ، وكذلك بسبب التسلط الكامل على المعلمين ومنعهم من مزاولة اي نشاط اجتماعي منظم ، ان اجتاحت فلسطين موجة من الاحتجاجات ساعدت ايضا في انتقاد مجمل نشاط المعارف .

في البدء جرى الحديث عن احتجاج العرب على ادارة المعارف من قبل الانجليز ، وبعد ذلك تطرق الحديث الى

---

٢٣ – الوثائق ، ص ٦٧ .

الاحتجاجات العربية حول ضيق مجال تعليم المعارف ، اذ يعكس نقمة الاهلين الشديدة : « بسبب الحالة السيئة التي اوجدتها قلة المدارس وعدم استيعاب الموجود منها لاطفالنا الذين هم في حاجة الى التعليم والذين يخشى ان يصبحوا بفضل سياسة حكومة الانتداب فريسة للجهل وعرضة لان يكونوا في المستقبل عالة على ذويهم وعضوا اشل في جسم الامة ومجموعة السكان » (٢٤) .

ولكن مع الاحتجاج على تقاعس المعارف في ايجاد الامكنة ، ارتفع صوت المنظمات والشخصيات العربية ضد السياسة الاستعمارية الساعية للقضاء على الروح الوطنية . كما تظهر من خلال مسلك الانجليز في محاولتهم اصباغ نظرة تبشيرية على المعارف .

ويحتج حزب الاستقلال لدى لجنة الانتداب على مسلك الاستعمار : « وان ادارة المعارف التي تشرف على مدارس العرب تدار من قبل موظفين انجليز هم الذين يضعون المناهج والانظمة .

وان ادارة المدارس هي ادارة شديدة الوطأة ، ارهابية المسلك تكاد تحرم اي تعليم قومي واي روح وطنية، وانها تراقب المعلمين العرب في ذلك مراقبة شديدة وتطلب منهم ان يكونوا رقباء على بعضهم . زد على ذلك ان رئيس هذه الادارة الذي هو مدير المعارف هو في ذات الوقت رئيس

٢٤ – من بيان مؤتمر الشباب عام ١٩٣٢ ، الوثائق ، ص ٢٦٧ .

جمعية اجنبية ذات صبغة تبشيرية » .

واكد د. خليل طوطح في بيانه ان السياسة التعليمية القائمة في فلسطين تتناقض والتعليم الصحيح ، يعني التعليم الصحيح الذي يخدم الشعب العربي :

« أ – بما ان الحكومة تعمل لتحقيق غاية رئيسية هي وضع البلاد في حالات سياسية واجتماعية واقتصادية من شأنها ان تساعد على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين فاننا نجد ان تعليم العرب موضوع في اساليب تساعد على تكييف العرب لتلك الحالات التي ذكرناها ، او في اساليب لا غايات معينة لها بحيث لا تتعارض مع غايات السياسة المعروفة .

ب – يقوم التعليم بين اليهود على اساس خلق الصهيونية وتشجيع الثقافة العبرية .

المعارف بين العرب سلبية ، ولا غاية معينة لها بما يتعلق بالثقافة العربية ، وليس بالعرب .

ج – توالي الاضرابات في المدارس العربية دليل سوء الجو الذي يحشر فيه الطلاب .

د – تراقب الكتب المدرسية مراقبة تامة (تقرير المعارف) .

هـ – يجوز لمدير المعارف ان يطرد اي معلم لوحظ عليه انه ينشر تعاليم من النوع غير الامين (تقرير المعارف ١٩٣٣) . وغير امين هنا هو كل ما كان غير امين لسياسة الوطن القومي اليهودي .

و ـ تعارض اقامة صلات ثقافية مع العالم العربي » .

ويؤكد البيان ان الانجليز يضعون بأنفسهم الكتب المدرسية ، او يأتون بها من خارج فلسطين ، كما ان دائرة المعارف لا تستعين بالمثقفين العرب الذين حصّلوا علومهم في الخارج .

ثالثا : نظرة المجتمع العربي الفلسطيني من افراد وجماعات لمعنى التعليم

١ ـ بعد هذا السرد المفصل لاحتجاج العرب على سياسة المعارف جملة وتفصيلا ، ننتقل الآن الى دراسة النظرة العربية للتعليم ، وقد تلمسنا بعض جوانبها من خلال مهاجمة هذه السياسة . لقد كان هدف نشر العلم داخل اطار اللغة القومية: اللغة العربية ، وارتباطا بالثقافة العربية العريقة ، هدفا مهما للثوار العرب قبل واثناء الحرب العالمية الاولى ، كما سعت الجماهير العربية الفلسطينية وتنظيماتها وقياداتها بصورة مباشرة او غير مباشرة الى بناء المدارس الكافية لاستيعاب جميع الاولاد ، وتأمين مجال اكبر للتعليم الثانوي .

ولكن ، هل كان وراء هذا المسعى والانتقاد صورة واضحة لمعنى التعليم او التهذيب كما سمي سابقا ؟ اي هل كان هناك صورة لتوجيه التطور الحتمي للشعب الفلسطيني، وبالتالي مواجهة المضاعفات السريعة لعملية التحديث وما تجلبه من تغييرات هيكلية ؟.

وهل كان هناك صورة لمعنى التعليم والتربية عامة في معترك النضال التحريري ؟ اي بلورة الامكانيات التحريرية ايجابيا ، في نطاق رفع الكفاءات النضالية للجماهير العربية

في فلسطين امام المؤامرة الاستعمارية الصهيونية التي تجابهها .

تأكد في الفصل السابق ، وفي سياق الاحتجاجات العربية ، ان الاستعمار كان يخطط لمصلحته ولمصلحة الصهيونية ، وذلك عن طريق تشويه شخصية الاجيال العربية الصاعدة كي يشل الوعي القومي العربي الصاعد .

ولقد كان هذا الموضوع محور بحث الدكتور عبد القادر يوسف ، واعتمدنا كثيرا على استنتاجاته ، ولكن سنطرح هنا اسئلته واجوبته لنتأكد من شمولها وحدودها ، اذ ان البحث الحالي مع موافقته على رأي الدكتور يوسف والرأي العام عامة : من ان اصل البلاء هو الاستعمار البريطاني ، غير انه يتفق مع د. نديم البيطار (٢٥) ، من ان السبب الرئيسي للنكبة هو « الوجود التقليدي » ، والذي وجد منفذا رحبا له في المجتمع التجاري الحديث ، كما سعينا الى تحليل ذلك في الفصل الاول من هذا الكتاب . ولكن تقتضي الامانة ان نسجل ان الدكتور يوسف ، ادرك ان القصور موجود في المجتمع العربي ولذا وضع كتابه ، ليؤكد ان تربية خاطئة كتلك التي حصلت في فلسطين توصل الى النكبة . غير انه لم يحلل ادراك المجتمع العربي للتطور الذي يعيش فيه ، وارتباط البرجوازية العربية بالاسلوب التعليمي الذي سارت

---

٢٥ ـ مراجعة : د. بيطار : **الفعالية الثورية في النكبة** ، بيروت ١٩٦٥ .
د. بيطار، نديم : **من النكسة الى الثورة**، بيروت ١٩٦٩ .

فيه المعارف (وهذا لا يتنافى والنظرة القومية لتلك الطبقة)، اذ هناك وحدة بين نظرة البرجوازية المحلية في دعم الاقتصاد التجاري النامي وبين نظرة الاستعمار في تحقيق مثل هذا الاقتصاد المستهلك ، اقتصاد الخدمات عامة ، حيث تتقهقر القطاعات الانتاجية الاساسية ، واذا ظهر صراع اقتصادي يكون في اطار المنافسة على الاحتكار .

ولكن بالرغم من هذا التحفظ على تحليل الدكتور يوسف سنعتمد اسئلته واجوبته اساسا للبحث في الفقرة الحالية .

يقول د. يوسف في مقدمة كتابه وكمدخل لبحثه :

« يعزو بعض مفكري العرب جانبا من كارثة فلسطين الى السياسة التعليمية الخاطئة التي فرضت على العرب في مدارسهم وفي الحقيقة لم تتوفر لنا دراسة علمية موضوعية عن مدى تأثير التعليم الذي فرضته الادارة البريطانية في حياة المجتمع العربي .

... ورأى فريق آخر ان التعليم الحكومي لم يكن موجها بصورة تقدمية تفتح عقول الجيل الصاعد لادراك متطلباتهم الرئيسية اقتصادية كانت او اجتماعية ، ويؤكد هؤلاء ان وعي عرب فلسطين لبعض هذه المتطلبات خلفته في نفوسهم اجهزة وطنية غير مدارس الحكومة مثل المدارس الوطنية والاحزاب السياسية والنوادي المحلية والمساجد والصحف . واجمع كل اولئك على ان التعليم الحكومي لم يكن منبثقا من قيم ومثل عليا عربية لانه كان من وضع واخراج

اناس يمثلون ثقافة ومصالح لا تمت الى العرب بصلة » (٢٦) .

ويلخص د. يوسف نتائج بحثه بالنقاط التالية وقد ذكرنا بعضها سابقا :

« ١ ـ لم يساعد التعليم على تحسين الزراعة ورفع مستوى المزارع .

٢ ـ لم يحصل على نصيب من التعليم غير نسبة بسيطة من الناس .

٣ ـ ساهمت طبيعة مناهج المدارس العامة وطبيعة عملية التربية في خلق جيل اتكالي ، فقد كان التعليم كتبيا يعد للوظائف وينفر المتعلم من كل عمل يدوي او زراعي .

٤ ـ ادت وسائل النظام التسلطية في الفصول والادارة والتفتيش الى انعدام حرية التلميذ .

٥ ـ كانت الادارة مركزية فحالت مركزيتها دون تقدم المدارس العامة .

٦ ـ ادى انعدام التعليم المهني والصناعي او نقصها الفاضح الى جعل البلاد في امس الحاجة الى العمال الفنيين المدربين على الاعمال الفنية الضرورية لحياة السكان وتحسين مستواهم المعاشي .

٧ ـ باعدت عملية التعليم والتعلم بين المتعلمين وشؤون الحياة .

---

٢٦ ـ د. يوسف، عبد القادر : **المرجع السابق**، ص ٦ ـ ٧ .

٨ ــ كان لانعدام وجود توجهات كافية في الثقافة العربية اثر سيء في خلق جيل متشكك بقيمة الثقافة العربية الاسلامية ومقدرة العرب على التقدم .

٩ ــ ادت الطبيعة الجامدة للمناهج والكتب المدرسية الى جهل الطلاب التام لقضايا الساعة والمشاكل الاجتماعية كما اصبحت المناهج غاية بحد ذاتها .

١٠ ــ اوجدت سياسة التعليم هذه عددا غير قليل من المعلمين والمتعلمين ممن تنقصهم الخصائص القيادية والابتكارية .

١١ ــ حالت هذه السياسة دون ايجاد تعاون ثقافي بين العرب .

١٢ ــ فشلت في تنمية احساس الناشئة بالاخطار المحدقة بالامة العربية » .

يتطلب مفهوم التربية لدى د. يوسف ، معرفة شاملة بالمرحلة الحضارية التي يمر بها اي شعب ، والقدرة على توجيه النمو ، ومنه توجيه تربية الفرد لخدمة المجتمع الجديد ، او العمل الايجابي لتحقيقه . تأكد لنا ، وتأكد للدكتور يوسف نفسه على ان الاستعمار كان غير راغب في تطوير مجتمع المستعمر بصورة تفيد هذا المجتمع ، بل كان يسعى الى ضمان استمرار مصالحه . وهنا يطرح السؤال ، هل يستطيع المستعمر ان يخفف من تأثير التربية الاستعمارية ؟ يؤكد د. يوسف ان الوعي العربي في فلسطين لولا الاجهزة الوطنية مثل المدارس الوطنية والنوادي والاحزاب والمساجد والصحف ، لما كان قد تحقق ولكن يؤكد ان الوعي هذا لم

يشمل جميع المتطلبات الاقتصادية والاجتماعية اي ان تخلفا معينا كان موجودا . ولما كان المجتمع العربي الفلسطيني غير قادر على معرفة جميع المتطلبات ، فمعنى ذلك انه كان متخلفا ، وهذا ليس بجديد ، ولكن يجب ان يتفق على فهم كلمة متخلف . ان التخلف هو بالنسبة لمجتمع افضل ، تدرك مخيلتنا ان تحقيقه ليس من المعجزات ، بل بقدرة الانسان ، ولما كان نمط الانتاج وقيم ومسلك الافراد وحدة متحدة ، فلذا يكون التخلف موجودا في كل ناحية من نواحي النشاط الاجتماعي والفكري . فالتخلف ليس محصورا فقط بالانتاج بل ايضا في العلاقات الاجتماعية ، الناتجة عن العلاقات الاقتصادية . فالطبقة المتملكة تسيّر التطور حسب مصالحها، كما ان نشاطها القومي او الوطني لا يتضارب مع هذه المصالح بل هو انعكاس لها في بعض الاحيان ، كما ان تفكيرها ينبع من مصالحها هذه ومن نشاطها الوطني المخلص ، اي ان تفكيرها يعيش في جو المتناقضات .

ولما كانت طبقة الملاّك في فلسطين وسوريه عامة من حديثة وتقليدية ، تتآلف مع قطاع الخدمات النامي ، بل وتخلق منه المجتمع التجاري ، وكما اتضح لنا ان قيم هذا المجتمع فردية تعتمد على « الشطارة » وتتناقض مع التخطيط حتى الفردي منه وتساعد على نمو الشخصية « الفهلوية » ، فلذا لم يكن هذا المجتمع او الطبقة البرجوازية المتعلمة المتزعمة ، مدركة او حتى قادرة على فهم المرحلة الحضارية التي تعيشها ، وتنظر الى مجتمع الغد المتقدم .

٢ ــ لم يكن امر التوسع في التعليم ، نتيجة وضوح

لدى معظم الطبقة الواعية بعد الحرب العالمية الاولى بل مرجعه تطور عملية التحديث وافتقار اعداد كبيرة من الوجاهة التقليدية وقطاعات من سكان المدن والقرى ، على مطالبات التحديث ، وادراكهم ان مستقبلهم المادي والمعنوي مرتبط فرديا بتوجيه اولادهم شطر التعليم الحديث ، ولما كانت السياسة التعليمية العثمانية محدودة ومعيقة للمجهود الخاص ، تولد مع اضمحلال الامبراطورية العثمانية اندفاع كبير في تحقيق النقص المتراكم . وادرك الثوار العرب في نفس الوقت ان عدم حماس عامة الشعب للقومية العربية ، وارتباطهم العاطفي بالخلافة في الاستانة ، ناتج عن نقص في تربيتهم القومية ، فلذا كان همهم الاكبر تعليم الجيل العربي الجديد لغته الاصلية ، وفي نفس الوقت تاريخه وثقافته العربية ، وعلى التعليم تقريب افراد الشعب من بعضهم ، خصوصا تقريب الفئات الاسلامية من بعضها .

اذن الاتجاه نحو التعليم كان عملا ميكانيكيا ، مرتبطا بالسلفية وتوطيد اللغة الام . وبالرغم من هذه الشوائب ، كانت توعية الاولاد والشعب عامة الى ذاتهم العربية وخلق انتماء جديد اكبر من الانتماء العشائري الديني القديم بحد ذاتها عملا تقدميا . ولكن لم تكن هناك صورة للمشكلة الحضارية التي يعيشها المجتمع العربي ، ولم تناقش ايجابية التناقض الذي يعيش فيه هذا المجتمع خصوصا الفئة الاسلامية ، حيث ان التحديث يسير ، بتناقض مع الصورة الدينية المغلقة السائدة وبين التمرد على هذه الصورة ، نتيجة الخروج من الحدود الفكرية التقليدية واستيعاب القيم الجديدة .

ونتيجة لذلك كان انتشار التعليم والمطالبة به الحاحا شعبيا فرديا ، بالرغم من الظواهر الجماعية ، لم يكن حصيلة ايديولوجية ، تلزم الشباب الواعي لتحقيق الامور الآتية بجميع الوسائل :

اولا : نشر التعليم عامة .

ثانيا : تربية الجيل الجديد لتحمل اعباء مراحل النضال من سياسية او اجتماعية حاضرا ومستقبلا ، لتحرير الارض والمجتمع .

تأكد العجز العربي امام الاستعمار ، عند دخول الافرنسيين دمشق ، دون مقاومة بالمعنى السليم بالرغم من استشهاد يوسف العظمة . وحين بدأت المقاومة بعد ذلك في سوريه ، افتقرت الى ترابطها القومي ومفهومها التقدمي السليم ، فكانت بالاحرى مقاومة عشائرية بزعامة بعض المثقفين ، قد تكون مقاومة فلاحية ولكن النمط العشائري كان المؤثر عليها .

تأكد عجز المجتمع العربي بمقوماته الاجتماعية والفكرية المتوفرة ، من عدم تحقيق النصر على الاستعمار ، فكان من الواجب معرفة الازمة الحضارية والعجز العربي وتهيئة النفس لعملية التحرير ، وليس التظاهر العفوي وتذكير المستعمر لوعده ، الا دليلا على هذا العجز وكذلك لم تكن ثورة ١٩٣٦ في فلسطين نتيجة تهيئة ايجابية واضحة من قبل الطليعة الثورية ، بل تحققت نتيجة الاستهتار بالاماني العربية والازمة الاقتصادية التي عاشها الكادحون العرب نتيجة سياسة الاستيطان الصهيونية ، اذ شرد عشرات

الالوف من الفلاحين من ارضهم ، وافقر الآخرون ، وفصل الوف العمال من اشغالهم نتيجة هذه السياسة ، فتراكم الحقد على المستعمر ، وانفجر ، وكانت ثورة عظيمة شملت جميع فئات الشعب العربي الفلسطيني ، ورفع فيها لواء الفداء ، وتمنى الثائرون عهدا افضل حده الادنى ضمان حقوق الاكثرية العربية والغاء وعد بلفور . وسنتحدث مطولا عن هذه الثورة من خلال حديثنا عن تأثير المتعلمين في النضال الوطني . وما اشارتنا اليها هنا الا لنؤكد عدم توفر تخطيط سياسي وبالتالي فكيف يمكن ان يكون هناك تخطيط تربوي، وليس هذا النفي قطعيا ، اذ سنرى من خلال التحليل ان تحضيرا معينا توفر خصوصا بين الشباب ولكنه لم يكن شاملا .

ادرك الصهيونيون منذ البدء ، ان انتصار قضيتهم مرتبط بتربية الجيل الجديد والشباب عامة ، ولمس الشعب العربي الفلسطيني هذا الاهتمام الكبير بالتعليم لدى هؤلاء نوعية وكمية ، ولكن لم يفهموا المعنى العميق لهذه التربية : تنشئة جيل قادر ان يحقق هدفا معينا او بالاحرى ايديولوجية معينة .

لم تكن المعطيات الموضوعية والذاتية المتوفرة لدى المجتمع الفلسطيني تلزمه بوضع مخطط تحرري طويل الامد، ناتج عن تحليل وموقف ثوري لا يؤمن بالعفوية والوسطية . ولا بد من القول ان مرحلة ٢٥ سنة او اكثر بقليل ليست بطويلة في تاريخ الامم ، اذ تحتاج تطورات معينة وما تفرزه من نتائج الى وقت طويل . اي ان التطور من مجتمع شبه

تقليدي متفكك عضويا الى مجتمع نام وملتحم عضويا ، يحتاج الى وقت طويل . لقد كان المجتمع العربي الفلسطيني مع بدء الانتداب في تحرك نتيجة ظهور القطاع الحديث واحتكاك الشعب مع الاجانب ، لكن القيادة التقليدية تبلورت قبل ذلك وعرفت كيف تتزعم الحركة الوطنية ، وتسيّر التطور ، الا ان عملية التحديث وتضاعفها ، ساعدت الجماهير على استكشاف طريقها ، ولكن المعايير التي وضعتها الوجاهة التقليدية للعمل الوطني، ومناوراتها الطويلة، لم تفسح المجال لتطوير النشاط السياسي ، انسجاما مع حقيقة الاستعمار وارتباط الصهيونية به . وجاءت النكبة قبل ان يفرز المجتمع الفلسطيني النامي قوى جديدة وقيادة جديدة، متسلحة نتيجة انتسابها الطبقي ووعيها القومي ، بايديولوجية ثورية لا تؤمن الا بالنصر .

٣ ــ كان لا بد من هذا السرد ، بالرغم من انه سيكون اساس الفصول القادمة ، الا ان التحليل الحالي يحتاج الى وضوح في بعض النقاط ، قبل التطرق اليه .

من خلال الاستشهاد باحتجاجات الجهات العربية ضد سياسة المعارف وفي سبيل ادارة عربية، لمسنا ان الاحتجاج العربي لم يأخذ طابعه العنيف الا بعد ثورة عام ١٩٢٩ ، اذ بدأت التنظيمات الشعبية تظهر بشكل واسع ، وقبل ذلك كان الحديث عن المعارف من ضمن الحديث عن الحكم الذاتي، وليس كقاعدة مهمة للعمل التحرري .

وفي الحقيقة لم يكن الالحاح في طلب الاشراف على المعارف العربية قويا ، اذ ارجع للغة العربية حقوقها وجعلت اللغة الاساسية في المعارف، كما اجبر الطالب العربي على الاطلاع

على حضارته السالفة ـ تاريخيا وثقافيا ؛ فلم تجعل قضية رفض الكتب التاريخية ، المكتوبة من قبل الشباب العربي المثقف والتقدمي والمعادية للصهيونية سببا للاحتجاجات، بل كان الهدف الاكبر الحكم الذاتي ، واذا ما طلب بعد ذلك بادارة المعارف ، فانها خطوة اولية نحو هذا الحكم .

لم يكن النضال شاملا ضد الاستعمار ، بل نضالا جزئيا ضد الصهيونية بعد عام ١٩٣٢ . كان عنيفا في السنوات الخمس الاولى ، ثم خفت حدته بعدما توقفت الهجرة اليهودية، وبدأ النزوح اليهودي من فلسطين نتيجة المقاومة العربية والازمة الاقتصادية في فلسطين ، والتردد والانقسام الذي عرفته الحركة الصهيونية خلال العشرينات ، ولكن لم يؤخرها مع ذلك ، عن انشاء الجامعة العبرية عام ١٩٢٥ ومؤسسات تعليمية اخرى . في ذلك الوقت نشط المجلس الاسلامي والجمعيات الطائفية في بناء المدارس ، ولكن كان ذلك في اطار الخدمات الاجتماعية مع تربية الاولاد دينيا .

٤ ـ ونجد الاختلاف الكبير بين العقلية الرجعية التي مارست العمل الوطني في فلسطين ، وبين النظرة التقدمية للمهاجرين الفلسطينيين ، واكثرهم ينتسبون الى عائلات فلاحية او متوسطة الحال. ليس معنى ذلك انهم كانوا يمتلكون لتفكير ثوري شامل ، ومدركون للتناقض الاساسي بين المستعمر والمستعمر . ان تعرفهم على المجتمع الاميركي ، ساعدهم على التحرر من العلاقات الاجتماعية التقليدية ، والتحرر من القيم البالية . تعرفوا على مجتمع صناعي فأمدهم ببعض القيم الايجابية ، كما افسح التخصص العالي لبعضهم مجال ادراك فحوى العلاقات الاجتماعية والتنمية .

انشأ المهاجرون الجمعيات المتنوعة المهتمة بنهضة بلادهم . ففي عام ١٩١٩ اصدرت الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية في نيويورك كتابا يحتوي على دراسات من قبل اعضائها ومؤيديها ، تدعو الى مقاومة الصهيونية والاسراع في تطوير المجتمع ولذا سمي الكتاب « **فلسطين وتجديد حياتها ، كتاب جامع لمباحث تاريخية وعمرانية واجتماعية وسياسية عن فلسطين** »، وكانت دراسة د. خليل طوطح بعنوان « التهذيب اهم الدراسات » ، حلل فيها جميع مشاكل التهذيب في سوريه وفلسطين خاصة وانتهى بالمطالبة : « في كل مدارسنا يجب ان تكون الغاية واحدة وهي انماء روح الاستقلال في قلوب الناشئة وارشاد التلميذ او التلميذة الى الشعور بمقدرة نفسه او نفسها والثقة في بلادهما والا نظل تحت رحمة الاجانب نستقي العلم والفن من مدارسهم حسب ما يغرفون لنا من جعابهم وكما يشتهون . من الواجب علينا ان نسعى ونجد حتى نصير مستقلين عن مدارس الاجانب او مدارس الاديرة وان نبذل النفس والنفيس لتشجيع مدارسنا الوطنية. مستقبل سوريه يتوقف على همة واقدام ابنائها فان لم ننصر الوطني بيننا لا ينصرنا احد .

ها نحن الآن على عتبة حياة جديدة . لقد مضى زمان الاتراك وانحلت العرى التي قيّدت الشاب والفتاة ، هوذا الابواب مفتوحة لكل وطني غيور واضحى العمل منوطا بنا ان اغتنمنا هذه الفرصة ربحنا وان لم نغتنمها نظل كما كنا في القديم ، والله يعين كل من اعان نفسه » (٢٧) .

٢٧ ـ صلاح، حنا : **فلسطين وتجديد حياتها**، نيويورك ١٩١٩ ، ص ١٠٩ .

يطرح د. خليل طوطح هذه الآراء في وقت لم يكن يدركه بعد، ابعاد المؤامرة الاستعمارية على الوطن العربي السوري، ومع ذلك يتحدث عن « مدارسنا » اي المدارس الوطنية، ويأمل منها ان تنشىء جيلا وطنيا مؤمنا بامكانياته وامكانيات امته، وركز في دراساته على فتح مدارس لجميع الاولاد من صبيان وبنات، اي ان التهذيب او التعليم كهدف وطني هو قسم من النضال التحرري . ومن خلال اطلاعنا على بعض آراء الاستاذ خليل طوطح (وقد اصبح دكتورا في ذلك الوقت) من خلال بيانه امام اللجنة الملكية عام ١٩٣٧ ، سيتبين لنا استيعابه للخطط الاستعمارية في محيط التعليم وسنحلل آراءه تلك فيما بعد، اذ تعنى هذه الفقرة بتحليل آراء المغتربين. قد يكون بعضهم قد اثر على الوضع المحلي والبعض الآخر لم يستطع، وتغيّر بعضهم، ولكن تحررهم من العقلية القديمة افسح لهم المجال في ذلك الوقت على التسلح بنظرة تقدمية وشاملة بعض الشيء .

ويتبين لنا هذا الوضوح النسبي في رسالة جمعية النهضة الوطنية الفلسطينية بنيويورك الى عرب فلسطين عام ١٩٢٣ تحت عنوان « نداء وعهد » موقعة من نائب الرئيس عمر حسين . وما يهمنا في هذه الرسالة القسم الاخير لعلاقته بالتحليل الحالي : « ... ثم ان الخمس سنوات الماضية قد برهنت على صحة نظرية قديمة، وهي ان تحرير الامة وانقاذها من براثن الصهيونية لا يتأتى ولن يتأتى من بريطانيه ولا من اي قوة خارجية . ففي يد الامة، وفي يدها فقط مستقبلها، وفي استطاعتها ان تجعل وعد بلفور حبرا على ورق، وان كان لا يمكنها ان تمزق القرطاس الذي كتب عليه ذلك الوعد .

ان مغادرة عدد كبير من الصهيونيين فلسطين وفي فتور همة القائمين بالحركة الصهيونية هنا في اميركه اكبر برهان على ان الوعود، ولو صادقت عليها دول الارض اجمعها، ستبقى حبرا على ورق ما دمتم مثابرين على الدفاع .

ونرى انه من الواجب على الامة اضافة خطة الدفاع الايجابي الى خطة الدفاع السلبي التي اتبعتها في الماضي . فعليها ان تهتم بالحالة الاقتصادية والتهذيبية وسواهما من الامور التي تعود عليكم بالراحة والرفاهية . ولعل الامة في مؤتمرها المقبل تعير هذه الامور اهتماما يأتي بنتيجة فعالة .

وفي الختام نردد الثناء على غيرتكم الوطنية ونعاهدكم باسم الوطن المقدس اننا سنبذل ما في وسعنا بمشاطرتكم عبء الجهاد ريثما نحظى بالنصر او نفنى عن بكرة ابينا، والسلام على من فضل الموت في سبيل الحرية والاستقلال على العيش بذل واستعباد » (٢٨) .

بالرغم من بعض الشوائب التي نتلمسها في هذه الرسالة، والتي قد تكون لفظية في كثير من الاحيان، يتبين ان هناك وحدة في آراء الكاتب او الجمعية : ثقة بالنفس وبالامكانات الذاتية، وتطويرها بالمشاريع الاقتصادية والتهذيبية، والنضال حتى الموت، اي ان التقدم عمل جماعي من « الدفاع الايجابي » لانه يزيد من وعي الفرد ومقدرته، ووعي المجتمع ومقدرته. وهنا اذن تأكيد واضح ان التعليم قسم من النضال وتزداد فعاليته ان وجّه من قبل التنظيم السياسي.

٢٨ — الوثائق، ص ٨٢ — ٨٤ .

واذا جمعت دراسة د. خليل طوطح مع رسالة عمر حسين ، يستخلص الرأي الآتي : التعليم او التربية عامة قسم من النضال تزداد فعاليته ان حسن توجيهه نوعية وكمية من قبل التنظيم السياسي ليخدم اهداف الامة .

٥ ـ بعد ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ بدأ المجتمع العربي الفلسطيني يدرك خطورة الوضع التربوي ، اولا : في النقص الكبير في المؤسسات التعليمية وما ولدته من نقمة شعبية ، وثانيا : مشاهدة الاشراف الذاتي والازدهار الكبير في التعليم لدى اليهود : « فمدارسهم حرة في ادارتها وبرامجها ونظمها ، ولهم فيها مجال واسع للتهذيب القومي وجميع اولادهم صبيانا وبنات الذين في سن الدراسة هم في المدارس. ففي مدارسهم نحو ثلاثين الف تلميذ وهو سدس مجموع عددهم ، وبمعنى آخر هو العدد الطبيعي للذين هم في سن الدراسة » (٢٩) .

ونتيجة لهذا الضغط الشعبي ، وادراك الشباب الفلسطيني وفي مقدمتهم حزب الاستقلال ، ان العدو الحقيقي هو الاستعمار الانجليزي ، وما سياسة التهويد الا تخطيطا منه ، والتخلص من الاستعمار الانجليزي هو في نفس الوقت تخلص من الصهيونية ، بدأ الادراك التدريجي لبعض جوانب المخطط الاستعماري ، ومنها السياسة التربوية. وحلل حزب الاستقلال هذه السياسة بقوله في بيانه المذكور سابقا : « ففي سيطرة الانجليز على مدارس العرب فقط واعطاء اليهود حصتهم من ميزانية المعارف نقدا حسب نسبتهم العددية

---

٢٩ ـ من رد حزب الاستقلال على المندوب السامي عام ١٩٣٣ . الوثائق ، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤ .

وجعلهم مطلقي الحرية والادارة في تنشئة ناشئتهم ووضع سياسة التعليم والتهذيب القومي وفق آمالهم ورغباتهم اكبر برهان على سياسة المحاباة التي تسير عليها السلطات الانجليزية في فلسطين بالنسبة لليهود وعلى رغبتها في الضغط على العرب في التهذيب والثقافة القومية والوطنية » .

ولكن حزب الاستقلال لا يسمي هذه السياسة ، باسمها الحقيقي سياسة استعمارية، بل يتحدث عن «سياسة المحاباة»، اي تفضيل شخص على شخص ، ويطالب بالغاء سياسة المحاباة هذه ، وينسى ان القضية اعمق من ذلك ، اذ ان هذه السياسة هي قسم من التفكير الاستعماري ، ستحقق حتى في حال عدم وجود الصهيونية في فلسطين . كما ان تفكير حزب الاستقلال كان جامدا من هذه الناحية، ينظر الى ماضي السلف اكثر من نظرته الى مستقبل المجتمع ، ونستطيع استنتاج هذا الموقف من فقرة في خطاب للسيد رشيد الحاج ابراهيم القاه امام الوفد البرلماني العراقي عام ١٩٣٦ . وكان من الاعضاء البارزين في حزب الاستقلال :

« وقد حرمت (حكومة الانتداب) التعليم القومي وبث روح الوطنية وضيقت الخناق على التعليم الديني وسلكت في مناهج التعليم وبرامجه طريقا يجعل الطالب بعيدا عن ماضي قومه وحاضره بعيدا عن معتقداته وايمانه ...

... ومن سبعة عشر عاما والبلاد تطلب ان تسلّم مقاليد التعليم الى العرب انفسهم والحكومة صماء عن سماع هذا الطلب ، وهي مستمرة في ادارتها متعمدة قتل الروح الوطنية وتخريج ناشئة ملحدة ، ومما يؤسف له اشد الاسف

ان عمل الحكومة كلل بالنجاح في اكثر النواحي » (٣٠) .

ليست التربية في نظره وفي نظر حزب الاستقلال ، الا تنشئة دينية مرتبطة (بمعتقداته وايمانه) وتنشئة وطنية مرتبطة بماضي « قومه » وحاضره ، وتفهم كلمة « قومه » هنا من ناحية عصبية ، حسب المفهوم القبلي ، اي الارتباط، بتراث السلف والحاضر الناتج عنه . ولا بد من التنويه الى ان حزب الاستقلال لم يكن متجانسا ، اذ كان فيه تيار تقدمي، ولذا لم يستطع البقاء طويلا ، غير انه كحزب لم يحلل المجتمع الفلسطيني ومشكلته الحضارية بشكل واسع ، بالرغم ان بعض افراد هذا الحزب هم الذين سعوا الى انشاء جمعية الشبان المسلمين ، وسنبحث بهذا الموضوع في الفصل الخامس ، ولكن لم يكن عندهم وعي اجتماعي لمعرفة تأثير الوضع الاقتصادي الاجتماعي على قيم ومسلك الفرد .

شجع حزب الاستقلال المدارس الوطنية ، ولكن لم يضع محاربة الاستعمار كهدف اساسي في اهدافه وهذا يتحقق عن طريق الاهتمام بالجيل الجديد والشباب عامة ، وليس فقط عن طريق الجمعيات والكشافة والنوادي ، بل ايضا عن طريق التعليم بصورة شاملة ، ووضع فلسفة تربوية تتلاءم والنضال العربي التحرري ، اي ليس فقط ربط الجيل الجديد بماضيه وحاضره بل اعطاءه قيما جديدة ، تساهم في رفع مستوى النضال الشعبي التحرري، والمعركة مع الاستعمار ليست قصيرة بل طويلة الامد ..

٣٠ ــ الحاج ابراهيم، رشيد : **القضية العربية الفلسطينية**، النفير ١٩٣٦/٢/٢٩ .

لم يكن لدى مؤتمر الشباب وضوح اكثر من ناحية الخطة الاستعمارية ، ولكنه ادرك ان وضع مخطط تربوي ودعم المدارس الاهلية عمل مهم . وسموا هذا العمل «التعليم القومي»، ولكن في نفس الوقت تجاهلوا مراقبة المعارف والطلب بتعريبها وتعديل البرامج والمناهج والالحاح على تحقيق التعليم الالزامي .

وهكذا طالب من ناحية التعليم القومي في مؤتمره العام الثاني عام ١٩٣٥ :

« عقد مؤتمر عام للمدارس الاهلية وللمشتغلين بالحركة التعليمية وتأليف اتحاد عام لهذه المدارس تديره هيئة خبيرة مختصة. تقديم ما يمكن من المساعدات للمدارس الاهلية من مادية وادبية » (٣١) ولكن مع ذلك نشعر بفقدان الالحاح القومي على توجيه التعليم والتربية عامة ، بالرغم من النضوج الفكري النسبي وسنتحقق اكثر من ذلك في الفصل الخامس .

ساهم المجلس الاسلامي الاعلى في نشر التعليم وازدادت مساهمته بعد عام ١٩٢٩ ، كما نشط في حقل التعليم المهني ، ولكن نشاطه كان اجتماعيا ضيقا بالرغم من المغزى الوطني الكبير لنشاطه التربوي ، اذ انه خلال الحرب العالمية الثانية عندما نشطت المعارف ، وقف عند حد معين ، وكأن عمله كان مرحليا ، الى افساح المجال للاولاد دخول مدارسه ، الى حين توفر عدد كاف من مدارس المعارف . وقد توفر في مدارسه جوا

٣١ ــ سفري ، عيسى ، **المرجع السابق** ، ص ١٩٧ــ٢٠١ .

وطنيا ، تجاوب مع الحركة النضالية الفلسطينية ، ولكن لم يكن متحررا بشكل كاف من «المعتقدات» كما ذكر رشيد الحاج ابراهيم ، واكبر دليل على ذلك انه لم يشجع كثيرا مدارس البنات ، ففي مدينة القدس كان في المدارس الاسلامية (٢٨٠ طالبة من اصل ١١٠١ طالب) (٣٢) ، وليس بغريب فهذا المجلس افراز لايديولوجية الطبقة الوجيهة، بالرغم من ظهوره تقريبا في بعض الاحيان . ولكي لا يكون هناك التباس ، فان هذه « المعتقدات » تمثل قيم الطبقة الوجيهة المتسلطة ، التي ربطت الدين الاسلامي بها ، لكي توطد من نفوذها واستغلالها وهي غريبة عن مفهوم الدين ، ولا تنسى ان التعليم في المدارس الدينية يوجد ازدواجية في الولاء ، اذ يخلق تناقضا بين الولاء للدين والوطن ، يجعل من الدين مؤسسة متكاملة روحية ودينية ، تتصارع مع مفهوم المجتمع الوطني . كما ان الجهاز الديني يطلب الولاء غير العقلاني من اتباعه عن طريق استغلال الايمان ، بينما الولاء للمجتمع يتطلب وعيا وتفكيرا عقلانيا يرفع من قيمة الفرد والتزامه الايجابي .

وقبل الانتهاء من الحديث عن نظرة العرب الرسمية الى التعليم ، علينا تحليل آراء د. خليل طوطح كما ذكرها في بيانه امام اللجنة الملكية عام ١٩٣٧ ، وذكرت هذه الفقرة سابقا . نشر رايه حين كان ما يزال في المهجر . دعا الى تنشئة الجيل الجديد ، تنشئة وطنية ايجابية تولد لدى التلميذ الثقة بنفسه وبمجتمعه . ولم يكن بعد قد ادرك

٣٢ ـ مراجعة : العارف ، عارف : **تاريخ القدس** ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٩٧ .

الاستعمار ، الا من خلال الارساليات التي سعت وتسعى الى ابعاد الفرد عن بيئته وسلبه ثقته بنفسه وبامته . وها هو الآن يجابه الاستعمار ، الذي رفض المؤلفات الدراسية التي شارك في وضعها (تاريخ وجغرافية فلسطين) ، كما استقال من منصبه كمدير للكلية العربية لاختلافه مع المستعمر . ويكشف في بيانه هذا ، كما ذكر ، نوايا حكومة الانتداب ، من ناحية تهيئة العوامل الموضوعية لتحقيق الاهداف الاستيطانية للصهيونية . ونتيجة لذلك عمد الى ترك العرب في مرحلة حضارية معينة ، وتوجيه المعارف في جعلها تساهم بطريقة غير مباشرة في تحقيق الدولة الصهيونية ، ولا تتعارض وهذا الهدف .

والطريقة غير المباشرة ، هي في الاستناد الى منهاج وبرنامج يحقق نتائج سلبية للمجتمع العربي الفلسطيني ، ولم يحدد د. طوطح اوجه السلبية التي قد تكون التقصير في نشر التعليم افقيا وعاموديا ، ولكن يفهم من كلامه ان « المعارف السلبية » تعني اكثر من تصور كمي . قد يكون ايضا رفض تنشئة جيل او اجيال ، عاجزة عن تحمل اعباء النضال واستكشاف القوانين الاجتماعية التي تساهم في تعبئة الجماهير ورفع كفاءتها النضالية .

ولما كانت التربية في المعارف ، لا تهتم بالثقافة العربية بمفهومها الديناميكي ولا في « العرب » او المجتمع العربي ، فليس هناك غاية معينة للتعليم نسبة لاحتياجات المجتمع ، ولكن في الحقيقة كانت هناك غاية لم يستطع د. طوطح ادراكها وهي تنشئة جيل يهضم قيم المجتمع التجاري ،

ويتم نشرها في جميع اوساط الشعب . ولا يتناقض هذا الهدف مع هدف البرجوازية التجارية ، في ايجاد جيل يقبل بنفوذها وفهمها لعملية التحديث . الصراع في محيط التعليم بين الاستعمار والبرجوازية هو لمن يكون الولاء ، للاستعمار او للصورة الوطنية التي ولدتها ايديولوجية هذه الطبقة ، ولكن من خلال الصراع الشكلي تتراكم عملية التحديث ، نتيجة المصالح الاقتصادية للفئتين ، وما تولده هذه من انفتاح اعداد اكبر من الجماهير الشعبية على احتياجات القطاع الحديث ، ومن خلال تمردها تبدأ في ادراك اعدائها ، ويزداد وعيها .

٥ ـ يعجب المرء حين يدرس تلك الحقبة من تاريخ الشعب العربي الفلسطيني حين يجد عجزا وقوة في نفس الوقت. عجزا امام التطور الشامل، وقوة في بعض النواحي. مثلا قوة فجائية في الدفاع عن الحق العربي بأرضه ووطنه ، ولكن عجزا في وقف تسرب الاراضي الى الصهيونيين ، ونتحدث عن ذلك في الفصلين القادمين .

لما كان الشعب العربي الفلسطيني خصوصا طليعته غير قادرة على معرفة القوانين الاجتماعية ، مدركة للمرحلة الحضارية التي تعيش فيها ، وقادرة على تحديد مستقبلها ، فلذا كانت عاجزة عن تحويل التطور لمصلحتها ، ولكنها كانت منجرفة مع هذا التطور الحتمي ، ومن خلال هذا الانجراف اظهرت قوة ايجابية كان المجتمع العربي الفلسطيني عاجزا بسبب تكوينه الطبقي والفكري ، عن توجيه التطور ، ولكن التطور هذا والوعي القومي ، ساعداه على تخطي قيم المجتمع

التجاري والقيم التقليدية البالية ، ليستكشف قيما اخرى ، تظهر قوته ، منها دفعه للانتشار التعليمي والعمل ايجابيا في هذا المحيط ، وكذلك اظهار اعمال جماعية اخرى مثل السعي لتنظيم الكفاح في بعض الاحيان، وظهور التنظيم النقابي القوي في الاربعينات ، واعمال اخرى .

ولكن مع ذلك ، لم يكن الوعي كافيا لتوجيه التطور ، بل حصل تناقض فعلي نلمسه ايضا في التعليم ، والذي سيكون محور التعليق التالي ، وسنترك الاوجه الاخرى الى الفصول القادمة ، حيث ستناقش مجمل القيم والمسالك .

في حين يتهجم على سياسة الاستعمار التعليمية ، وعدائها للمطالب الاجتماعية والقومية، نجد الشعب الفلسطيني يشجع مدارس المعارف ، ويعمل جماعيا في اطار المجالس البلدية الى التوسع في مدارسها ، وكل ما سنحت الفرصة له سلم المدارس الاهلية غير الدينية الى المعارف بدلا من ان يوجه اهتمامه الى التسلم غير المباشر للمدارس العربية ، وكان يستطيع القيام بذلك خلال ثورة عام ١٩٣٦ حيث اعلن الاضراب ورفض دفع الضرائب ، ولكن التصميم على تسلم المعارف مع العجز التام عن تحقيقه ، شل كل حركة، والسبب كما ذكر عدم وضوح الرؤية ، والتناسق الضمني بين التفكير الاستعماري والمصالح البرجوازية .

وفي نفس الوقت الذي كان ينعت التعليم لدى المعارف انه الحادي ، كانت اعداد التلامذة تزداد ، بل وفسح هذا التعليم ، مجالا للفتيات لتلقي العلم اكثر مما وفره القطاع الاهلي الاسلامي .

كانت مظاهر القوة العربية ، فردية في جوهرها بالرغم من النشاط الجماعي ، لانها تفتقر الى الثقة الكاملة بالنفس ، اساس كل نظرة الى المستقبل .

الفصل الرابع

تطور المجتمع العربي الفلسطيني خلال عهد الانتداب

ساهمت الفصول السابقة في توضيح التكوين الاجتماعي والفكري للمجتمع العربي الفلسطيني قبل عهد الانتداب ، وفي توضيح تطور التعليم خلال هذا العهد والموقف العربي منه . وتبيّن ان توسعا كبيرا في التعليم قد حصل ، خصوصا منذ عام ١٩٤٢ ، تجاوبا مع الحاح الجماهير الشعبية في توفير التعليم لاولادها . ولكن هذه النظرة للتعليم لم تكن جماعية بالقدر الكافي ومتلاحمة التحاما اراديا واعيا مع النضال السياسي ، اذ ان الالتحام كان في اكثر الاحيان لا شعوريا ، يفرضه الصراع الحضاري ــ العنصري . كما اكد مسبقا ، ان الفكرة الاستعمارية في ايجاد المجتمع التجاري الاستهلاكي يتلاءم مع فكرة البرجوازية المحلية في تحقيق مثل هذا المجتمع ، ولذا ليس هناك اختلاف كبير بينهما حول تربية الفرد ، الا ما هو متعلق بصراعهما حول تزعم هذا المجتمع . فالبرجوازية الوطنية لا تنظر الى الاستقلال ، كقضية تحررية شاملة للانسان والمجتمع ، بل تنظر الى ذلك من منظار مصالحها . واتضح هذا الشيء من خلال تحليل الوضع الفكري للمجتمع العربي قبل الانتداب . واذا تزعمت النضال القومي خلال الحكم العثماني وخلال الحكم الاستعماري البريطاني ، فكان ذلك دفاعا عن مصالحها في اطار العصبية العشائرية ، وفي

كانت مظاهر القوة العربية ، فردية في جوهرها بالرغم من النشاط الجماعي ، لانها تفتقر الى الثقة الكاملة بالنفس ، اساس كل نظرة الى المستقبل .

الفصل الرابع

تطور المجتمع العربي الفلسطيني خلال عهد الانتداب

ساهمت الفصول السابقة في توضيح التكوين الاجتماعي والفكري للمجتمع العربي الفلسطيني قبل عهد الانتداب ، وفي توضيح تطور التعليم خلال هذا العهد والموقف العربي منه . وتبيّن ان توسعا كبيرا في التعليم قد حصل ، خصوصا منذ عام ١٩٤٢ ، تجاوبا مع الحاح الجماهير الشعبية في توفير التعليم لاولادها . ولكن هذه النظرة للتعليم لم تكن جماعية بالقدر الكافي ومتلاحمة التحاما اراديا واعيا مع النضال السياسي ، اذ ان الالتحام كان في اكثر الاحيان لا شعوريا ، يفرضه الصراع الحضاري ــ العنصري . كما اكد مسبقا ، ان الفكرة الاستعمارية في ايجاد المجتمع التجاري الاستهلاكي يتلاءم مع فكرة البرجوازية المحلية في تحقيق مثل هذا المجتمع ، ولذا ليس هناك اختلاف كبير بينهما حول تربية الفرد ، الا ما هو متعلق بصراعهما حول تزعم هذا المجتمع . فالبرجوازية الوطنية لا تنظر الى الاستقلال ، كقضية تحررية شاملة للانسان والمجتمع ، بل تنظر الى ذلك من منظار مصالحها . واتضح هذا الشيء من خلال تحليل الوضع الفكري للمجتمع العربي قبل الانتداب . واذا تزعمت النضال القومي خلال الحكم العثماني وخلال الحكم الاستعماري البريطاني ، فكان ذلك دفاعا عن مصالحها في اطار العصبية العشائرية ، وفي

هذه الحالة كانت مهددة عنصريا واقتصاديا ، فامتعضت وثارت ، ولكن مسيرتها كانت مرتبطة بحدة منافسة الجهات الاخرى لها من عثمانية وبريطانية وصهيونية ، كما كان عليها اظهار تشدد لفظي ، يؤمّن لها السلطة الدائمة على شعبها ، ويقوّي من مركزها امام الاطراف الاخرى .

وفي هذا الفصل سنسعى الى تحليل التطور الاجتماعي الاقتصادي في فلسطين ، لمتابعة عملية التحديث والتمرد ولمعرفة القوى الجديدةوافرازاتها الفكرية، وسندرس التطور الاقتصادي من خلال نتائجه الاجتماعية ، اي التطور في التكوين الطبقي . كما سنحاول رسم الاطار الاجتماعي لنشاط الشباب المتعلم داخل النضال الوطني في عهد الانتداب .

بينما بدأنا في الفصل الاول فيتحليل الطبقات الوجيهة والبرجوازية انتهاء بالطبقة الكادحة ، سنبدأ في هذا الفصل بتحليل الطبقة الكادحة ، ولكن بعد تقسيمها الى فئتين متميزتين : الفلاحين والعمال .

اولا : طبقة الفلاحين

بعدما اتضحت لنا الصورة المزرية لحالة الفلاح في الفترة الاخيرة من الحكم العثماني في الفصل الاول من هذا البحث ، علينا الآن دراسة حالته بعد الحرب العالمية الاولى ، وستقسم فترة الانتداب الى قسمين : القسم الاول حتىثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ والقسم الثاني ما بعد سنة ١٩٣٩ ، اي منذ بدء الحرب العالمية الثانية ، وهناك سببان وجيهان لهذا التقسيم :

اولا : الاسباب الاجتماعية الاقتصادية المرافقةللاسباب السياسية التي هيأت لتلك الثورة .

ثانيا : ظروف الحرب العالمية التي حسنت فجأة من احوال الفلاحين ومن المستحسن دراستها على حدة، ومعرفة نتائجها الاجتماعية .

أ ـ حالة الفلاحين حتى الثورة الفلسطينية الكبرى

اعترف المكتب العربي في القدس، الذي اسسه موسى العلمي واعتمدته الجامعة العربية للقيام بالدعاية للقضية الفلسطينية ، في كتابه الى اللجنة الانجلو ـ اميركية عام ١٩٤٦ : « ان ثورة سني ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ لم يقم بها المتعلمون في المدن ، بل عصابات من القرويين في الجبال وفي القرى التي كانت تقدم لها المعونة والزاد والمأوى » (١) . لم يقم لها ايضا اي زعيم قروي او اقطاعي ، بل برزت العصاباتالريفية بكثرة مع ازدياد الاندفاع الوطني خلال اضراب الستة اشهر عام ١٩٣٦ ، ولكن لم تكن وليدة ذلك الاضراب ايضا ، بلمنذ عام ١٩٣٠ بدأت تظهر عصابات جهادية تهاجم المستعمرات اليهودية ، وكان قد نظمها الشيخ عز الدين القسّام ، واكثر افرادها من القرويين المشردين الى حيفا نتيجة اجلائهم عن اراضيهم ، كما ان العمال الزراعيين المضطهدين من اعمالهم في المستعمرات اليهودية بدأوا يجابهون بالقتال الحركات العسكرية الصهيونية المضطهدة لهم . وتفجرت الثورة الفلاحية الوطنية بعدما اصبح الوضع لا يطاق ابدا . ما هو

١ ـ نشرات المكتب العربي ـ **مشكلة فلسطين** ـ الجزء الثاني ـ القدس ١٩٤٦ ، ص ١٣٨ .

هذا الوضع ؟ وكيف تولدت هذه الذهنية الثورية ؟ هذا ما سنسعى لمعرفته في الفقرة الحالية .

١ ــ اتضح لنا في الفصل الاول ، ان النظام الضرائبي العثماني ، كان معتمدا على الضرائب المباشرة بالنسبة للفلاح ، خصوصا ضريبة العشر وضريبة الاغنام ، كما يقع عليه القسم الاكبر من ضريبة الاملاك (الويركو) . ولما جاء الانجليز ابقوا على هذا النظام ولكن ابدلوا ملتزمي الضرائب ، بموظفين رسميين لتحصيلها ، وسعوا الى التخفيف من هذا النظام ، الا انه ظل سائدا حتى عام ١٩٣٥ . وهكذا ظلت حالة الفلاح على ما هي عليه خلال الحكم العثماني ، يدفع الضرائب الباهظة نسبيا ، قد تكون اقل من قبل الا انها نسبة لصافي دخله ما تزال عالية جدا .

ففي سنة ١٩٢٥ كان العشر ما يزال ١٢ر٥ بالمائة ، ولما كان يحسب من اصل الدخل الاجمالي (اي قبل حسم التكاليف) ، فلذا اكدت الابحاث ان الفلاح يدفع وسطيا ٣٥ بالمائة من دخله الصافي ضرائب للحكومة ، ففي ذلك العام خفض العشر الى ١٠ بالمائة ولكن كان ما يزال مرتفعا جدا خصوصا بالنسبة الى دخل الفلاح المتواضع . واعتقدت حكومة الانتداب انها ستساعد الفلاحين ان غيرت من نمط احتساب العشر ، اذ كان حتى عام ١٩٢٧ ، يحتسب سنويا ، ينتظر الفلاح مجيء المفتش ، الذي يخمن حجم الانتاج ويحدد السعر ، والذي يكون عادة اعلى من السعر الحقيقي ، فكان هذا الانتظار يسبب مشاكل للفلاح اوردناها في الفصل الاول ، ولكن نذكر اهمها : عدم الاستفادة من الاسعار العالية في اول

الموسم ، قبل دخول الانتاج الاجنبي السوق الفلسطيني (٢) . نعدل هذا التخمين والتحديد الموسمي ، بمعدل وسطي لأربع او لثلاث سنوات خلت .

ولكن هذا التغير في احتساب العشر جاء شؤما على الفلاحين ، اذ نتيجة للازمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣ ، انخفضت اسعار المنتوجات الزراعية ، كما ان الانتاج الزراعي الفلسطيني ، اصيب بأضرار نتيجة الاوبئة الزراعية والعوامل الطبيعية . وكان على الفلاح ان يدفع الضريبة حسب الاعوام السابقة ، مما زاد في فقره ، ويعطينا الجدول رقم ٢٢ صورة عن تدهور الاسعار عام ١٩٣١ . وخفضت الحكومة نتيجة لذلك معدلات الضريبة ، تنازلا امام الاحتجاجات الشعبية وتخفيفا لحدة الصراع بعد حادث البراق عام ١٩٢٩ . وفي عام ١٩٣٥ ، الغيت ضريبة الاعشار وبدلت بضريبة الاملاك في القرى .

جدول رقم (٢٢)

مقارنة السعر الوسطي المحتسب مع سعر السوق عام ١٩٣١

نوع الانتاج	السعر الوسطي المحتسب ١٩٢٤ ــ ١٩٢٧ مليم.ف	سعر السوق عام ١٩٣١ مليم.ف	نسبة السعر الوسطي المحتسب الى سعر ١٩٣١ %
قمح	١١ر٥	٧ر٠٠	٦١
شعير	٧ر٥	٤ر٩٨	٦٦

٢ ــ حماده ، سعيد ، **المرجع السابق** ، ص ٦٨٧ .

سمسم	٢٤ر٨	١٦ر٣٨	٦٦
ذره	٧ر٥	٥ر٤٣	٧٢

المصدر : Granovsky A. : **The Fiscal System of Palestine**, Jerusalem 1935, p. 168.

وبالرغم من التخفيضات المتلاحقة بمعدلات الضريبة ظل الحجم المالي للضريبة عاليا بالنسبة لدخل الفلاح الصافي (بعد حسم الضريبة) انطلاقا من دراسة الخبراء عام ١٩٣٠ (٣) . يتضح لنا ان الفلاح كان يدفع ضرائب مباشرة ، معدلها ١٦ر٥ بالمائة نسبة للفلاح المالك و ٢٨ بالمائة نسبة للفلاح المستأجر . ووجد الاستاذ فؤاد سابا ان الفلاح في عام ١٩٣٤ ، كان يدفع ٢٥ ٪ من دخله الصافي المتواضع ضرائب مباشرة وغير مباشرة فلديه اقل دخل ويدفع اعلى نسبة ضريبية (جدول رقم ٢٣) .

كما لا بد من الملاحظة ، ان ضريبة العشر لم تأخذ بعين الاعتبار نوع الاراضي ، بل كانت تدفع من جميع الفلاحين دون استثناء ، فكان صاحب الارض غير الخصبة يدفع نسبيا اكثر من صاحب الارض الخصبة ، اذ ان المعدل الضريبي الجامد له تاثير رجعي . ومثال على ذلك ، الضريبة على ١٠٠ دونم في ارضين مختلفتين (جدول رقم ٢٤) .

---

٣ — تقرير سيمبسون ، ص ٢٥٥ .

جدول رقم (٢٣)

الدخل الصافي وحجم الضريبة ونسبتها ، لعدة فئات من الشعب العربي الفلسطيني عام ١٩٣٤

	الدخل الصافي جنيه فلسطيني	الضرائب جنيه فلسطيني	نسبة الضرائب الى الدخل الصافي ٪
١ — المزارع (دفع العشر ضريبة عن الاملاك والحيوانات — جمارك ورسوم)	٢٣ر٣٧	٥ر٣٧	٢٥ ٪
٢ — عامل التجارة (جمارك ورسوم)	١٠٠ر٠٠	٨ر٠٠	٨ ٪
٣ — الملاك (ضريبة الاملاك — جمارك ورسوم)	٢٥٠ر٠٠	٥٣ر٧٥	٢١ر٥ ٪
٤ — التاجر ، اختصاصي او موظف (جمارك ورسوم)	٢٥٠ر٠٠	٣١ر٢٥	١٢ر٥ ٪
٥ — التاجر ، اختصاصي او موظف (جمارك ورسوم)	٥٠٠ر٠٠	٦٢ر٥٠	١٢ر٥ ٪
٦ — التاجر ، اختصاصي او موظف (جمارك ورسوم)	١٠٠٠ر٠٠	١٢٥ر٠٠	١٢ر٥ ٪

المصدر : جانا ، محمد توفيق ، **المرجع السابق** ، بيان الاستاذ فؤاد سابا ، ص ٢٦٠ .

جدول رقم (٢٤)

نسبة الضريبة على الدخل الصافي في قطعتي ارض مختلفتي الجودة

	الدخل الاجمالي ل ١٠٠ دونم ج.ف (١)	تكليف الانتاج ١٠٠ دونم ج.ف (٢)	الضريبة (١٠ بالمائة) ج.ف (٣) من (١)	الدخل الصافي ج.ف (٤) (١)-(٢)+(٣)	نسبة الضريبة الى الدخل الصافي ٪ (٥) (٣) ٪ (٤)
ارض خصبة	١٠٠	٤٠	١٠	٥٠	٢٠ ٪
ارض غير خصبة	٧٠	٣٤	٧	٢٩	٢٤ ٪

المصدر : الارقام مأخوذة من كتاب Granovsky ، **المرجع السابق** ، ص ٥٥ – ١٥٦ ، ولكن حسب الدخل الصافي في كتابه قبل حسم الضريبة .

ان لهذا الوجه السيىء الاضافي لضريبة العشر، اهميته، اذ يعيش اكثر الفلاحين في المناطق الجبلية ، اما الاراضي الساحلية الخصبة فقد ابتاعها الصهيونيون .

٢ – اتضح لنا في الفصل الاول ان الفلاح ، بسبب الضرائب المباشرة النقدية ، ارتبط بالمرابي الذي كان في نفس الوقت ملتزم الضرائب ، وتاجر الحبوب ، واستطاع بعضهم نزع ملكية الفلاح لأرضه . غير انه خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها ، نتيجة لارتفاع الاسعار، استطاع الفلاح سداد ديونه، كما استطاع بعض الفلاحين اعادة شراء اراضيهم السابقة . ولكن بعد عام ١٩٢٢ اخذت اسعار المنتوجات الزراعية بالهبوط ، وكان الفلاح في ذلك الحين قد حسّن من احواله المعيشية ، فلذا زاد من مصروفه العائلي . ومع هبوط الاسعار وبقاء الضريبة على حالها بدأ يشعر بضيق مادي ، واتجه مجددا شطر المرابي يستدين منه ، وزاد في الطين بلة ، الزيادة السكانية الكبيرة وازدياد بيع الاراضي في الوقت نفسه ومنع الفلاحين العرب من العمل في المستعمرات اليهودية خصوصا في مستعمرات جمعية بيكا التي كانت قبلا تسمح للفلاحين العرب العمل لديها ، بالعكس من الصندوق القومي اليهودي ، الذي كان يفرض على البائع العربي طرد الفلاحين من الارض ، وعدم تشغيلهم في المستعمرات الجديدة ، كما ان السبب الرئيسي لانشاء الهستدروت ، هو المطالبة بمنع تشغيل العمال الزراعيين العرب . وبعد تجدد نشاط الحركة الصهيونية عام ١٩٢٨ ، اتجه الهستدروت الى طرد العمال العرب بالقوة .

واتضح للجنة الحكومية التي عهد اليها درس حالة

الزراعيين العرب عام ١٩٣٠ ان ٢٨ر٢ بالمائة من العائلات الفلاحية في مجموع ١٠٤ قرى لا تملك اي قطعة ارض واذا عمم ذلك على كل فلسطين ، يصبح عدد العائلات التي لا تملك اي قطعة ارض ٨٦ الف عائلة . واشتهر هذا الرقم ، اذ استخدمه العرب ليظهروا الوجه المأساوي لوعد بلفور. ولكن نتائج هذه اللجنة تعطي صورة اشمل للوضع الفلاحي في تلك الحقبة . (جدول رقم ٢٥) .

جدول رقم (٢٥)

توزيع الاراضي وعدد العائلات من كل فئة في ١٠٤ قرى عام ١٩٣٠ وحسب قول القرويين

	عدد العائلات
١ ـ المالكون الذين يزرعون بأنفسهم ويعتاشون منها	
فوق الفدانين (١)	٣٨٧٣
بين فدان وفدانين	١٦٠٤
٢ ـ المالكون الذين يزرعون بأنفسهم ويشتغلون كفعلة وعمال	
بين فدان وفدانين	٦٥٧

١ ـ الفدان حوالي ١٢٠ دونم .

المصدر : حكومة فلسطين : **تقرير اللجنة** التي عينت لدراسة حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين والتدابير التي تتخذها الحكومة بشأن الضرائب بالنسبة لتلك الحالة ، القدس ١٩٣٠ ، ص ٣٠ .

(تابع) جدول رقم (٢٥)

دون الفدان الواحد	٨٣٩٦
اشجار فقط	١١٠٣
٣ ـ فعلة وعمال	٦٩٤٠
مجموع ٢ + ٣ =	١٧٠٩٦
المجموع العام	٢٣٥٧٣

يتضح من هذا الجدول ان ٧٢ر٥ بالمائة من العائلات الفلاحية الفلسطينية ، كان عليها العمل لدى الغير لتحصيل كامل معيشتها او قسم منها ، واذا اعتمدنا ايضا على جدول رقم ١٠ ، نستطيع ان نفهم وجها آخر للمشكلة ، اذ ان النزوح الى المدن لم يكن نسبيا كبيرا ، اذ انخفضت نسبة سكان القرى الى مجمل السكان العرب من ٧١ بالمائة عام ١٩٢٢ الى ٦٨ بالمائة عام ١٩٣١ ، بينما زادت نسبة سكان القرى ٢٤ بالمائة في نفس المدة ، كما علينا ان لا ننسى ان قسما من مدن فلسطين هي بالاحرى مدن زراعية .

ونتيجة لهذا التضخم في عدد سكان الريف ، وازدياد عدد الفلاحين الباحثين عن مجال للعمل ، ارتفعت اسعار استثمار الاراضي ، اذ كان قسم لا بأس به من الاراضي ، ملكا لسكان المدن ، كما بيع قسم آخر الى اليهود عن طريق السماسرة ، او عن طريق اغنياء بيروت ودمشق . وبلغ مجمل ما بيع من الاراضي الى اليهود بعد الحرب حتى عام ١٩٢٩ حوالي ٤٥٠ الف دونم ، من اخصب الاراضي . ولعل تقرير سيمبسون احسن وثيقة تعطينا صورة واضحة عن بعض

مساحة الارض التي تقوم بزراعتها كل عائلة وبالتالي عن ارتفاع ايجار الارض . جاء في التقرير :

« وقد تناقصت مساحة الاراضي التي يمتلكها الافراد تناقصا مطردا حتى انني سمعت في كل قرية زرتها شكوى حول هذه النقطة ، ذلك ان بعض الاهالي اضطروا الى بيع بعض اراضيهم اما لتسديد ديونهم او لدفع ضرائب الحكومة او لاحراز نقد لسد رمق العائلة ، بينما يزداد نمو سكان القرى الآن بمعدل يفوق معدل نموهم اثناء الحكم التركي ويرجع ذلك ، بدرجة كبيرة الى الغاء القرعة العسكرية ، ولهذا فقد ازداد التزاحم على الارض وتقسيم الممتلكات بين افراد العائلة المتكاثرة .

... ان الايجارات آخذة الآن بالارتفاع ويتعذر على الذين يرغبون في الاستئجار ايجاد الارض . ولهذا يضطرون الى عرض ايجار لا يستطيعون في الغالب دفعه مع ابقاء فضلة لاعاشة عائلاتهم في مستوى لائق من المعيشة ، وقد رويت لي حوادث عرض فيها الفلاحون ٥٠ في المائة من المحصول على ان يدفع صاحب الارض هذه الضريبة . وقد نشأت ايجارات نقدية في بعض النواحي وهذه من النتائج المنتظرة لاستبدال الاعشار . وتتراوح هذه الايجارات النقدية بين ٥٠ مليما و ٢٥٠ مليما (اي شلنان الى ثلاثة شلنات) وقد ذكرت فيما سبق ان الدخل الاجمالي من المائة دونم المزروعة حبوبا بموجب الاسعار الحاضرة هو ٣٢ جنيها فاذا كان الايجار ثلاثة شلنات عن كل دونم يبلغ الايجار عن المائة دونم ١٥ جنيها اي ٤٧ في المائة من الدخل الاجمالي . وقد رويت لي حادثة بشأن

الاراضي الممتلكة التي يستعمرها اليهود ، ذلك ان الفلاحين المجاورين من العرب استأجروا من تلك الارض ٦٠٠ر٥ دونم ودفعوا لغاية ١٩٢٦ عشرين في المائة من حاصلات الارض ، ثم طرحت الارض في المزاد العلني فبلغ ايجارها ٢٦٠ جنيها في سنة ١٩٢٧ – ١٩٢٨ و ٢٠٠ جنيه في السنة التالية و ٥٢٥ جنيها في سنة ١٩٢٩ – ١٩٣٠ ، ولست اقصد بهذا الدلالة على فداحة الايجار في الوقت الحاضر ولكن ارتفاع الايجار اكثر من مائة في المائة خلال السنوات الثلاث الاخيرة انما هو اكبر دليل على شدة المزاحمة الواقعة على الاراضي »(٤) .

هذا من ناحية الايجار اما من ناحية الفوائد على المبالغ المستدانة ، اتضح للجنة سيمبسون ان فائدة ٣٠ بالمائة تعد فائدة معقولة ، اذا نظر الى الفوائد الاخرى خصوصا حسب قاعدة « العشرة خمسة عشر » اي كل عشرة جنيهات تسلف الى الفلاح يدفعها ١٥ جنيها في موسم الحصاد . وبالرغم من ان الحكومة حددت الفائدة ب ٩ بالمائة في السنة ، غير ان هذا القانون ظل حبرا على ورق ، اذ ان ارتباط الفلاح بالمرابي ، اصبح قويا بحيث اصبح متعذرا معه على الفلاح الادّعاء عليه ، لعدم وجود مصادر اخرى للاستدانة . فهو لا يستطيع العيش بدونه .

ويستدل من ابحاث اللجنة التي عينت لدراسة حالة المزارعين الاقتصادية عام ١٩٣٠ ، ان دخل الفلاح المالك هو ٢٠٠ر٣٥ ج.ف ، بينما دخل الفلاح المستأجر ٢٠ ج.ف . واما الحد المعيشي الادنى لعائلة من ٦ اشخاص فهو ٢٦ ج.ف .

٤ – تقرير سيمبسون ، ص ١٠٣ – ١٠٤ .

اي ان المزارع المالك يوفر ٢ جنيه في السنة بينما المستأجر يقع في عجز قدره ٦ جنيهات (جدول رقم ٢٦) ، ولما كان عدد العائلة الواحدة اكبر ، وكذلك اذا اخـذت المصروفات الاضافية للفلاح بعين الاعتبار ، واذا حسب تراكم الديـون والفوائد ، يتضح ان معدل ٢٧ جنيها فلسطينيا وسطيا دين كل عائلة ليس ببعيد . وهكذا يتبين لهذه اللجنة ان مجمل ديون الفلاحين عام ١٩٣٠ هو مليوني جنيه فلسطيني . قـد يكون الدين اقل من هذا نتيجة دخل اضافي للفلاح ، الا ان هذا الدخل غير ثابت ، كما ان البطالة كانت شديدة الوطأة في تلك الحقبة .

لقد كانت هذه الديون اكثر من امكانات الفلاح الحقيقية، كما ان الازمة السكانية والاقتصادية اخذت في الازدياد ، فنتج عن ذلك ان رفض الكثير من الفلاحين دفـع الديون ، وتمنع البعض منهم لعدم استطاعتهم دفعها فتبين لسيمبسون انه خلال شهرين من عام ١٩٣٠ صدر ٢٦٧٧ مذكرة حبس للفلاحين في جميع الوية فلسطين ، واستثني من الاجراءات ٥٩٩ شخصـا مديونـا في يافـا وحيفـا ، واتضـح له ان ٦٤ر٤ ٪ من العائلات الفلاحية في قضاء حيفا ـ البالغ عدد سكانه ٦٧ر٨٠٠ نسمـة ـ تشملهـم قـرارات الحجز او الاستدعاء .

واكد الخبير ستركلاند في بحثه حول ديون الفلاح عام ١٩٣١ : « ان قسما كبيرا من الفلاحين في حالة عجز تام ماليا وبأنه لا التسليف التعاوني ولا اي شكل من القروض الحكومية

يمكنهم من التغلب على عجزهم اذا كان لا بد من وفاء الديون بالقيمة التي يطلبها الدائنون » (٥) .

خففت الحكومة الضرائب المباشرة على الفلاح، خصوصا باحلال ضريبة الاملاك في القرى بدل العشر والويركو الاغنام، وتقسيم الاراضي الى ١٦ قسما حسب الانتاج . كما سعي الى انشاء التعاونيات وتنشيط التسليف الزراعـي ، الا ان معدل هذه التعديلات كان بطيئا ومحصورا ، وكذلـك كانت مساعدة البنك الزراعي العربي قليلة لانه لم يعمر طويلا. ونشط السماسرة في بيع الارض ، فكان مجموع ما بيع منهـا بـين ١٩٣٠ ـ ١٩٣٦ الى الصهيونيين حوالي ٢٤٧ الف دونم .

وبالرغم من ارتفاع اسعار الانتاج الزراعي خصوصـا انواع الخضار ، والتوسع في زراعتها ، ظلت حالة الفلاح على حالها ، وبدأ يرفض القدرية من هذه الناحية ويدرك انه انسان متساو مع الآخرين ، والارض ارضه ، ولا يقبل بالظلم ، كما انه اصبح متسلحا بوعي قومي متأجج .

٣ ـ ادرك الفلاح بعد الحرب العالمية الاولى ، انه الضحية الاولى للاستيطان الاستعماري الصهيوني ، الذي صمم على طرده من ارضه لاحلال شعوب غريبة مكانه ، حيث عـاش اجداده ، وحيث كافح ورضخ للظلم العثماني الجائر ، لتظل له ارضه تعيله ويتطلع في احضانها الى مستقبله، فقاوم في اوائل

---

٥ ـ حماده ، سعيد ، **المصدر السابق** ، عن حكيم ، جورج ، والحسيني ، محمد يونس : النظام النقدي الصرافي ، ص ٦٦٢ .

جدول رقم (٢٦)

كلفة الانتاج والمعيشة ودخل الفلاح والضريبة والديون

خلاصات مقتبسة من تقرير اللجنة التي عينت لدرس حالة المزارعين الاقتصادية المؤرخ في ٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٣٠

أ ـ كلفة انتاج مائة دونم حبوب

	ج.ف
ـ ما يصيب حيوانات الحراثة من النفقات السنوية	٢ر٠٠
ـ ادوات زراعية	١ر٠٠
ـ علف لحيوانات الحراثة	٧ر٠٠
ـ بذار	٦ر٥٠
ـ اجرة فعلة وعمال	٣ر٥٠
ـ نقليات للقرية	٢ر٠٠
المجموع	٢٢ر٠٠

ب ـ كلفة معيشة عائلة مؤلفة من ستة اشخاص

	ج.ف
ـ قمح وذرة	١٠ر٠٠
ـ زيتون وزيت زيتون	٣ر٠٠
ـ منتوجات اخرى من القرية	٤ر٠٠
ـ حاجيات من خارج القرية	٣ر٠٠
ـ ملبوسات	٥ر٠٠
ـ مصروفات عمومية	١ر٠٠
المجموع	٢٦ر٠٠

متوسط الدخل الصافي من ١٠٠ دونم من الزراعة على اختلاف انواعها

	ج.ف
من الحبوب	٣٩ر٠٠
من الاشجار المثمرة :	
اشجار الزيتون	٩ر٠٠
الاشجار الاخرى	٩ر٠٠
مجموع الدخل من الزراعة	٥٧ر٠٠
من المواشي والالبان والطيور	٧ر٠٠
المجموع	٦٤ر٠٠

	ج.ف
كلفة الانتاج	٢٢ر٠٠
الضرائب :	
العشر	٤ر٥٠
ويركو (ضريبة المنازل والاراضي)	١ر٨٠
ضريبة تعداد المواشي	٠ر٥٠
المجموع	٢٨ر٨٠
صافي دخل المالك المزارع	٣٥ر٢٠
بدل ايجار بمعدل ٣٠ ٪ من انتاج الزراعة اي ١٧ جنيها فلسطينيا بعد خصم ١ر٨ جنيه ويركو دفعها صاحب الارض	١٥ر٢٠
صافي دخل المستأجر	٢٠ر٠٠

المصدر : سيمبسون ، ص ٢٥٥ .

ملحوظة : ان الارقام المذكورة اعلاه ليست الارباح الصافية اذ اننا لم نذكر اتعاب المزارع وعائلته . وتركنا ايضا كلفة جمع اثمار الزيتون وكلفة اطعام وسقي المواشي .

الانتداب ، اعتداءات الصهيونية واظهر تمسكه بأرضه ، بمحاربته للمستعمرات الجديدة، وبتأييده للزعماء في رفضهم للاستعمار البريطاني ووعد بلفور . وبعد سنة ١٩٢١ بدأت حركة المقاومة العربية تتضاءل عامة الا تلك المقاومة التي اظهرها الفلاحون العرب سكان الاراضي المباعة الى الصهيونية. رفض سكان مرج بن عامر عام ١٩٢٥ ترك ارضهم بعدما باعتها عائلة سرسق الى الصندوق القومي اليهودي، فاستعمل البوليس الاستعماري القوة ضدهم ، واخرجهم عنوة ، واعيد تمثيل نفس المأساة ، مع فلاحين آخرين في مناطق اخرى .

تجاسر الفلاحون وهجموا على المستعمرات الصهيونية خلال عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ ، وقدموا مئات الضحايا ، تجاوبا مع الجو الحماسي الكبير والوعي القومي المتزايد ، الذي رافق دخول الجيوش العربية دمشق واكثر مناطق سوريه الشمالية، واعلان الدولة العربية هناك، وظهور الوحدة الوطنية وتماسكها في فلسطين ، وتأثير المؤتمرات الفلسطينية المتلاحقة على بلورة الاندفاع الوطني ، والتعبير عنه في المواقف الثورية الدموية .

بدأ الوعي القومي لدى الجماهير الشعبية يظهر ، كما ذكرنا في الفصل الاول ، مع انتشار اخبار التنكيل بالشباب العربي خلال الحرب ، واعلان الثورة الهاشمية ، ولم يكن هذا الاهتمام ، قد ظهر بعد حين وقف الامير فيصل خطيبا في حلب عام ١٩١٨ ، يقول : « والسواد الاعظم من الشعب لا يفقه معنى الوطنية والحرية ولا ما هو الاستقلال حتى ولا ذرة

من هذه الامور » (٦) . ولكن في خلال سنتين تغيّر الوضع ، وذلك نتيجة الاحساس بالوجود العربي الجديد، واهتمام الشباب العربي ، خصوصا الافراد الملتزمين منه في حزب الاستقلال ، بتوعية الجماهير للمفهوم القومي، وبدأت الجماهير تدرك وجود رابطة متمايزة عن الرابطة الدينية واوسع من الرابطة العشائرية . كما بدأت الجماهير تميز بين وطني وخائن (٧) .

في الجو الوطني ، الذي عرفته السنين الاولى لعهد الانتداب ، وجد الفلاح مناسبة له لاظهار مأساته ، ولكن في السنين التالية بعد جمود في الحركة الوطنية ، لم يكن باستطاعة الفلاحين، اظهار سخطهم الجماعي، اذ كانوا يفتقرون الى تنظيم يمثل مصالحهم . فالتنظيم الوحيد الذي يعرفونه، هو بقايا العلاقات الاقطاعية القديمة التي ما تزال ماديا ومعنويا منتشرة في الريف ، ولكنهم اصبحوا قانونيا متحررين منها ، كما ان ظهور الوعي وبدء انتشار التعليم ، ساهما في الاسراع في تحررهم الفعلي . وامام عجز الحركة السياسية العربية، التي شجعها فتور الحركة الصهيونية النسبي بين ١٩٢١ و ١٩٢٨ ، وقف الفلاح حائرا ، ضعيفا بالرغم من قوته العددية وانتشار السخط ، قبل التشرد على مضض ، ولكن حادث البراق عام ١٩٢٩ ، وما نتج عنه من تمرد في المدن خصوصا في القدس ، امده بالشجاعة الكافية للانتقام من الصهيونية

---

٦ ــ العياشي ، غالب : **تاريخ سوريه السياسي** (١٩١٨ ــ ١٩٥٤) بيروت ١٩٥٥ ، ص ١٩ .

٧ ــ مراجعة : داغر ، اسعد : **مذكراتي على هامش القضية العربية** ، القاهرة (دون تاريخ) .

فهاجم المستعمرات ، غير عابىء بالتضحيات ، اذ بلغت خسائر العرب ٣٥١ قتيلا و ١٥٠٠ جريح . وادركت لجنة شو ، التي عهد اليها بالتحقيق في الحوادث ، ان السبب المباشر قد يكون الدفاع عن البراق والاحتجاج على تجدد نشاط الصهيونية ، الا ان السبب الحقيقي هو سخط العرب وخصوصا الفلاحين على بيع الاراضي وتشرد عشرات الالوف منهم ، ولذا حذرت من الابقاء على هذه السياسة ، وتشريد مزيد من الفلاحين (٨) . كما ان تقرير الخبير سيمبسون وجّه الاضواء على اسباب اخرى لسخط الفلاحين العرب اهمها الديون والحبس .

وادرك الشهيد عز الدين القسام ، ان محاربة الصهيونية والاستعمار لا تكون بالانتفاضات العفوية ، بل بعمل سري طويل الامد ، ولذا بدأ منذ عام ١٩٣٠ ، ينظم الفلاحين المشردين الملتجئين الى حيفا ، في حلقات جهاد سرية ، تقوم بهجمات على المستعمرات اليهودية انتقاما للتشريد ولاعتداء الفرق اليهودية المسلحة على العمال العرب في القطاع الاقتصادي اليهودي . وسعى الى تنظيم الفلاحين وايجاد قواعد للحركة في الريف . كما ان الجو السياسي العام وظهور تنظيمات الشباب والاحزاب ، وازدياد الخطر الصهيوني من هجرة وشراء الارض ، عوامل ساهمت في دفع العزيمة للجهاد لدى الفلاحين ، فقاوم عرب الحوارث قرار طردهم ، وقتل

٨ — مراجعة : Report of the Commission on Palestine Disturbances of August 1929, London 1930, Comd 3530, P. 124.

عدة اشخاص منهم قبل ان يرضخوا لقرار الاجلاء . ووجدت مقاومتهم صدى عنيفا لدى الشعب العربي الفلسطيني ، يحذرهم من مصيرهم الاليم .

كان من نتيجة ازدياد النشاط الوطني في المدن وادراك الفلاحين ان عليهم مباشرة مقاومة سياسة التشريد ، ان قوّي الوعي القومي والاجتماعي لديهم . وبدأوا يشعرون بالثقة بالنفس ، ويقدرون قوتهم الذاتية . ولم يطل انتظارهم طويلا بعد اعلان الاضراب الشامل عام ١٩٣٦ ، ليبدأوا النضال ويكوّنوا العصابات ، ويتوسعوا في محاكمة السماسرة والخونة ويعدموا قسما منهم . لقد كانت ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ حقا ثورة فلاحية كما جاء في البدء . اظهر القرويون حقيقة سخطهم على الاستعمار البريطاني والمستعمرين الصهيونيين ولم يوقفوا الثورة نتيجة لنداء الملوك والامراء واستجابة لقرار اللجنة العربية العليا ، بل لان تنظيمهم الشعبي — العسكري كان عاجزا ، عن تحمل اعباء ، ثورة طويلة الامد . فلم تتوفر الطليعة الثورية ، المخططة للثورة المدركة لقوانين الحرب الشعبية ، والمستوعبة لقوة العدو ولجسامة التضحية . لقد اكد الوجه الفلاحي العمالي للثورة على :

اولا : ان القيادة والطبقات البرجوازية ، تنظر الى الثورة في حدود مصالحها ، وتقبل الحلول الوسطية ، اذا تجاوبت مع هذه المصالح ، ولم تكن تطمح الى اكثر من حكم ذاتي ، ولذا قبلت بوقف الثورة عام ١٩٣٧ ، مطالبة امام لجنة بيل حكما مماثلا للحكم الموجود في العراق بل وضمنيا اقل ، ولكن بشرط ان يحقق امرين هما الغاء وعد بلفور ومنع الهجرة والاعتراف للاكثرية العربية بحقوقها .

بينما كان الفلاحون يدركون ، ان السماسرة ليسوا فقط من العرب غير الفلسطينيين بل من العرب الفلسطينيين ايضا ، ويعرفون تمام المعرفة ، ان المرابين منهم يستغلونهم ابشع استغلال كما جاء سابقا . نرى زمرة السماسرة والمرابين تحشد قواها مع الطبقة الاقطاعية في الريف ، للغدر بالمرحلة الثانية من الثورة ، اي في سنتي ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ . اذ ادركت هذه الزمرة ان الثورة الفلاحية ، تسعى لتصفيتها تماما بطريقة مباشرة او غير مباشرة .

ثانيا : لم تستطع حلقة القسّام ، بسبب صغر حجمها ومقتل موجهها ، ايجاد نمط جديد للتنظيم الشعبي، غير الذي تعرفه الجماهير، اذ ان الجماهير لا تعرف الا النمط التنظيمي التقليدي الموروث من عصر الاقطاع ، حيث كان الاقطاعي يتزعم الجماهير الثائرة. ولذا كان الفرد في هذه الثورة محور الجماهير الثائرة ، اكتسب القيادة بشجاعته وسطوته . واصبح هكذا حاكما مطلقا ، يقرر كل كبيرة وصغيرة ، على النمط الاقطاعي القديم او النظام القبلي ، من حيث وظيفة شيخ المنطقة او شيخ القبيلة . فلم تكن هناك قيادة جماعية تقرر خطة العمل وتدير شؤون المنطقة ديموقراطيا نسبيا ، لذا نشأت مع التوسع الجغرافي للثورة ، قيادة سياسية ـ جغرافية تضم زعماء العصابات ذوي النفوذ القوي ، ولم يكن من الهين توحيد عمل هؤلاء القادة . كما ان القادة الثانويين كانوا يطمعون بنفوذ مماثل لرئيسهم . ولم يكن باستطاعة القواد الكبار ، توجيه بعض ضباطهم ، اذ اصبحوا من القوة، بحيث يصعب على القائد الكبير التأثير المباشر على هؤلاء المساعدين ، لذا كان عليه القول بالامر الواقع خوفا من تقلص

نفوذه الرسمي ، وقد بذل قسم من هؤلاء القواد ارواحهم في سبيل القضية العربية ، وكانوا مثال التضحية والاستقامة ، الا انهم كانوا اسرى الصورة التنظيمية التي عرفوها او استمعوا اليها من ابائهم .

ليس معنى ذلك انهم كانوا يؤيدون النظام الاقطاعي او يدعمون النظام العشائري، بل كل ما في الامر ان قيمهم ومستواهم الفكري ، لم يفسح لهم المجال لاستكشاف انماط جديدة للتنظيم الثوري توفر، مقدرة ثورية قادرة على النمو والصمود .

ب ـ حالة الفلاحين بعد الثورة الكبرى حتى عام ١٩٤٨

١ ـ توازيا مع الزيادة السكانية في المدن ، توسع القرويون العرب في زرع الخضار ، فارتفع الانتاج وسطيا من الف طن بين ١٩٢١ ـ ١٩٢٦ الى ٦٠ الف طن بين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٨ (٩) ، غير ان الزيادة الكبرى حصلت خلال الحرب . وقبل ذكر ارقام الزيادة خلال الحرب، يجب التنويه الى معنى زراعة الخضار .

ان علاقة منتج الخضار مع السوق ، غير علاقة منتج الحبوب مع ذلك السوق ، اذ يبيع الاخير عن طريق الوسيط، كما ان عدم الاستقرار في الانتاج نتيجة الاحوال الجوية ، وكذلك نتيجة الدين المتراكم سابقا ، يجعل المزارع يرتبط بالمرابي الذي يكون تاجر الحبوب الوسيط في نفس الوقت .

٩ ـ Nathan, R.; Gass R.; Greamer D. : **Palestine : Problem and Promise,** Washington, 1946, p. 198.

ولذا يوجه هذا الوسيط انتاج المزارع . اذ ان زراعة الحبوب في فلسطين كما هي الحال في سوريه والعراق ، ترتبط بالاحوال الجوية ، فالسنين الممطرة تجلب معها زيادة في الانتاج ، ويتقلص هذا الانتاج في سني القحط . ولذا لا يتوفر مجال كبير لتحسين الانتاج خصوصا في هذه الحلقة في العلاقات الانتاجية (مزارع ـ وسيط (دين) ـ سوق) . ولا ننسى ان مجال الحركة في تسويق وتخزين الحبوب اقل بكثير من الخضار .

وبالعكس من ذلك ، فزراعة الخضراوات لا تحتاج الى وسيط الا نادرا ، فعلى المزارع التوجه مباشرة شطر السوق ، والتعرف مباشرة على احوال العرض والطلب ، فيتأثر مباشرة بها ، وعليه ان يكون حركيا في انتاجه ، يستفيد من الظروف الجديدة ، كما ان ظروف حياته تتطور مع زيادة الارتباط بالسوق ، ومن المستطاع تحديد ظروف التغيّر في حياته بالنقاط الآتية :

أ ـ الارتباط بالسوق ، او بالاحرى الارتفاع الكبير في نسبة الانتساب الى حلقة الاقتصاد المالي ، اي ان قسما كبيرا من معاملات الفلاح اصبحت داخله مباشرة في الاقتصاد المالي اي النقدي ، بينما كان في السابق مرتبطا بالاقتصاد العيني ، اي تبادل المنتوجات . ولذا اصبح عنده الآن دخل مالي نقدي ، يساعده على دفع الديون ، وزيادة راسماله واستهلاكه المعيشي .

ب ـ اصبح الفلاح ، يدقق في مطالب سوق المدينة ، ويتحتم عليه اذن الاستفادة من الطلب الكمي والنوعي ،

ومراقبة انتاج زملائه . فيتقبل هكذا التحسينات في طرق الانتاج والتسويق . كما يسعى الى زيادة الاستثمار في ارضه ، فيوسع الارض المسقية ، لزيادة انتاجية حقله .

ج ـ يرتبط الفلاح بالمدينة ، ويتأثر بحضارتها ويسعى الى اقتناء سلع جديدة يحسّن معها حياته ويهدف الى التقرب ايضا من حضارتها .

كان من نتيجة زراعة الخضروات ان ازدادت عوامل التحديث ولم تكن هذه الزراعة وحدها تؤثر على الفلاح ، اذ ان كل ارتباط بالسوق والاقتصاد المالي النقدي يولد نفس التغيير ، ولكن هذا التغيير حتمي لدى مزارعي الخضراوات ، اذ توفر زراعة الخضراوات سرعة اكبر لاكتشاف الظروف الجديدة والحضارة الجديدة ، ولكن في اطار الانتاج القروي الصرف . بينما العمل الموسمي في المدن ، او عمل افراد من العائلة الفلاحية في المدن او في القطاع الحديث عامة ، يولد ظروفا حضارية قد تكون اكبر من ظروف مزارعي الخضراوات .

جدول رقم (٢٧)

زراعات الخضراوات من سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٤٥

	المساحة كم٢	الانتاج (بالطن)
١٩٣٩	١٣٨٫٦	١٢٩٫٣٧٣
١٩٤٢	٢٢٧٫٤	١٩١٫٢٢٦
١٩٤٥	٢٧٩٫٩	٢٤٤٫٨٣٤

المصدر : Survey I. 1946, P. 326.

ونتيجة للحرب ارتفع انتاج الخضروات لدى العرب بشكل هائل . اي في خلال ست سنوات تضاعف الانتاج وتضاعفت المساحة المزروعة . وفي نفس الوقت وسع الفلاحون ، تجاوبا مع السوق، انتاج المزارع المكثف من الانواع الاخرى مثل الانتاج الحيواني والاشجار المثمرة غير الحمضيات التي تتلاءم مع زراعة الخضراوات . فارتفع عدد رؤوس القطيع من معدل ١٢٠ الف بين ١٩٣٣ — ١٩٣٨ الى ٢١٥ الف بين ١٩٣٩ — ١٩٤٣ .

ولم يقابل ذلك توسع في زراعة الحبوب ، بالرغم من ارتفاع اسعارها ، بل شاهدت هذه الزراعة انخفاضا بسيطا. والسبب ناتج عن متطلبات انتاج المزارع المكثف ، وانخفاض نسبة البطالة المقنّعة في الريف الفلسطيني ، انعكاسا لمتطلبات اقتصاد الحرب ، خصوصا خدمة الجيوش البريطانية في المنطقة .

ونتيجة لظروف الحرب ، ارتفعت اسعار انتاج المزارع العربية من ١٠٠ بالمائة عام ١٩٣٩/٣٨ الى ٥٦٠ بالمائة عام ١٩٤٤/٤٣ اي اكثر من اربعة اضعاف ونصف . وارتفع الدخل الزراعي من ٥ر٥٩ مليون ليرة فلسطينية عام ١٩٣٥ الى ١٩ مليون ليرة فلسطينية عام ١٩٤٣ . ودلت الابحاث انه في حال بقاء المستوى المعيشي للفلاحين على ما كان عليه عام ١٩٣٩/٣٨ ، كان صافي الربح عام ١٩٤٣ ثلاثة ملايين ليرة فلسطينية (١٠) .

---

١٠ — مراجعة: Nathan, Gass, Greamer ، **المرجع السابق** ، ص ٢١٣ — ٢١٤ .

٢ — ساهم الازدهار في الاقتصاد الزراعي في زيادة تصميم الفلاح على تحسين مستوى حياته المادية والاجتماعية، فعمد الى زيادة مساهمته في التحويل الجماعي لمشاريع المعارف ، وارسال اولاده الى المدن القريبة لاكمال دراستهم الثانوية ، وذلك بوضعهم في بيوت النزلاء الملحقة بالمدارس في المدن ، وساعده على الذهاب يوميا الى المدينة ، وخصوصا ان القرى الفلسطينية ليست بعيدة عن المدن ، بل يتوسط كل منطقة ريفية مدينة ، وعدد المدن العربية او المختلطة ٢٠ مدينة في فلسطين. وبسبب هذا الانفتاح الكبير على الحضارة الجديدة، بدأ التغيّر في قيم وتفكير ومسلك الفلاح. فارتباطه بالوجود التقليدي من قيم ومجتمع بدأ ينحل بسرعة تتجاوز شعوره الماضي، فبدأ يتحرر من التفكير الديني المغلق ، ويدرك ان عليه التحلّي بقيم جديدة ، تتلاءم والمستوى الحضاري المادي الذي يعيشه وتتجاوب مع الآمال التي يبني عليها لتأمين مستقبله وتحسين احواله ، كما ان وعيه القومي والاجتماعي بدأ يؤثر لا شعوريا على تصرفه . ونظرا لعدم توفر توجيه جماعي للنضال الشامل ، وحتمية مجابهة معركة الحياة او الموت، تولد لديه رد فعل كان من نتائجه تحسين حالته الاجتماعية ، لمواجهة التقدم الحضاري الصهيوني .

كما ادرك الفلاح العربي ، ان النمط التنظيمي الذي عاشه في ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، غير ملائم لكسب المعركة ، التي خرج منها ضعيفا ، وقد زاد من هذا الضعف التسلط الاستعماري البريطاني ، الذي سعى بقسوة فظيعة الى تجريد الشعب من السلاح ، ومطاردة زعمائه وسجن كل من وقع منهم بين يديه ، ومنع اي نشاط سياسي عربي . فكان على

الفلاحين الانتظار حتى مجيء عبد القادر الحسيني بعد الحرب العالمية الثانية ، للانخراط تحت لواء جيش الجهاد المقدس ، الذي كان تنظيما نضاليا اعلى مستوى من تنظيم الثورة السابقة ، ومثّل التحاما اكثر بين الفلاحين والمثقفين الثوريين والعمال في سبيل الدفاع عن ارضهم وشعبهم .

واكدت تجربة التعاونيات في اواخر الثلاثينات واوائل الحرب ، وكذلك الانضمام الكبير للحركة العمالية بعد سنة ١٩٤٢ ، ان المجتمع الريفي بدأ يستوعب القيم الجماعية ، بل بدأ يتخطى قيم المجتمع التجاري ، ليجد لنفسه قيما جديدة تتخطى الفردية ، بل وسعت الحركة النقابية العمالية العربية الى تنظيم الفلاحين نقابيا وتعاونيا وظهرت بعضها نتيجة هذا المجهود ، الا ان الظروف التي تلت الحرب ، لم تساعد على بلورة هذا الاتجاه الجديد، فبسبب عدم وجود الكادر الكافي، وبسبب المرحلة النضالية الجديدة ، التي فرضتها الصهيونية على الشعب العربي الفلسطيني ، لم تستطع الحركة النقابية تحقيق هدفها ، وجاءت النكبة والتشتت ، لتجمد هذا العمل الجديد . وسيأتي ذكر بعض هذه العوامل في الفصل الاخير .

ثانيا : الطبقة العمالية وبروز الحركة النقابية الفلسطينية

١ ــ خلال عهد الانتداب نمت الطبقة العمالية الحديثة، ليس بفضل هذا الحكم بل بسبب حتمية التطور التحديثي ، الذي بدأ منذ اوائل هذا القرن ، واخذ بعد الحرب صورة اشمل واعمق . ليس من التناقض العلمي تحديد الطبقة العمالية بصورة مختلفة عن تلك التي حددت بها في الفصل الاول ، **حيث حددت الطبقة العاملة : « المجموعة السكانية ،**

من غير المهن الزراعية ، التي تعمل يدويا ضمن نطاق النظام الاقتصادي المتطور » ، فلذا الحق العمال الزراعيون بطبقة الفلاحين ، وألحق الموظفون في القطاع الحديث : الرسمي والخاص بالطبقة البرجوازية الصغيرة . وقد عمد الى هذا التحديد بسبب النظام والوضع الاقتصادي اللذين كانا سائدين .

ولكن هذا التحديد لا يتلاءم مع التطور الذي حصل بعد الحرب ، اذ نما القطاع الحديث بشكل واسع ، بحيث ان القطاع التقليدي المنعزل الذي كان ذا طابع اقتصاد عيني او طبيعي ، تضاءل حتى وصل الى حد التلاشي خلال الحرب العالمية الثانية . ولذا يحدد العامل في الفصل الحالي ، كل فرد يعمل بأجر (يومي ــ اسبوعي ــ شهري ...) وليس له وظيفة اشراف على غيره من الاجراء . اي لا يمثل صاحب العمل تجاه الاجراء الآخرين . ونتيجة لهذا التحديد يلحق جميع الموظفين الصغار في هذا التحديد ، وكذلك العمال الزراعيين بهذا التصنيف ، ويستثنى منه الحرفيون في القطاع الحديث، ذوي الرأسمال العالي نسبيا والذين يشرفون على عدد من العمال . فهؤلاء الحرفيون سيدخلون في تصنيف البرجوازية الصغيرة ، بل ان قسما منهم سيصل الى مراكز البرجوازية المتوسطة ، تناسقا مع التطور الاقتصادي ، مثلا اصحاب ورش تصليح السيارات او صنع هياكل السيارات، او بالاحرى تلك الحرف التي تطورت لتصبح قسما من الصناعة الحديثة . وعلى نقيض ذلك سيظل قسم من اصحاب الحرف التقليدية والمشرفين على عمال آخرين قسما من الطبقة العاملة، بسبب الضعف الرأسمالي لوحدة الانتاج وتساوي الاعضاء ، خصوصا عدم وجود تفاوت كبير في الدخل .

انسجاما مع الهدف الاصلي ، الذي حدد لهذا البحث، سيعتنى في هذه الفقرة بمعرفة ابعاد عملية التحديث لدى الشعب العربي الفلسطيني ، ويمثل العمال ، احدى المؤشرات الاساسية ، لمعرفة التغيير النوعي – هيكليا ومسلكيا – في الجسم الاجتماعي للشعب الفلسطيني . لن نتحدث مباشرة عن التناقض الطبقي بل سنتحدث عن تطور الوعي لدى العمال، لمشاكلهم الفردية والجماعية والقومية ، ليس تجنبا لهذا الموضوع ، بل لان هدف هذا البحث معرفة اسباب عدم ظهور التفكير العلمي الثوري في النضال السياسي الفلسطيني ضد المؤامرة الاستعمارية العنصرية .

تبين لنا في الفصل الاول والثاني ، ان المجتمع التجاري الحديث والسياسة الاستعمارية ، يسعيان الى احلال قيم الفردية والاتكالية على المجتمع الفلسطيني ، ففي هذه الفقرة نكمل ما بدأناه في الفقرة السابقة عن الفلاحين، الى استكشاف بذور نشوء التفكير الجماعي الديناميكي ، اي التحرر من الروابط العشائرية التقليدية والمبنية على الديموقراطية الشعبية والتعبئة الايديولوجية للجماهير . فمحور الاستكشاف هنا سيكون في تحليل نشوء الحركة العمالية الفلسطينية ومشاكل نموها ، وتأثيرها على محيطها . ولكن علينا قبل ذلك معرفة شروط نمو هذه الحركة :

– النمو الكمي والنوعي للطبقة العاملة .

– المشاكل الاجتماعية لهذه الطبقة .

٢ – يوضح الجدول رقم ٢٨ التغير الهيكلي في تقسيم القوى العاملة العربية خلال عهد الانتداب ، وبالرغم من أن

ظروف الحرب كانت استثنائية ، الا ان التطور الاقتصادي الفلسطيني ، والازدهار في الحركة العمالية العربية ، ومجيء النكبة بعد الحرب بقليل ، كل هذا يجعل لهذه المرحلة اهمية مميزة . وقد يكون تعداد عام ١٩٣١ ، لا يعطي صورة واضحة لاول عصر الاستعمار الانجليزي في فلسطين ، غير انه نسبة للوضع في العشرينات وانطلاقا من معلومات الفصل الاول ، نستطيع الاعتماد عليه لتوضيح التطور خلال عهد الانتداب .

جدول رقم (٢٨)

تقسيم القوى العاملة في عامي ١٩٣١ و ١٩٤٥

	عام ١٩٣١ (١)		عام ١٩٤٥ (٢)	
	عدد الاشخاص بالالاف	النسبة	عدد الاشخاص بالالاف	النسبة
الزراعة وتربية الحيوانات والصيد والاحراش	١١٣ر٢٠	٥٣ر— ٪	١٥٢ر—	٥٠٪
الصناعة والحرف	١٨ر٨٠	٨ر٧ ٪	١٩ر—	٦ ٪
العمار والبناء	٧ر—	٣ر٣ ٪	٢٠ر—	٧ ٪
المدنيون في شؤون الدفاع	–	–	٢٠ر—	٧ ٪
الفرق الفلسطينية	–	–	٣ر—	١ ٪
المواصلات والانباء	١٢ر٧٠	٦ر— ٪	١٤ر—	٥ ٪
مؤسسات تجارية فنادق مطاعم ومقاهي	١٦ر٨٠	٨ر— ٪	٣١ر—	١٠٪
الحكومة والبلديات	١٢ر٥٠	٦ر— ٪	٣٢ر—	١١٪

(تابع) جدول رقم (٢٨)

غير مصنف	٣١ر٠	ـــر١٥ ٪	ـــر١٢	٤ ٪
مجموع	٢١٢ر٠	ـــر١٠٠٪	ـــر٣٠٢	١٠٠٪

المصدر : ١) مراجعة :
Census of Palestine 1931 II, p. 282-300
٢) مراجعة :
Asfour E. : **The Economic Framework of the Palestine Problem**, p. 321
في كتاب
Polk : **Backdrop to tragedy**, Boston 1957 p. 321.
عن كتاب
Loftus, P. J. : **The National Income of Palestine 1945**, Jerusalem 1948.

ان الصورة التي يقدمها الجدول رقم ٢٨ اولية ، اذ لا تعطي صورة واضحة لمدى اتساع القطاع الحديث ، اذا بني التقسيم على اساس النشاط الانتاجي وليس على الانتاجية نفسها ، فمثلا قطاع الصناعة والحرف ، يحتوي على الحرفة التقليدية والسائرة نحو الزوال ، وكذلك الامر مع قطاع المواصلات ، اذ يحتوي على وحدات المواصلات التقليدية (عربات خيل وما اشبه ذلك) . ولذا يعطي هذا الجدول صورة بيانية اولية . ولكنه يكفي لادراك مدى التحول الذي طرأ على العمالة خلال الـ ١٥ سنة التي يحدها هذان الاحصاءان .

اولا : نمو العمالة في القطاعات الجديدة ، مثل القطاع الحكومي البناء .. **وانخفاض نسبة العمالة في القطاعات**

التقليدية (زراعة ــ الحرف التقليدية ــ خدم وحمالين من فئة غير المصنفين) .

ثانيا : زيادة النسبة المئوية للعمالة في قطاع الخدمات، خصوصا الخدمات في القطاع الحديث (دوائر حكومية وبلدية ــ اشغال عامة ــ الجيش البريطاني ــ العمار والبناء)، على حساب القطاعات الانتاجية .

ثالثا : ارتفاع نسبة العاملين مباشرة في قطاع الحرب ، اي ان قطاع الحرب خفض نسبة البطالة المقنعة ، وساهم في رفع الانتاجية في القطاعات الاخرى .

لا تكفي هذه الصورة الاولية لاعطاء تفسير كامل للتطور خلال عهد الانتداب ، بل يجب تحليل التغيير الحقيقي في هيكل العمالة ، كما ان تعداد العمالة في قطاع الحرب لا يعطي الصورة الحقيقية التي شهدتها فلسطين خلال تلك المدة .

من خلال الابحاث السابقة نستطيع تحديد التطور الآتي للاقتصاد العربي في فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية .

١ ــ دعم الاقتصاد التجاري من قبل حكومة الانتداب، لصالح السلع المستوردة على حساب السلع التقليدية ، واستفادة الطبقات البرجوازية خاصة والمدن عامة من هذا النظام الاقتصادي .

٢ ــ زيادة البطالة المقنعة نتيجة الزيادة السكانية في الريف ، وصغر حجم المساحة المزروعة عند العرب ، نتيجة شراء الاراضي من قبل الصهاينة .

٣ ـ زيادة البطالة الفعلية ، نتيجة تدهور الصناعة التقليدية ، وطرد العمال العرب من المزارع والمعامل اليهودية، ومزاحمة الصناعة اليهودية ، للصناعة العربية التقليدية .

٤ ـ توسع العرب في زراعة الحمضيات والاستفادة من السياسة التشجيعية التي سلكتها حكومة الانتداب تجاه الانتاج اليهودي .

وجاءت ظروف الحرب ، لتجبر حكومة الانتداب الى التغيير من سياستها وتشجيع الانتاج المحلي . ولكن مرحلة ما قبل الحرب ، كانت مرحلة صعبة للجماهير العمالية ، وقد تكون البطالة قد تضاءلت كثيرا خلال الحرب الا ان دخل العامل لم يتحسن كثيرا .

تحدثنا في الفصل الاول عن تدهور الصناعة التقليدية، واصبح هذا التدهور بعد الحرب الاولى كارثة ، اذ ان دخول السلع الحديثة سوق فلسطين وتقبل الناس لهذه السلع وما نتج عنه من تغيير في الاستهلاك ، اجبر العديد من المصانع على اقفال ابوابها ، وترك العديد من الحرفيين لعملهم ، كما ان السياسة الاقتصادية الاستعمارية، اقفلت ابواب الاسواق العربية المجاورة امام الصناعة الفلسطينية التقليدية . ويؤكد تقرير سيمبسون هذا الوضع : « وفي الوقت ذاته لا ريب ان البطالة منتشرة بكثرة في الوقت الحاضر بين الصناع والعمال العرب » (١١) . وتفاقمت الحالة بعد عام ١٩٣٠ ، اذ بدات العصابات الصهيونية بتشريد آلاف العمال العرب

---

١١ ـ سيمبسون ، ص ١٩٢ .

لتشغيل العمال اليهود مكانهم ، واكثرهم من المهاجرين الجدد.

ونتج عن هذا الوضع انخفاض في الاجور نتيجة المنافسة الكبيرة بين العمال . ولتكوين صورة واضحة عن الوضع من مصادر اصلية ، يستحسن الاعتماد على تقرير سيمبسون عام ١٩٣٠ وشهادة جورج منصور امام اللجنة الملكية عام ١٩٣٧ .

يقول الخبير سيمبسون في تقريره :

« امام هذه المعلومات المستقاة من مصادر مستقلة لا مناص لنا من الاستدلال بأن البطالة بين العرب في الوقت الحاضر اصبحت من المظاهر الخطرة في حياة البلاد الاقتصادية ولقد عرض علي اناس معلومات كثيرة من تلقاء انفسهم عن حالة اجور العمال من العرب فظهر لي ان البطالة قد اثرت في مستوى المعيشة ، وهذا امر طبيعي بين العمال غير المنظمين . ويستدل من هذه المعلومات ان اجرة الصناع الحاذقين والنجارين والنحاتين قد انخفضت نحو ٥٠ بالمائة واصبح الصانع الماهر يشتغل بـ ١٥ غرشا الى ٢٠ قرشا في اليوم (اي ثلاثة شلنات الى اربعة شلنات) اما العامل الفلاح فيقتنع بثمانية الى عشرة قروش (اي شلن و ٨ بنسات الى شلنين) وقال لي حاكم مقاطعة القدس ان اسعار العطاءات لمناقصات بلدية القدس في سنة ١٩٣٠ كانت نصف اسعار سنة ١٩٢٩ وقد نجم هذا النقصان بالاكثر عن سقوط اجرة العامل العربي . ومن يسمع اقوال العمال العرب يتأثر لاحوالهم ويرثى لهم فقد كان كثيرون منهم في الايام السالفة يتمتعون بقسط وافر من البحبوحة والرخاء فساءت احوالهم في السنوات

الاخيرة (١٢) » .

واما شهادة النقابي جورج منصور فكانت دقيقة وشاملة ، تعطي صورة محزنة لوضع الطبقة العاملة الكادحة :

« فقد قمنا باحصاء آخر فيشهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٦ لألف عامل في يافا لمعرفة معدل دخل العامل الشهري فحصلنا على النتائج الآتية :

٥٧٠ عاملا دخل العامل منهم الشهري يقل عن ٢ر٧٥٠ جنيها
٢٤٥ عاملا دخل العامل منهم الشهري يقل عن ٤ر٢٥٠ جنيها
١٢٠ عاملا دخل العامل منهم الشهري يقل عن ٦ر٠٠٠ جنيه
٤٥ عاملا دخل العامل منهم الشهري يقل عن ١٠ر٠٠٠ جنيه
١٥ عاملا دخل العامل منهم الشهري يقل عن ١٢ر٠٠٠ جنيه
٥ عمال دخل العامل منهم الشهري يقل عن ١٥ر٠٠٠ جنيه

وهؤلاء الخمسة الآخرون هم من عمال السكب الفنيين الذين قضوا نحو ٢٠ سنة في عملهم . وقمنا بأحصاء آخر لمعرفة نسبة المديونين فوجدنا ان ٩٥ بالمائة من العمال مديونون اما لاصحاب الاعمال او لاصحاب الحوانيت .

وقد نزلت اجور عمال الصناعات الوطنية ، فان عمال صناعة الاصواف كانوا يتقاضون من ٢٥٠ — ٦٠٠ مل في سنة ١٩١٩ واستمرت هذه النسبة في الاجور الى سنة ١٩٢٥ ثم غدت الآن من ٨٠ — ١٣٠ ملا بموجب شهادة اصحاب معامل الاصداف في بيت لحم .

وان عمال المصابن يتقاضون اجورهم على (الطبخة)

١٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٩٤ .

وكانت تتراوح من ٢٥٠ — ٥٠٠ مل فأصبحت الآن لا تزيد عن ١٢٠ ملا مقابل عمل في الليل والنهار .

وقد تساءلنا كيف يمكن للعامل ان يتدبر امر معيشته رغم ضآلة هذه الاجور فوجدنا ان في العائلة عددا من الافراد المنتجين وهؤلاء جميعا يتعاونون في الانفاق على البيت واذا كانت العائلة خلوا من الافراد المنتجين فان المرأة واطفالها يشتغلون خدما في البيوت واجرة المراة الشهرية تبلغ من جنيه الى جنيهين والولد من ٢٥٠ ملا الى جنيه .

ورغم هذه الوظيفة فان طبقة العمال في حالة بؤس وفقر عظيمين ويسكن القسم المعدم منها في اكواخ حقيرة جدا خالية من الوسائل الصحية كافة مصنوعة من الخشب او التنك وتتراوح اجرتها بين ٣ — ٥ جنيهات سنويا ، والفئة الاحسن حالا تسكن في اطراف المدينة في اكواخ حجرية اجرتها السنوية من ٥ — ١٠ جنيهات ولا تعرف عاملا يستأجر دارا تزيد اجرتها السنوية عن ثمانية عشر جنيها .

ومن اوراق الانتساب التي لدينا ظهر لنا ان الامية منتشرة انتشارا بنسبة ١٣ ٪ ومن هؤلاء نحو ١٤ ٪ يتمكنون من توقيع اسمائهم وقد حاولنا تعيين احد عمالنا في وظيفة كتابية في الجمعية فلم نستطع ايجاد العامل اللائق .

واما تكاليف المعيشة في يافا فغالية جدا وقد قدرت الحكومة النفقات التي تحتاجها العائلة المتوسطة من عشرين مادة غذائية ضرورية فوجدت انها بلغت في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٦ (٥ر٠٥٩) جنيها واذا اضفنا الى هذه ثلاثة جنيهات للسكن وجنيه ونصف للملبس وجنيهين للنفقات الاضافية (التسلية والمرض والنقليات الخ ..) وجدنا ان

العائلة المتوسطة تحتاج الى (١١ر٥٠٠ جنيه) على اقل تقدير وهذا يؤكد ان ٩٨ ٪ من طبقة العمال يعيشون في حالة دون الوسط بكثير ، وهذا الرقم يفسر ايضا السبب في اتخاذ العمال السراديب والتخاشيب مسكنا لهم ، والاكتفاء بالمواد الغذائية الفقيرة طعاما لهم » (١٣) .

ويدل الاحصاء السنوي لحكومةفلسطين لعامي ١٩٣٧/ ١٩٣٨ وكذلك في احصاء عام ١٩٣٩ ، ان اجور العمال العرب ظلتنسبيا ثابتة خلالعشر السنوات (١٩٣٠–١٩٣٩) (١٤).

وبينما جنت البرجوازية العربية ملايين الليرات من زراعة الحمضيات، ظل الدخل اليومي للعامل العربي ، الدائم والموسميمن ١٠٠ — ١٥٠ مليما والعاملاتمن ٥٠ — ٧٠ مليما. استغلاصحابالبياراتالبطالة الواسعةليفرضوا علىالعشرين الف عامل في اواخر الثلاثينات اجرا زهيدا .

ازدهرت الحالة الاقتصادية في فلسطين نتيجة ظروف الحرب ، وبان هذا التحسن من خلال الحديث عن احوال الفلاحين في الفقرة السابقة وكذلك من خلال التحدث عن جدول رقم ٢٨ . واوضحنا سابقا ان هذا الجدول لا يعطي الصورة الكاملة ، اذ كان العدد الوسطي السنوي للعمال المياومين في الجيش والدوائر الحكومية الاخرى اكثر منذلك بكثير (جدول رقم ٢٩) وكان معظم هؤلاء العمال من العرب الفلسطينيين .

١٣ — جانا — **المصدر السابق** ، شهادةالسيد جورجمنصور، ص ٢٨٧ — ٣٠٢ .

١٤ — مراجعة : St. Abst. ١٩٣٨/٣٧ ، ص ٩٨ .

جدول رقم (٢٩)

العدد الوسطي السنوي للعمال المياومين العاملين في الجيش والدوائر الحكومية الاخرى خلال الحرب

	١٩٤٠	١٩٤١	١٩٤٢	١٩٤٣	١٩٤٤	١٩٤٥ ٩ اشهر
الجيش	٥ر٩٩٨	١٦ر٢٤١	٤٢ر٢٦٧	٤٧ر٢٦٥	٤٢ر٩٣٠	٣٥ر٥٤٩
الاشغال العامة	٤ر٢٥٤	٧ر٢٤٨	٧ر١٨٨	٤ر٥٥٦	٣ر٢٥٦	٣ر٢٩٤
سكةالحديد الفلسطينية	٢ر٢٥١	٢ر٩٩٨	٤ر٨٦٣	٣ر٦٢٠	٣ر٢٤١	٢ر٧٦٤
البريد والتلغرافوالتلفون	٧٣٠	٨٦٩	١ر١١٦	١ر١٣٩	١ر٠٠٨	١ر١٤٢
المجموع	١٣ر٢٣٣	٢٧ر٣٥٦	٥٥ر٤٣٤	٥٦ر٥٨٠	٥٠ر٤٣٥	٤٢ر٧٤٩

المصدر : Survey II 1946. ، ص ٧٣٣ .

وشهد القطاع الصناعي العربي الحديث اكبر قفزة في عدد العمال (١٥) ، فبينما كان عددهم ١١٧ر٤ عام ١٩٣٩ اصبح العدد ٨٠٤ر٨ عام ١٩٤٢ ، ولا بد انه قد وصل في عام ١٩٤٥ الى ١٢ الف عامل ، بسبب بقاء نفس الظروف وزيادة الطلب . ازدادت الاجور في تلك الفترة لسببين :

اولا : ارتفاع الاسعار ، اذ ارتفع سعر الجملة من ١٠٠ بالمائة في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٨ الى ٣١٣ر٧ بالمائة في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٤٤ . اما تكاليف المعيشة فارتفعت من ١٠٠ بالمائة وسطيا عام ١٩٣٩ الى ٢٥٢ بالمائة اواخر عام ١٩٤٤ (١٦) .

ثانيا : تلاشي البطالة الواسعة : والاحتياج الى العمال المهرة .

لم يواز تضاعف الدخل ارتفاع تكاليف المعيشة في السنين الاولى من الحرب ، مما اوجد سخطا لدى العمال ، وشجع على ازدهار الحركة النقابية . ودلت ابحاث حكومة الانتداب (١٧) ان دخل عائلة العامل او الموظف الوسطي اقل من المصروف. فبينما كان دخل العائلة من ٣٢٠ر٤ — ٢٥٠ر١١ جنيها فلسطينيا كان مصروف العائلة من ٢٩٧ر٨ — ٣٧٥ر١٢ جنيها فلسطينيا . واستطاعت الحركة النقابية بعد ذلك رفع الاجور ، غير ان مجالات العمل لدى الجيش والحكومة ، بدأت تنخفض مع انتهاء الحرب .

١٥ — مراجعة : St. Abst. ، ١٩٤٥/٤٤ ، ص ٥٣ و ٥٨ .
١٦ — مراجعة : Nathan ، **المرجع السابق** ، ص ٣٠٣ .
١٧ — مراجعة : St. Abst. ، ١٩٤٥/٤٤ ، ص ١٤٠ .

كما كان على الحركة النقابية النضال ضد نظام العمل. فلقد دلت استقصاءات الحكومة (١٨) في ٢٤٤ معملا عربيا ان ساعات العمل الاسبوعية تتوزع كما يلي :

في ٤ مؤسسات	من ٤٠ — ٤٤ر٩	ساعة اسبوعيا
في ٦٣ مؤسسة	من ٤٥ — ٤٩ر٩	ساعة اسبوعيا
في ٦١ مؤسسة	من ٥٥ — ٥٩ر٩	ساعة اسبوعيا
في ٥٣ مؤسسة	من ٦٠ — ٦٤ر٩	ساعة اسبوعيا
في ٨ مؤسسات	من ٦٥ — ٦٩ر٩	ساعة اسبوعيا
في ٩ مؤسسات	من ٧٠ — ٧٤ر٩	ساعة اسبوعيا
في ١٦ مؤسسة	من ٧٥	ساعة وما فوق .

اي ان ٧٠ بالمائة من عمال المؤسسات الصناعية كانوا يعملون اكثر من ٥٠ ساعة في الاسبوع . بل ان العامل في ٩ مصانع صابون كان يعمل ٨٤ ساعة اسبوعيا اي ١٢ ساعة في اليوم ، مما يؤكد الاستغلال الكبير للعمال .

ولم يطرأ تحسن كبير على الحالة السكنية لكثير من العمال . اذ دلت الابحاث في عام ١٩٤٥ (١٩) على ان الحالة السكنية في المدن والاحياء العربية كانت في معظم الاحيان مزرية ، مثلت مدينة يافا اسوأ الاحوال حيث كان ٧٠ بالمائة من السكان العرب يعيشون في احياء وبيوت غير صحية ابدا وفي وسط ازدحام فظيع ، اذ كان يعيش في كل غرفة من ٤ — ٥ اشخاص . وعرف نفس الوضع ٤١ بالمائة من سكان

١٨ — **نفس المصدر** ، ص ١٤٣ .
١٩ — مراجعة : Survey II 1946. ، ص ٩٤ — ٩٦ .

حيفا ، بينما كان هناك الف شخص يعيشون في الكهوف . لم يكن دخل العامل كافيا لتشجيعه على السكن في بيوت افضل صحيا ، كما ان الهجرة الكبيرة الى المدينة ، ساهمت في رفع اجور البيوت، مما ابعد استئجارها عن متناول العامل.

بالرغم من احتواء الموظفين الصغار في تعريف العامل ، الا ان ذكرهم لم يأت خلال دراسة حالة العامل ، وذلك لان حالتهم كانت احسن حالا من العمال، لم تظهر في البدء مشكلة توظيفهم ، اذ يحتاج القطاع الحديث النامي الى عدد متزايد من المتعلمين ، الا انه بعد الزيادة الكبيرة في اعداد المتعلمين بدأت الازمة ، فاحتوتها سريعا ظروف الحرب ، اذ احتاج الجيش والدوائر الحكومية الى اعداد كبيرة من الكتبة والمراقبين ، واستوعبت القطاعات الاخرى قسما آخر من المتعلمين . ولكن مستوى معيشتهم تدنى خلال الحرب ، بسبب ارتفاع الاسعار وعدم مرافقة الاجور في البدء لهذا الارتفاع. بينما كانت حالتهم حسنة بعض الشيء قبل الحرب اذ ان تكاليف المعيشة انخفضت كثيرا، عما كانت عليه في الشطر الاول من العشرينات. وقد ذكر السبب سابقا ، تدهور اسعار المنتوجات الزراعية ، وانخفاض في اجور العمال اليدويين .

٣ ــ ادركت الطبقة الكادحة، منذ البدء علاقة الصهيونية بالاستعمار ولم تنتظر حتى عام ١٩٣١ لتدرك مثل ما فعلت البرجوازية ، ان عدوها الاساسي الاستعمار الانجليزي ، بل عرفت هذا العدو من خلال تأييده الفعلي للصهيونية ومحاربته للانتاج العربي الوطني ، فكان من نتيجة هذا التأييد كما ظهر

سابقا ، انخفاض في مستوى معيشة الفلاحين والعمال وبطالة تزداد حدة. ولذا كما كانت حوادث عام ١٩٢٩ ثورة فلاحية كانت ايضا ثورة عمالية ، او بالاحرى ثورة الكادحين ، وبما ان الاكثرية العظمى من العمال، كانوا من الفلاحين اصلا، الذين شردوا من قراهم او جاءوا المدينة للعمل ، فلذا نستطيع تسمية هذه الثورة : ثورة الفلاحين .

ولذا لم تكن حوادث آب (اغسطس) ١٩٢٩ في نظر الكادحين ، اضطرابات عادية ، بل ثورة على الوضع المزري الذي تعيشه الطبقة الكادحة ، كانت ثورتهم عفوية ، ولكنها حافلة بالتصميم والتضحية، واتهم العمال العرب في مؤتمرهم الاول في ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ الارستوقراطيين والاغنياء ، بفشل الثورة لتحيزهم للاستعمار البريطاني (٢٠).

وحين ازداد اضطهاد الفرق العسكرية التابعة للهستدروت ـ الجالدتيسم ـ للعمال العرب ، تداعى هؤلاء الى الدفاع عن انفسهم ، وتنشيط الحركة العمالية . فسعوا الى انشاء الحاميات العربية والنقابات العمالية فدعا عمال القدس في بيانهم عام ١٩٣٤ الى توحيد صفوفهم : « والآن وقد اصبح كل عامل عربي في هذه البلاد يشعر بما وقع فيه من خطر ، من تدني اجرته وعدم وجود الاعمال المنظمة له ، وسمع بتلك الاعتداءات الفظيعة التي تقع على اخوانه وقطع ارزاقهم ، فقد اصبح لزاما عليه ان يتأكد بأن لا حياة له الا بانضمامه الى

٢٠ ــ مجلة « الى الامام » لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني ، السنة الثالثة، عدد كانون الثاني (يناير) ١٩٣١ .

صفوف موحدة تعمل لرفع مستواه وتحفظ حقوقه وقيمته المادية والمعنوية في الهيئة الاجتماعية » (٢١) .

ولما رفضت حكومة الانتداب عام ١٩٣٥ السماح للعمال بالتظاهر نتيجة اضطهاد اليهود وانتشار البطالة ، اعلموا الحكومة في رسالة « ان لم تعالج هذه المشكلة الخطيرة فانه في الايام المقبلة عندما يشتد يأس العامل العربي ستضطر هي حتما الى اطعام العمال خبزا او رصاصا » (٢٢) .

لم تتوقف الطبقة الكادحة بعد حوادث عام ١٩٢٩ ، من الرد على الاعتداءات الصهيونية ، بل كما ذكر سابقا نشطت فرق الجهاد السرية منذ العام ١٩٣٠ في الرد على الصهيونيين، وتوسع الرد مع مرور الزمن ، وفي العام ١٩٣٥ توجه الشيخ عز الدين القسام مع رجاله من حيفا الى الريف لبدء الثورة، ولكنه استشهد مع بعض رفاقه في اول الطريق ، غير ان استشهاده أثار الجماهير وزاد من تصميم الكادحين على المقاومة ، وازدادت الحوادث، واتسعت، ولم تقف يافا جامدة امام الاعتداءات الصهيونية المتكررة على العمال العرب ، فقامت تظاهرة ضخمة في ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٣٧ في يافا كانت الشرارة الاولى للاضراب والثورة ، واظهرت هذه التظاهرة عمق السخط لدى الطبقة الكادحة .

٢١ ـ الوثائق ... **بيان اللجنة التحضيرية لاتحاد نقابات العمال العرب** بالقدس حول تأليف حاميات عربية لمقاومة اعتداءات اليهود ، القدس ١٩٣٤ ، ص ٣٥٦ـ ٣٥٧ .

٢٢ ـ جانا ، جورج منصور ، **المرجع السابق** .

وتحمّل العمال قسطا لا بأس به من التضحية ، فوقع عليهم العبء الاكبر من اضراب ستة الاشهر ، وانضم الكثيرون الى الثوار ، بل وظهر بعض القادة الكبار من صفوفهم ، « والحقيقة الثابتة ان الفلاحين في فلسطين بصورة خاصة والى جانبهم العمال بصورة عامة ، هم الذين دفعوا ضريبة الدم وضريبة المال لفلسطين وحقها في الحياة ... وهم الذين تحملوا العبء الاكبر في الدفاع عن فلسطين خلال الثلاثين عاما التي قضتها في مناهضة الاستعمار » (٢٣) .

عظمت قوة التنظيم العمالي العربي خلال الحرب ، وهدف من نشاطه ضمان حقوق العمال العرب ماديا وقوميا. وظهرت بعض اوجه العمل القومي في تنظيم العمال وجعلهم قوة عربية تجابه الهستدروت واهداف الصهيونية في نطاق العمل والاستيطان ، وفي نفس الوقت محاربة سياسة التوظيف الحكومية ، التي عينت عددا من اليهود يفوق نسبتهم العددية ، واعطائهم الوظائف المهمة والحساسة . وفي خلال معارك ١٩٤٧ـ١٩٤٨ ساهم العمال بشكل واسع في الحرب بقدر الظروف التي كانت متوفرة .

٤ ـ ذكر مرارا بعض اوجه نشاط الحركة النقابية العربية الفلسطينية ، ولكن ترك تحليل تطورها ومشاكلها الى الفقرة الحالية ، وكما ذكر في البدء : ان الهدف من البحث الموجز حول الحركة النقابية ، هو ادراك عمق عملية التحديث، ومشاكل هذا التحديث في **النطاق التنظيمي الديموقراطي**

٢٣ ـ الغوري ، اميل ، **المؤامرة الكبرى : اغتيال فلسطين ومحق العرب** ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٠٢ .

والديناميكي ، واستخلاص صورة عن مدى انتشار القيم الجماعية والتفكير العلمي المضاد لقيم ومسلك المجتمع التجاري ، وقبله المجتمع التقليدي المغلق .

بدأت الحركة النقابية العربية بعد الحرب العالمية الاولى تظهر في فلسطين متأثرة بصورة النشاط العمالي اليهودي ، الذي كان يسعى الى مزاحمة العمال العرب ، بل منع هؤلاء من العمل في المزارع اليهودية ، على منوال التنظيم النقابي للعمال والموظفين اليهود في الدوائر الحكومية ، اذ سعى زملاؤهم العرب في تلك الدوائر الى تنظيم انفسهم . وكان نشاط الحزب الشيوعي الفلسطيني والذي كان يضم بعض الشبان العرب ، وكذلك نشاط بعض الشباب الفلسطيني العائد من المهجر ، قد هيأ الجو لمثل هذا التنظيم ، وهكذا نشأ في حيفا عام ١٩٢٥ اول تنظيم نقابي وسعى هذا التنظيم الى نشر مبادئه في جميع انحاء فلسطين .

وجاءت ثورة ١٩٢٩ لتظهر سخط الطبقة الكادحة ، وكان من ذيول هذه الثورة المفاجئة والقصيرة الامد ، ان دب النشاط في الجماهير الشعبية فسعت الى تنظيم نفسها ، واسماع صوتها اذ تأكد لها ان طبقة الوجهاء لا تنظر الا لمصالحها ، كما كانت العناصر القيادية الوطنية من فئة الوجهاء والبرجوازية الوطنية ، بسبب انتمائها الطبقي عاجزة عن تصفية عناصر الخيانة من سماسرة وعملاء من اللجنة المركزية . فتداعى الشعب الى تنظيم نفسه ، وعقد الطلاب مؤتمرا في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٩ والعمال بعده بثلاثة اشهر في اول سنة ١٩٣٠ ، وفي الفترة ذاتها بدأ الشباب في عقد مؤتمراتهم .

كان هدف اجتماع العمال العرب ، انشاء اتحاد عمال فلسطيني ووضع مخطط لمحاربة الاستعمار والصهيونية ، والعناصر الانتهازية خصوصا قيادة الوجهاء للعمل الوطني ، وفي نفس الوقت النضال في سبيل حقوق العمال الاجتماعية والاقتصادية وعقد العمال مؤتمرهم الثاني في السنة التالية (١٩٣١) ، ولكن نشاطهم فتر بعد ذلك . اذ وجدت طبقة الوجهاء والبرجوازية الحديثة في التيار العمالي وتسرب عناصر الشيوعيين اليه خطرا عليها فسعت الى تحطيمه ، بعدم تشجيعها للتنظيم العمالي وتفتيت حركته داخليا ، وسنتحدث مفصلا عن ذلك في الفصل الخامس .

غير ان الاضطهاد الصهيوني للعمال العرب ، وانخفاض مستوى المعيشة وانتشار البطالة ، دفع العمال العرب بمساعدة بعض الشباب التقدمي الى انشاء مزيد من النقابات واحياء القديم منها . فنشأت عام ١٩٣٤ نقابة العمال العرب في يافا ، ووصل عدد المنتسبين اليها عام ١٩٣٦ حوالي ٤٧٠٠ عضو . وانشئت نقابات مماثلة في مدن اخرى ، كما سعي في القدس عام ١٩٣٤ الى انشاء نقابة وقد ذكر اعلاه امر هذا المسعى . وبالرغم من هذا المجهود الواسع ، لم يستطع العمال العرب توحيد صفوفهم ، في تلك المدة خصوصا خلال ثورة ١٩٣٦ـ ١٩٣٩ . ويبدو ان الحركة النقابية والعمال عامة ، وضعت كل نشاطها في مؤازرة الاضراب والثورة ، والتحق بعض النقابيين باللجان القومية .

يبدو ان الحركة النقابية لم تكن متجانسة في تلك المدة ، ليس فقط عقائديا بل طبقيا نسبيا ، فالنقابات العمالية في الدوائر الحكومية والبلدية ، كانت تضم عددا كبيرا من الموظفين ،

وتشعر بارتفاع شأنها بين جماهير العمال الامية والفقيرة الحال، وتحسنت حالتها نتيجة انخفاض تكاليف الحياة والزيادة في المعاشات.

وتغيّر الحال خلال الحرب العالمية الثانية، فبسبب الزيادة الكبيرة في العمالة خصوصا لدى الجيش ولدى الحكومة والبلديات، وبسبب ارتفاع الاسعار بشكل كبير التي لم يواكبها ارتفاع في الاجور، نشطت الحركة النقابية العربية، وساهمت ثورة ١٩٣٦ كثيرا في دفع العمال للعمل الجماعي، اذ بدأوا يشعرون بأهمية اشكال اخرى من التنظيم توحد الصفوف.

نشأ في بادىء الامر تنظيمان نقابيان عربيان يختلفان بعض الشيء في المفهوم الاجتماعي للنضال العمالي، ولكنهما سعيا بعد ذلك الى توحيد صفوفهما ونشأ عن ذلك عام ١٩٤٦ تنظيم نقابي شبه موحد يتزعمه سامي طه، الذي ساهم كثيرا في نشر وتقوية التنظيم النقابي، واصبح عدد اعضاء جمعية العمال العربية، احدى التنظيمين والذي يترأسه سامي طه، عام ١٩٤٦ حوالي ٣٠ الف عضو نصفهم يدفع الاشتراك بانتظام. واستطاع التنظيم العمالي العربي اعلان اضراب شامل وناجح عام ١٩٤٥ مطالبا بقانون عمل يحفظ حقوق العمال، ومطالبا برفع الاجور ايضا.

٥ ـ يتضح من تحليل تطور الحركة العمالية العربية ان المعلومات عنها ضئيلة، ويجب القيام بمجهود كبير لمعرفة مراحل هذا التطور، اذ ان الحركة العمالية كانت قسما اساسيا من النضال العربي الفلسطيني وتعكس درجة نموه

الوعي الاجتماعي السياسي للجماهير الكادحة في فلسطين.

وبالرغم من ضآلة المعلومات، الا ان التحليل الوارد اعلاه، يساعد على معرفة مشاكل نمو الحركة النقابية وانعكاساتها الفكرية والمسلكية.

هناك شرطان اساسيان لظهور تنظيم نقابي قادر على الصمود والانتشار:

اولا: انتشار حد ادنى من التعليم في نسبة لا بأس بها من العمال.

ثانيا: تجمع عمالي متلاحم ودائم.

ولكن قوة التنظيم العمالي تنبع من:

ـ توفر وعي ثوري لدى الطبقات ذات المصلحة الحقيقية في التغيير ولدى المثقفين الثوريين من الطبقات الاخرى، الملتحمين عضويا بالطبقة الكادحة.

ـ توفر طليعة نقابية ثورية، متحلية بالتفكير العلمي الثوري.

بل ان الشرطين الآخرين قادران على تخطي مسألة التجمع العمالي لتسلح الحركة العمالية بوعي ثوري يعكس تضحية وتصميما.

بسبب تسلط التفكير البرجوازي المهيمن على المجتمع التجاري النامي والعاكس قيمه على المجتمع ككل، وجدت الحركة النقابية العربية ظروفا صعبة امامها، وزاد من

التعقيد ، انها في مرحلة طويلة من نشاطها ، كانت تجابه امية كبيرة في صفوفها . ورفضت الارستقراطية العمالية ، من موظفي الحكومة والبلدية ومؤسسات الخدمات ، العمل مع العمال والفلاحين ، الا ان الشباب التقدمي ، استطاع تنمية الحركة النقابية ، بالرغم من محاربة البرجوازية لها ، بسبب الظروف التي عاشها العمال . ولكن مع حلول الحرب العالمية الثانية وظروفها ، وما افرزته الثورة الكبرى وانتشار التعليم من تحرر فكري ووعي جماعي وهبوط في نسبة الامية ، نمت الحركة العمالية بشكل كبير ، وادرك الموظفون الصغار اهمية تلاحمهم مع العمال ، وكانوا قد تطعموا بأعداد كبيرة من اولاد العمال والفلاحين . الا ان هذا النمو السريع ، لم يقابله في الوقت نفسه نمو كبير في الكادر العمالي الثوري ، اذ بالرغم من وحدتها العددية ، لم تحقق الحركةالعمالية وحدتها الفكرية ، ولذا لم تستطع وضع استراتيجية اجتماعيةقومية، قادرة على تربية كادر عمالي ، كفوً لحمل عبء التوعية الشاملة وتنظيم الجماهير فعليا ، وتحقيق القوة العمالية الثورية القادرة على فرض رأي الطبقة الكادحة العربية الفلسطينية ، في استراتيجية النضال القومي ، وتحقيق متطلباته وتنفيذ مخططاته .

عكست الحركة النقابية ، الارادة التغييرية للجماهير ، ولكنها ظلت اسيرة قيم المجتمع التجاري ورواسب المجتمع التقليدي المغلق ، ولم يتوفر الوقت بعد ذلك لهذه الحركة ، ان تعمق نضالها وتساهم في افراز قيم وسلوك جديدة تؤثر على النضال العربي الفلسطيني ككل .

ثالثا : الطبقة البرجوازية الصغيرة

١ ـ اشرنا في الفصل الاول ، الى ان نمو البرجوازية الصغيرة في دول غير نامية مرتبط بنمو القطاع الحديث . ولما كانت البرجوازية الصغيرة في الدول النامية ، طبقة غير متجانسة ، تحتوي على اصحاب المهن الحرة والموظفين والتجار والحرفيين ، فليس هناك اذن معيار اساسي لتحديد هويتها ، بل هناك معايير عديدة ، اهمها شعور هذه الفئة ، باختلافها عن طبقة الكادحين ، وتأثرها بقيم المجتمع التجاري وبالمسلك الحضاري السطحي للطبقات العليا . وقد ذكر هذا التحديد سابقا ، ولكن خصص مفهوم البرجوازية الصغيرة ، بالموظفين في القطاع الحديث وبعض الحرفيين التقليديين .

قد يكون تعداد هذه الطبقة اقل بكثير من طبقةالعمال، الا ان موقعها الاقتصادي في الاقتصاد التجاري جعل منها قوة لا بأس بها ، ولكنها لم تكن قادرة على الوحدة بسبب عدم تجانسها ، كما ان قسما منها كان اقرب الى الكادحين،او قادرا على الالتحام ، مع التنظيمات العمالية ، خصوصا ان توفرت ايديولوجية ثورية تظهر لهم اهمية الالتحام بالطبقة الكادحة ، غير ان قسما آخر كان مرتبطا بحكم عمله مع البرجوازية المتوسطة او منعزلا على نفسه كبعض التجار والحرفيين .

تبين لنا من تحليل جدول رقم ٢٨ ، ان قطاع الخدمات نما بشكل واسع خلال الانتداب ، ودلت احصاءات اخرى ان المدن الفلسطينية نمت نموا كبيرا ، ويستدل من جدول رقم ١٠ ان عدد السكان العرب في المدن ارتفع من ٦٦٨ الفا عام ١٩٢٢ الى ١٢١٠ آلاف عام ١٩٤٤ . وحسب جدول رقم ١١

ازداد عدد السكان العرب في القدس الضعف في تلك المدة ، وفي يافا زاد العدد ١٤٠ بالمائة وفي حيفا ٢٤٠ بالمائة . وشهدت المدن الاخرى نموا متفاوتا ، ولكن اقل عامة من هذه المدن الثلاث. ويؤكد سعيد حماده (٢٤) في كتابه عن الاقتصاد الفلسطيني ان عدد المحلات العربية ازداد بعد الحرب كثيرا ، فبينما كان عددها ٩٢٥ محلا قبل الحرب العالمية الاولى اصبح تعدادها ١٣٧٣ عام ١٩٢٨ .

وتدل احصاءات مديرية الصحة في فلسطين ، على تزايد كبير للمحلات العربية ، ويعطي جدول رقم ٣٠ صورة لتزايدها في اثنتي عشرة مدينة عربية . فعدد محلات البقالة ازداد من ١٧٦١ محلا عام ١٩٢١ الى ٢٥٣١ محلا عام ١٩٣٩ .

جدول رقم (٣٠)

الزيادة في بعض انواع المحلات والمخازن في ١٢ مدينة عربية *

	١٩٢١	١٩٣٥	١٩٣٩
١ـافران خبز	١٥١	٢٠٥	٢٩٥
ملحمات	١٤٢	٢٥٦	٣٧١
مطاحن دقيق وطحين	٤٥	١٠٧	١٤١
مخازن حبوب وقرنيات	٢٩	١٧٦	٢٢٥
محلات البقالة وفاكهة وخضر	١٧٦١	٢٤٤٠	٢٥٣١
محلات البان	٨	٢٩	٣٥
٢ـمحلات بيع وتصليح دراجات	—	—	٥٣
محلات لتصليح السيارات	—	٦٨	٧١
مخازن مواد محرقة (محطات بنزين)	—	٢٩	٦٨
٣ـمحلات البسة	٧٠	٨٠	١١٦
محلات بوظة	٣	٧	٤٠٤
معامل كازوز	٧	١٣	١٧
محلات ومعامل ثلج	٤	١١	١٩
مقاهي	١٥٠	٤٠١	٤٨٧
محلات مزينين	١٩٢	٤٠٧	٤١٨
صيدليات	٢٨	١٠٩	١٠٧

المصدر : مراجعة : . Survey II 1946، ص ٧٢١ .

٢٤ ـ مراجعة : حماده سعيد ، **المرجع السابق** ، ص ٢٨٦ .

* يافا ـ غزه ـ الخليل ـ نابلس ـ اللد ـ الرملة ـ الناصرة ـ عكا ـ خان يونس ـ بيت لحم ـ مجدل ـ طولكرم .

وجاءت الحرب لتنشط الحركة الصناعية والحرفية، كما ان ازدياد الدخل ساعد على نمو الحركة التجارية الداخلية ، ويستدل من الجدول رقم ٣١ ان عدد المؤسسات الصناعية المنظمة ـ مصانع حديثة وذات انتاجية عالية ـ ارتفع بشكل كبير خلال الحرب ، فكانت الزيادة ٢٤٥ بالمائة ، وذلك في خلال ثلاث سنوات ، قد يكون قسم من المشاغل التقليدية او البدائية قد حسنت من تجهيزاتها وانتاجها ، ولكن تدل الاحصاءات على ان زيادة فعلية قد حصلت ، ولا بد ان يكون التوسع قد ازداد بعد ذلك التاريخ .

جـدول رقم (٣١)

الصناعـة المنظمة في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٢

السنة	عدد المؤسسات	الانتاج العام ج٠ف	ثمن المواد الصناعية ج٠ف	الانتاج الصافي ج٠ف	عدد العاملين: العدد العام	عدد العاملين: عدد اصحاب المؤسسات والعاملين من افـراد العائلة
١٩٣٩	٣٣٩	١ر٥٤٥ر٤١٣	١ر٢٣٢ر٢٦٤	٣١٣ر١٤٩	٤ر١١٧	٧٥٤
١٩٤٢	١٥٥٨	٥ر٦٥٨ر٢٢٢	٣ر٩٣٣ر٤٥٩	١ر٧٢٤ر٧٩٣	٨ر٨٠٤	٢ر٥٩٥

المصدر : مراجعة St. Abst. عام ١٩٤٥/٤٤ ، ص ٥٣ و ٥٨ .

ليست هناك صورة واضحة عن تطور عدد الموظفين غير انه ليس من الصعب استنتاج الزيادة الكبيرة في الدوائر الحكومية والبلدية وفي الشركات المتنوعة، فمثلا ازداد نشاط المؤسسات المالية ، ففي عام ١٩٤٦ كان لدى بنك الامة ٢٠ فرعا وللبنك العربي ٦ فروع ، وعمل عدد كبير من الموظفين العرب في البنوك الاجنبية غير اليهودية ، كما عمل كثيرون في شركة نفط العراق .

وتدل احصاءات جدول رقم ٨ ان عـدد المعلمين في المعارف ارتفع من ٥٢٥ معلما في العام الدراسي ١٩٢٠/٢١ حتى وصل العدد الى ١١٤٨ معلما في العام الدراسي ١٩٣٥/٣٦ وحوالي ٢٤٨٠ معلما عام ١٩٤٦/٤٧ . ووصل عدد المعلمين في المدارس الاسلامية حسب جدول رقم ٩ الى ٤٤٠ معلما عام ١٩٣٥/٣٦ ولم يتغير كثيرا بعد ذلك ، واما في المدارس المسيحية فارتفع العدد من ٦٦٨ معلما في العام الدراسي ١٩٢١/٢٢ الى ١١٨٢ معلما في العام الدراسي ١٩٣٥/٣٦ و ١ر٤١٨ معلما في العام الدراسي ١٩٤٤/٤٥ . وانسجاما مع الفقرة السابقة ، يجب الحاق قسم من المعلمين بالطبقة الكادحة ، ولكن المسلك الاجتماعي للاكثرية الكبرى ، التي تشعر نفسها فوق الفلاحين والعمال ، يجعل ربطهم بالطبقة البرجوازية المتوسطة امرا ليس بغريب ، خصوصا في الجو الاجتماعي السائد ، ومن هنا يتضح غموض هذه الطبقة ، حيث يوحدها مسلكها الاجتماعي فقط .

٢ ـ اتضح من مجمل الكلام ، ان الطبقة البرجوازية الصغيرة تأثرت كثيرا بقيم المجتمع التجاري ، اذ استفادت من

التطور الاقتصادي ، ولكن هذه الطبقة تحتوي على القسم الاكبر من الفئة المتمردة على المجتمع التقليدي والزعامة التقليدية ، اذ تضم تحت لوائها القسم الاكبر من المتعلمين خصوصا بعد انتشار التعليم في اوائل الثلاثينات . غير ان القسم الاكبر من الجامعيين كان من ابناء الطبقة البرجوازية المتوسطة او ابناء العائلات الوجيهة والبرجوازية الكبيرة ، وتغيّر الامر نسبيا بعد الحرب العالمية الثانية .

لا نستطيع الآن تحليل موقف البرجوازية الصغيرة بشكل واسع ، لكون معظم افرادها من المتعلمين ، فسنترك تحليل تأثير هؤلاء الى الفصل الخامس حيث سنحلل نشاط المتعلمين والمثقفين السياسي خلال حقبة الانتداب .

عاشت البرجوازية الصغيرة منذ انتشارها في تناقض كبير ، ادركت نتيجة وعيها القومي المخلص ، ان عليها النضال ضد الاستعمار والصهيونية ، ولكن تحت تأثير قيم المجتمع التجاري وقيم رواسب المجتمع التقليدي من فردية واتكالية وازدواجية وعاطفة وفهلوية ، وجدت نفسها عاجزة عن اعطاء صورة جديدة للنضال ، فكان تذمرها نقدا سلبيا ، فلم تحقق عملا جماعيا فيما بينها ، يمدها بصورة واضحة للنضال المتعدد الجوانب . ولذا كانت في كل مرة تقبل قيادة الزعامة التقليدية للنضال الوطني .

رابعا : الطبقة البرجوازية المتوسطة

حددت البرجوازية المتوسطة في الفصل الاول على انها تلك الفئة من التجار وسكان المدن التي استفادت من التجارة

الخارجية وزيادة اسعار الاراضي والايجارات في المدن ، اي ان هذه الطبقة مع الطبقة البرجوازية الكبيرة الحديثة ، استفادتا اكثر من غيرهما ، بالانفتاح الاقتصادي على الخارج ، وما نتج عنه من قطاع حديث وعملية تحديث واسعة . وحقق الانتداب آمالها من ناحية النظام الاقتصادي ، فرفع اكثر القيود عن التجارة الخارجية ، خصوصا في مجال الاستيراد ، ولم تزعجها كثيرا العراقيل التي وضعتها الحكومة الاستعمارية على الانتاج المحلي ، اذ استطاعت ان تطور من خدماتها ، وتتوجه شطر الاستيراد وتتلمس منه ربحا اكبر .

وتدل احصاءات الجمارك ، ان التبادل الخارجي ازداد زيادة كبيرة خلال عهد الانتداب ، الا ان قسما من هذا التبادل لم يمر عن طريق التجار العرب ، ولكن حتى العام ١٩٣٦ ، اي حتى الثورة الكبرى ، كانت معظم تجارة الجملة في المواد الغذائية الاساسية في يد التجار العرب ، مثل تجارة الحبوب والخضر . وسعى اليهود بعد ذلك الى تحويل التجارة الخاصة بهم اليهم مباشرة . ولم يتأثر العرب كثيرا من ذلك ، اذ ان ظروف الحرب ساعدتهم على تعويض الخسارة : زيادة الطلب العربي واحتياجات الجيش البريطاني .

اثّر انخفاض القوة الشرائية لدى الطبقة الكادحة على تصعيد الاستهلاك بشكل كبير ، ولكن التغيير في النمط الاستهلاكي لدى الشعب عامة ضمن تقدما حثيثا في الاستهلاك . ويؤكد هذا الوضع التوسع الكبير في المحلات التجارية كما جاء سابقا ، كما ان القوة الشرائية في المدن ازدادت كثيرا نتيجة التوسع في تعداد الطبقة البرجوازية

الصغيرة ، وازدياد ثراء الطبقات العليا الاخرى . وانعكس التحديث على نمط الانتاج الصناعي ، فأنشئت الوحدات الانتاجية الحديثة ، كما ادخلت الادوات الانتاجية الحديثة في معظم اوجه النشاط الاقتصادي العربي .

من خلال بحث حالة الفلاحين ، اتضح ان فئة المرابين استفادت كثيرا من بؤس الفلاح ، حيث كانت تقرض بربى فاحش، وفي كثير من الاحيان يكون المرابي الوسيط التجاري، فيربح اضعافا . واذا ما عجز الفلاح عن دفع دينه اجبر على بيع الارض ، وفي كثير من الاحيان كان هذا المرابي – الوسيط يستولي على الارض ، ولم يكن امام الفلاح في كثير من الاحيان ، تحت ضغط المرابي ، الا بيع الارض عن طريق السماسرة الى الصهاينة ، اما لعدم تقدم احد لشرائها او لان الصهاينة مستعدون على دفع اضعاف ما يعرض غيرهم . وهكذا ازداد ثراء هذه الفئة الطفيلية من مرابين – وسطاء وسماسرة .

باع العرب لليهود خلال عهد الانتداب كله ٩٢٥ الف دونم (٢٥) منها ٦٢٥ الف دونم باعها اثرياء من بيروت ودمشق للصهيونيين و ٣٠٠ الف دونم الباقي باعها عرب فلسطين ، ويؤكد الكتّاب اليهود ان الفلاح العربي لا يبيع ارضه (٢٦) ، واكد الخبير فرنش في تقريره في اوائل الثلاثينات ان عددا من اعضاء اللجنة التنفيذية العربية باعوا اراضيهم او نشطوا

٢٥ – مراجعة : الغوري ، اميل ، **المرجع السابق** ، ص ٤٩ .

٢٦ – مراجعة: Bonne, A : **Palastina Land undwirtschaft** Berlin 1937, P. 158.

كسماسرة . ويقدم جدول رقم ٣٢ صورة عن تطور البيع حتى سنة ١٩٣٧ ، وهناك ملاحظة اولية : حسب هذا الجدول باع العرب حوالي ٧٢٥ الف دونم حتى عام ١٩٣٧ ولم يبع كثيرا بعد ذلك ، ويؤكد الاستاذ اميل الغوري ان قسما من الاراضي المبيعة لليهود لم تسجل ، ولكن هناك تناقضا في احصاءاته ، اذ حسب الاستاذ محمد عزة دروزه تبلغ مساحة امتياز الحولة حوالي ٥٠ الف دونم وليس ١٦٥ الف دونم حسب قول الغوري . كما ان مساحة مرج بن عامر كانت قبل الحرب حوالي ٤٠٠ الف دونم وحين بيعت الى اليهود لم تصل ٢٠٠ الف دونم ، كما ان احصاءات جدول رقم ٣٢ تؤكد غير ذلك . اذ باع آل سرسق مرج بن عامر بعد الحرب على مرحلتين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٥ ، كما بيع امتياز الحولة عام ١٩٣٥ . قد تكون احصاءات الحكومة لم تذكر جميع الاراضي المبيعة، ولكنها تؤكد انه كانت هناك حركة بيع دائمة ، واذا تصفحنا المقالات التي كانت تظهر السخط العربي على البيع بين ١٩٢٦ و ١٩٣٦ نجدها تتهم عددا كبيرا من عائلات فلسطين ببيع الاراضي .

ارتفعت اسعار الاراضي في اوائل الانتداب لحماس الصهيونية في اقتناء الارض ، وهبط السعر مع مجيء ازمة الهجرة عام ١٩٢٦ ، وارتفع بعد عام ١٩٣٠ بشكل كبير حتى وصل سعر الدونم الى ٢٦ر٥ جنيها . هناك سببان لارتفاع السعر :

اولا : زيادة نشاط الصندوق القومي اليهودي .

ثانيا : اهم من ذلك بدء الهجرة اليهودية الجماعية الى

جدول رقم (٣٢)
بيع الاراضي من العناصر غير اليهودية الى العناصر اليهودية من عام ١٩٢٠–٣٧

	المساحة بالدونم	الثمن ج٠ف	ثمن الفدان ج٠ف
١٩٢٠	١٫٠٤٨	٢٠٫٦٠٣	١٨٫٧٠
١٩٢١	٩٠٫٧٨٥	٥٤٧٫٧٢٥	٦٫٣
١٩٢٢	٣٩٫٣٥٩	٥١٦٫٩٩٦	١٣٫٣
١٩٢٣	١٧٫٤٥٩	١٧٢٫٧٧٦	٩٫٩
١٩٢٤	٤٤٫٧٦٥	٢٠١٫٥٩٥	٤٫٦
١٩٢٥	١٠١٫١٣١	٨٦٩٫٠٦٧	٨٫٧
١٩٢٦	٣٨٫٩٧٨	١٥٩٫٣٦٦	٤٫١
١٩٢٧	١٨٫٩٩٥	٩٧٫٥٢٨	٥٫١
١٩٢٨	٢١٫٥١٥	٧٩٫١٠٢	٣٫٧
١٩٢٩	٦٤٫٥١٧	٣٤٢٫٣٨٨	٥٫٦
١٩٣٠	١٩٫٣٦٥	١٣٧٫٠٧٠	٧٫٠
١٩٣١	١٨٫٥٨٥	١٣٥٫٥٣٩	٧٫٣
١٩٣٢	١٨٫٨٩٣	١٤٨٫٨٨١	٧٫٨
١٩٣٣	٣٦٫٩٩١	٨٥٤٫٧٩٦	٢٣٫١
١٩٣٤	٦٢٫١١٤	١٫٦٤٧٫٨٣٦	٢٦٫٥
١٩٣٥	٧٢٫٩٠٥	١٫٦٩٩٫٤٤٨	٢٣٫٤
١٩٣٦	١٨٫١٤٥	١٥٨٫٨٢٥	٨٫٦
١٩٣٧	٢٩٫٣٦٧	٣٩٢٫٩١٨	١٣٫٤

المصدر : مراجعة : St. Abst. ، لعام٣٧/١٩٣٨ ، ص١٦٠ .

فلسطين خصوصا من المانيه ، واندفاع هؤلاء في شراء الاراضي ، واستثمار اموالهم في زراعة الحمضيات .

وبما ان الساحل الفلسطيني يقدم الطبيعة الملائمة لزراعة الحمضيات ، اتجه شراء اليهود الى هذه المنطقة ، وهكذا استفادت الطبقة البرجوازية الكبيرة وخصوصا المتوسطة من هذا البيع ، اذ ان الاكثرية الكبرى من اراضي الساحل كانت في ايدي تجار المدن او الطبقة الوجيهة . وتوازيا مع هذا البيع نشطت البرجوازية المتوسطة والكبيرة في زراعة الحمضيات ، ولذا ارتفعت ايضا اسعار الاراضي الصالحة لهذه الزراعة ، ويعطي جدول رقم ٣٣ صورة عن التوسع في زراعة الحمضيات . قبل عام ١٩٣٠ كانت حصة العرب اكبر من حصة اليهود ، الا ان استثمارات المهاجرين الجدد جعلت حصة اليهود ترتفع الى ٥٦ بالمائة عام ١٩٣٤ ، غير ان العرب زادوا من استثماراتهم لتتساوى مساحة اراضيهم تقريبا مع مساحة زراعة الحمضيات اليهودية . قد يكون انتهاء الازمة الاقتصادية فياوروبه خصوصا فيبريطانيه وارتفاع الاسعار ، اذ وصل سعر صندوق البرتقال الشموطي الى ٦٥٨ مليما فلسطينيا في بريطانيه عام ١٩٣٢/٣٣ (٢٧) ، وكذلك تحسن التسويق ، قد شجعا المالك العربي على الاهتمام بهذه الزراعة ، ولكن يتضح ان بيع الاراضي لعب دورا لا بأس به لدى بعض الفئات لتمويل الاستثمار (٢٨) في هذه الزراعة ، اذ كان يبلغ تكاليف انشاء الدونم الواحد من الاشجار الحمضية التي

٢٧ – مراجعة : Nathan ، **المرجع السابق** ، ص ٢١٠ .
٢٨ – حماده ، **المرجع السابق** ، ص ١٧٧ – ١٨٢ .

جدول رقم (٣٣)
تقدم زرع اشجار الحمضيات
من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٧–٣٨ (١)

السنة	ما زرع في تلك السنة دونم	مجموع ما زرع الى نهاية تلك السنة	
١٩١٣		٣٠ر٠٠٠	
١٩٢٢		٣٢ر٠٠٠	
٢٣–١٩٢٥	١ر٥٠٠	٣٤ر٠٠٠	الاكثرية للعرب (٢)
٢٦–١٩٢٧	٨ر٠٠٠	٤٢ر٠٠٠	
٢٧–١٩٢٨	١٧ر٥٠٠	٥٩ر٠٠٠	
٢٨–١٩٢٩	١١ر٠٠٠	٧٠ر٠٠٠	
٣٠–١٩٣١	٢٠ر٠٠٠	٩٠ر٠٠٠	
٣١–١٩٣٢	١٩ر٥٠٠	١١٠ر٠٠٠	٥٦ ٪ لليهود (٣)
٣٢–١٩٣٣	١٥ر٠٠٠	١٢٥ر٠٠٠	٤٤ ٪ للعرب
٣٣–١٩٣٤	٣٥ر٠٠٠	١٦٠ر٠٠٠	
٣٤–١٩٣٥	٤٧ر٠٠٠	٢٠٣ر٠٠٠	
٣٥–١٩٣٦	٧٤ر٥٠٠	٢٧٨ر٠٠٠	٩ر٥١ ٪ لليهود (٤)
٣٦–١٩٣٧	٢٠ر٠٠٠	٢٩٨ر٠٠٠	١ر٤٨ ٪ للعرب
٣٧–١٩٣٨	١ر٥٠٠	٢٩٩ر٠٠٠	

المصدر :

١ – حماده ، سعيد ، **المرجع السابق** ، بحث براون م. : الزراعة ، ص ١٧٥ .

٢ – **نفس المصدر** ، ص ١٧٣ .

٣ – Survey I. ، ص ٣٣٦ .

٤ – مراجعة : Nathan ، **المرجع السابق** ، ص ٢١٢ .

عمرها ست سنوات من ٥٠ – ٧٧ جنيها فلسطينيا ، وعلى هذا الاساس كان حجم الاستثمار العربي من ٥ – ٦ ملايين جنيه فلسطيني ، كما ان تكاليف الاعتناء بالدونم كان حوالي ٨ ج.ف ، أي ان تكاليف الاعتناء السنوي للبيارات العربية كان حوالي ٧٥٠ الف ج.ف . فزراعة الحمضيات تحتاج الى رأسمال كبير، لا يستطيع الفلاح الفقير توفيره والفلاح المتوسط يقدر على تحمل تكاليف عدد ضئيل من الدونمات .

فعلا تدل الاحصاءات على حصر ملكية القسم الاكبر من مساحة بساتين الحمضيات في ايدي عدد قليل من الملاّك . فالاحصاءات(٢٩) تظهر ان ٦ر١١ بالمائة كانوا يملكون ٤٧ بالمائة من المساحة المزروعة عامة . ولكن متوسط الحوزة لدى العرب كان اكبر مما كان عليه لدى اليهود، اذ ان متوسط مساحة الحوزة كان ٣٥ دونما لدى العرب و ٢٢ دونما لدى اليهود، اي ان الحصر لدى العرب اكثر منه لدى اليهود ، وهكذا نستطيع الاستنتاج اوليا ان ١٠ بالمائة من الملاك العرب كانوا يملكون ٥٠ بالمائة من المساحة المزروعة حمضيات . ولما كان عدد الملاك العرب حوالي ٣٧٦٠ ملاكا ، والمساحة المزروعة من قبل العرب حوالي ١٩٥ الف دونم ، فقد كان ٣٧٦ شخصا يملكون وسطيا ١٧٥ فدانا ، ولا بد من التنويه ان هذا التوزيع لم يكن مثاليا بين هؤلاء الاشخاص ، فبعضهم كان يملك فوق ٥٠٠ دونم .

ويؤكد م. براون في كتاب سعيد حماده ، ان عدد المنتجين العرب كان بين ٧٠٠ – ١٠٠٠ منتج عام ١٩٣٨ ويتضح

٢٩ – اعتمادا على بعض ارقام Nathan ، **المرجع السابق**، ص ٢١٠ – ٢١٤ .

من مجمل كلامه ان هذا الرقم يخص فئة المنتجين للتصدير ، ومعنى ذلك ان هؤلاء كانوا يملكون مساحة من الحمضيات قادرة للتصدير . واذا اخذ هذا الرقم بعين الاعتبار والارقام الاخرى يتضح ان عدد المالكين تحت ٣٥ دونما كان عاليا جدا ، هذا يعني ، ان البرجوازية المتوسطة والكبيرة كانت تنتج القسم الاكبر من محصول الحمضيات العربية .

وحتى بعد انخفاض الاسعار ، ظل الملاك العرب يتجهون كثيرا الى زراعة الحمضيات ، اذ كانت هذه تكوّن ٧٠ بالمائة من حجم التصدير العام، واكثر من ذلك نسبة لحجم التصدير العربي . وفي عام ١٩٣٨ كان الربح الصافي من كل دونم ٧ جنيهات في البيارات العربية ، اي ان متوسط ربح كل شخص من ٣٧٦ مالكا كبيرا كان ١٢٢٥ جنيها ويصل هذا الربح الصافي الى اكثر من ذلك لدى الملاك الكبار . مع ان الربح عام ١٩٣٨ كان اقل من السنوات الماضية .

واذا قورن هذا الدخل مع دخل الاكثرية الكبرى من العمال عام ١٩٣٦ حيث كان اربعة اخماس العمال يحصلون على اقل من ٥٠ جنيها في السنة ، حتى وان اخذ رقم حكومة فلسطين عام ١٩٤٢ ، حيث اعطت رقما وسطيا لدخل عائلة العامل او الموظفة قدره ٩٤ جنيها سنويا ، يظل هذا التباين كبيرا . ولقد ظل اجر العامل الزراعي في بيارات الحمضيات ثابتا خلال العقد الثالث ، حيث كان الاجر اليومي بين ١٠٠ ــ ٢٠٠ مليم للرجال و ٧٠ ــ ١٠٠ مليم للنساء . اي ان الرجل يحصل وسطيا على حوالي ٤ر٢٥ جنيه فلسطيني شهريا ان عمل ٧ ايام في الاسبوع خلال الموسم .

توقف تصدير الحمضيات خلال الحرب ، ولكن حكومة الانتداب عمدت الى مؤازرة الملاك ، فقدمت لهم قروضا تساعدهم على الحفاظ على انتاجهم ، وتضرر الملاك اليهود اكثر من الملاك العرب ، ومرجع ذلك ان اكثر الملاك العرب من البرجوازية المتوسطة او الكبيرة كان عندهم اعمال في القطاعات الاخرى ، فاستفادوا كثيرا من نشاطهم في هذه القطاعات مما عوض خسارتهم في انتاج الحمضيات .

والى جانب ملاك بساتين الحمضيات كان يوجد عام ١٩٣٨ حوالي ٢٧٠ مصدّرا ، كان في استطاعتهم اقراض المنتجين وشراء محصولهم (٣٠) . مما يدل على امكانية مالية كبيرة ، لا يشكك فيها ، ان سعى هؤلاء المصدرون الى حسمها في المصارف، اذ كان عليهم ضمان الدفع لدى المصرف، مما يؤكد متانة مركزه المالي .

هذا من ناحية التجارة الخارجية وملاك البيارات، واذا اضفنا الى هؤلاء كبار تجار التجارة الداخلية، ومالكي العمارات نستدل على وجود طبقة مالكة متوسطة الثراء ، اتسع تعدادها وثراؤها خلال عهد الانتداب . انضم مع الوقت قسم من الطبقة البرجوازية المتوسطة الى البرجوازية الكبيرة ، اذ ان نفوذها الاقتصادي اصبح متشعبا ، وعدت من طبقة الوجهاء ، اي اصبح لها نفوذ سياسي واجتماعي بطريق مباشر او غير مباشر حدد معيار البرجوازية الكبيرة ، بالنفوذ السياسي الاجتماعي الذي حققته عن طريق ثروتها او قوتها الاقتصادية، ولا يعني هذا نفوذا شعبيا ، اذ ان القيادة السياسية في

٣٠ ــ مراجعة : حماده ، **المرجع السابق** ، ص ٥١٣ .

فلسطين ، كانت بيد البرجوازية الكبيرة وبيد الارستقراطية او الوجاهة التقليدية ، ولذا كانت تعتمد على افراد من طبقتها لمؤازرتها او مزاملتها في النشاط السياسي ، كما استطاع عدد كبير من افراد هذه الطبقة البروز عن طريق الصدقات او التبرعات ، فيجد فتات ما تقدمه للحركة السياسية او الاجتماعية عامة من مؤازرة مادية ، صدى في الصحف والمحافل الخاصة والعامة ، تفتح لها طريق التزعم السياسي ، كما سعت بعض الجمعيات والنوادي الى وضع رؤساء شرف ، استفادة من ثروتهم خاصة ومن مركزهم الاقتصادي الاجتماعي عامة ، لدعم مالية الجمعية او النادي. وقد ذكرنا في الفصل الاول تأثير تسييس المؤسسات الدينية، خصوصا تأثير الوجاهة المدنية في الطائفة على النشاط السياسي للطائفة .

خامسا : الطبقة البرجوازية الكبيرة (الوجاهة التقليدية والحديثة)

تعمّدنا في الفقرة السابقة عدم تحليل مسلك البرجوازية المتوسطة ، لان تلك الصورة التي كانت موجودة قبل عهد الانتداب او في اوائله لم تدم طويلا ، وتحدثنا عنها مطولا في الفصل الاول ، حيث ذكرنا تسلط طبقة الوجهاء من ارستقراطية تقليدية وبرجوازية كمبرادورية حديثة ، وكان مقر الاخيرة في بيروت وعلى نطاق اضيق في يافا وحيفا ، لم تكن البرجوازية المتوسطة حينذاك قد عرفت الثراء الفاحش، بل كانت في بدء نموها العددي والمالي ، خصوصا لدى المسلمين . ولعبت دورا في الثورة العربية والدولة العربية ،

غير ان الحركة العربية قبل الحرب كانت موجهة من قبل الجيل المتعلم من ابناء الوجاهة التقليدية ، والمنفتح نسبيا على الحضارة الاوروبية، ولذا كان تأثيرها ضئيلا ، اظهر عداء للوجاهة التقليدية ، خصوصا خلال الثورة العربية الكبرى وفي اوائل الحكم الفيصلي .

ولكن بعد الحرب خصوصا في الثلاثينات بدأت تظهر البرجوازية المتوسطة بشكل واسع، ولكن استوعبتها الخلافات الشخصية النابعة من الصراع على المصالح الفردية. تضافرت خلال الحكم العربي في دمشق مع القطاع الواعي من الوجاهة التقليدية ضد الوجاهة التقليدية الرجعية ، ولكن هذا الخلاف انتهى :

اولا : لتقرّب الملك فيصل وبعض فصائل حكمه من الرجعية العربية التقليدية .

ثانيا : تكاتف معظم وجهاء فلسطين عام ١٩٢٣ بالمطالبة بالانتداب التركي الكمالي، مما اعاد الاعتبار للوجهاء الرجعيين، الذين رفضوا الثورة العربية وظلوا على وفائهم للحكم العثماني .

ثالثا : وجاء الانقسام « المجلسي ـ المعارضي » بعد ذلك، ليقسم مع الوجاهة التقليدية البرجوازية المتوسطة والكبيرة الحديثة . وكان سببه الحقيقي الصراع على النفوذ ، اذ ان النفوذ في تفكير البرجوازية يعني توطيد المصالح والاستفادة من الجو السياسي ـ الاقتصادي لزيادة الثراء . ووجد اعضاء البرجوازية المتوسطة مصلحتهم الفردية في الارتباط

باحد الطرفين، اذ لم تكن هذه البرجوازية ماديا في تناقض مع الوجاهة التقليدية والحديثة، اذ لا تمثل البرجوازية المتوسطة قطاعا جديدا ، بل تسير على منوال من سلفها أو ممن طور نفسه من الوجاهة التقليدية ، وسعت اكثر الوجاهة المالكة بعد الحرب الى تطوير نفسها ، اي ان البرجوازية المتوسطة هي قسم من قطاع الخدمات ، فهي تجسد وتوطد المجتمع التجاري بقيمه وتفكيره ومسلكه . وقد سارت مع الانقسام تؤمّن لها سندا في طموحها .

وكما هاجمت الفئة المثقفة من ابناء الوجاهة التقليدية، زعامة الفئة الرجعية من هذه الطبقة ، كذلك هاجم ابناء البرجوازية المتوسطة الزعامة التقليدية ، سعيا لاستلام الزعامة .

من خلال دراسة البرجوازية المتوسطة تتطرقنا الى نمو ونشاط البرجوازية الكبيرة ، كما ان البحث في الفصل الاول اعطى صورة واضحة لها ، ولذا ليس هناك من حاجة الى تحليل نموها ونفوذها الاقتصادي ، يتوجه الحديث في هذه الفقرة الى نشاطها السياسي ، الى تفكيرها عامة الذي هو في الوقت نفسه نشاط البرجوازية المتوسطة .

ساهم ناجي علوش في كتابه المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧ — ١٩٤٨) في تحليل النشاط السياسي للبرجوازية العربية الكبيرة والمتوسطة في فلسطين وسمى الفئة المتزعمة « طبقة الزعامات والوجاهات » فحلل نشاطها هذا كما يلي :

« ولقد استفادت طبقة « الزعامات والوجاهات » في

فلسطين من الاحتلال ومن نشاط الحركة الصهيونية ، كما بيّنت في الخلفية الاجتماعية والاقتصادية ، استفادة زادت من ثرواتها ونفوذها ، وان كانت حرمتها من السلطة . ولما كان طموحها الى السلطة ليس حادا وحاسما ، لانها حريصة على مصالحها الخاصة ، اليومية والمباشرة، ولانها طبقة ليست مؤهلة للخلق والحكم التقدمي ، وتكوينها الاجتماعي متخلف ، أملت ان يؤمّن لها التعاون مع الاستعمار مزيدا من المكاسب . وهي لهذا كانت حريصة على عدم الاصطدام الحاسم مع الاستعمار لانها كانت تؤثر المساومة على المقاومة . ولقد دافعت عنه في اكثر الاحيان ، وكان همها الوحيد ينحصر في اطفاء الحركة الشعبية ، ومحاولة الاستفادة من ذلك في تحقيق مصالحها ومطامحها » (٣١) .

وتميز تصرفها حسب ناجي علوش بالخصائص الآتية :

اولا : التخلف الفكري .

ثانيا : المساومة نظريا وعمليا .

ثالثا : العقم والجمود .

رابعا : ضيق الافق وقصر النظر .

لم تجد الطبقة البرجوازية العليا (البرجوازية الكبيرة والمتوسطة) نفسها في تناقض اساسي مع الاستعمار ، كانت

٣١ — علوش ، ناجي : **المقاومة العربية في فلسطين** (١٩١٧ — ١٩٤٨) ، مركز الابحاث — منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٥٧ — ١٦٠ .

تأمل فقط تزعمها للحكم في فلسطين والتأكد من قدرتها على تطوير الوضع حسب نظرتها ، ان تناقضها مع الصهيونية ، كان قوميا – اقتصاديا ، بمعنى ان الاندفاع القومي بعد الثورة العربية وضع الحركة العربية الحديثة في تناقض مع اطماع الصهيونية ، كما ادركت هذه البرجوازية ان تحقيق الدولة اليهودية يضر بمصلحتها وكيانها ، ولكن نشاطها السياسي تأثر بمصلحتها الاقتصادية ومستواها الفكري . فكانت تنسى الاستعمار والصهيونية ، كلما خف ضجيج الصهيونية وعلا صوتها بعدما تتحرك الصهيونية وتنظيماتها داخليا وخارجيا، وتظهر مقاومة الكادحين العرب ، فتخشى حينئذ من الفئتين: فئة الصهيونية وفئة الكادحين العرب ، لتهديدهما المباشر لمصالحها .

ولما كانت هذه البرجوازية العليا ، المجسدة والمثبتة لاقتصاد الخدمات ، متأثرة بالمجتمع التجاري الذي ولده هذا الاقتصاد ، تحلت بالخصائص التي ذكرها ناجي علوش ، ولم تساعدها قيم ذلك المجتمع في افراز مؤسسات اجتماعية قادرة على تنظيمها والمساهمة في مراقبة تخطيط الصهيونية. كان عملها فرديا فهلويا ، ولذا اوجد تناحرا شخصيا ونشاطا اقتصاديا فرديا ، بالرغم من قيام بعضها بعمل جماعي . ولذا لم تدرك هي نفسها الخطر الجاثم عليها ، ففي كل مرحلة من مراحل تطور سياسة الاستعمار والصهيونية ، كانت تجد بعض فئات هذه الطبقة نفعا لها . استفاد تجار الاستيراد من مضايقة التصدير ، واستفاد السماسرة ، والمرابون الوسطاء وملاك البيارات من الهجرة اليهودية ، واستفاد اصحاب

البيارات من نشاط الصهيونية وحكومة الانتداب في حقل تصدير الحمضيات .

واخذت هذه الطبقة في الهاء الشعب بمشاريع اقتصادية ، تحت شعار الدفاع عن مصالح الفلاحين والعمال، فانشأت المصارف ، واستفادت من انشاء المصرف الزراعي عام ١٩٣٤ ، لانه ساعد كبار ملاك البيارات واعطى ربحا قدره ١٧ بالمائة في اول سنة حسب قول الزعيم والوجيه رشيد الحاج ابراهيم . وافصح الوجيه احمد حلمي عن حقيقة بنك الامة حين ادخل المنتفعين الحقيقيين من مرابين وسماسرة الى مجلس الادارة (٣٢) .

واما نشاط الغرف التجارية العربية فكان روتينيا ، وقد يكون المعرض العربي عام ١٩٣٣ قد اعطى بعض الثقة لهذه الطبقة بنفسها ، الا ان جعجعتها حول التصنيع العربي والتقدم العربي الصناعي كان حلما لبعض التجار الطامحين الى توسيع نشاط عملهم ، وحقق بعضهم بعض المشاريع اكبرها شركات دخان ومطاحن كبيرة ، ولذا لم تكن مخيلتهم واستعدادهم المهني مهيئين لتحقيق تصنيع جدي ، فلم يسعوا الى انشاء المؤسسات اللازمة : مصارف تعطي قروضا طويلة الاجل ، توحيد الحرفيين وامدادهم بالقروض اللازمة ، انشاء الشركات المساهمة الكبيرة. كان مخططو البنك العربي يحلمون بالعمل على منوال بنك مصر ، ولكن لم تتوفر للبرجوازية الفلسطينية ، بعض مقومات البرجوازية المصرية ، خصوصا تصميمها على تمصير مصر ، او بالاحرى توسيع نفوذ

---

٣٢ – الفوري ، اميل ، **المصدر السابق** ، ص ١٤١ .

البرجوازية المصرية في جميع نواحي النشاط الاقتصادي ، انعكاسا للحماس العام خلال ثورة عام ١٩١٩ وبعدها .

واعتقدت البرجوازية التجارية ، ان التصنيع عملية جلب للآلات ، وليس في نفس الوقت ايجاد الكادر الفني الهرمي ، القادر على تحمّل عبء الانتاج . فلم تهتم للتعليم والتخصص المهني على جميع مستوياته. اهتم المجلس الاسلامي الاعلى فقط بالتعليم المهني فجهز دار الايتام الاسلامية بالمشاغل للقيام بهذا الواجب ، وكانت بالاحرى منافسة لدور الايتام الاجنبية ، اكثر من صورة واضحة لمعالم التصنيع ، وبالرغم من ذلك كان هذا العمل ايجابيا . ولم تحقق البرجوازية نفسها اي عمل آخر ، وحتى احتجاجاتها ضد سياسة المعارف التعليمية خصوصا في الحقل المهني ، كانت شكلية ، ينقصها وضوح الرؤيا .

اهتم بعضهم بالتصنيع خلال الحرب ، ولكن نظرتهم اليه كانت كصفقة من الصفقات ، وانحصر في مجال ضيق لا يعدو المنشآت التحويلية البسيطة. ان المجتمع التجاري لم يكن يحتوي على المقومات الاساسية لعملية التصنيع ، وكل نشاط في هذا القطاع لم يكن الا عملا تجاريا ذا صبغة صناعية .

الفصل الخامس

تأثير المتعلمين على النضال السياسي للشعب العربي الفلسطيني خلال عهد الانتداب

ساهمت الفصول الماضية في تحضير الخلفية اللازمة للفصل الحالي ، اذ حللت المجتمع الفلسطيني قبل الانتداب وبعده ، ووجهت الاضواء خلال ذلك الى النظرة التربوية للمستعمر ، وما جابه ذلك من اهتمام الفلسطينيين بالعلم واحتجاجهم على السياسة الاستعمارية . وفي الفصل الحالي سنبحث في نشاط الفئة المتعلمة ، وتأثير النضال الوطني على تفكير هذه الفئة . وهذا البحث سيكون في اطار الهدف الاساسي لمناقشة اسباب عدم ظهور التفكير العلمي الثوري وما يرافقه من عدم ظهور الطليعة الثورية .

ونستنتج من الفصول السابقة ان التوسع في التعليم شاهد ثلاث مراحل : المرحلة الاولى في اوائل عهد الانتداب، المرحلة الثانية بعد ثورة عام ١٩٢٩ ، والمرحلة الثالثة بعد عام ١٩٤٢ ، وساهم التعليم في دفع عملية التحديث وزيادة الوعي الاجتماعي السياسي لدى الجماهير. والى جانب زيادة التعليم، اتسع تعداد الطبقة البرجوازية الصغيرة ، ترابطا مع تحقيق الاقتصاد التجاري وفوز قيم المجتمع التجاري مع توطيد مركز البرجوازية المتوسطة والوجاهة القديمة والحديثة .

واتضح ان قوة الثورات الفلسطينية المتلاحقة كانت مستمدة من تصميم الطبقة الكادحة على التخلص من مضطهديها المباشرين الاستعمار والصهيونية ، ولكنها ادركت من خلال مسيرتها النضالية ، ان الطبقة البرجوازية العليا وسطية التصرف ، تجد في نمو الصهيونية خطرا عليها، ولكن السياسة الاستعمارية توفر لها امكانيات النمو والثروة ، ويهدف تزعّمها للحركة الوطنية الى الحفاظ على موقعها السياسي لتستطيع المساومة والضغط على الطبقات الاخرى .

ستكون الاجيال المتعلمة المتعاقبة محور التحليل ، لانها المعنية مباشرة من توسع التعليم ، كما ان الاجيال الشابة الجديدة ، اكثر انفتاحا على التفكير الجديد وتتأثر بالنضال القومي العام ، وفي حياة الشعب الفلسطيني ، تمثل الاجيال الجديدة ، مع توسع التعليم ، معيار انتشار الوعي الاجتماعي ـ السياسي ، وتحكي قصتها ، قصة الوعي الجماهيري ورفع كفاءته الثورية .

حين يذكر الجيل الجديد المتعلم نسبة لفلسطين خلال تلك الحقبة ، يعنى بذلك التلامذة او الطلبة من عمر ١٢ الى ١٨ سنة ، والذين يعطيهم الاطار المدرسي قوة لا بأس بها ، بل اساسية اذ عرف توجيهها ، ولكن هذا الجيل يرتبط بالجيل التالي والذي هو من عمر ١٩ سنة حتى ٣٥ سنة وما فوق في بعض الاحيان. ولذا فان اي بحث في الجيل الجديد لا يأخذ بعين الاعتبار الجيل الاكبر المرتبط فكريا ونضاليا به لا يعطي اي نتيجة . اذ من خلال علاقة جيل الشباب بجيل التلامذة نستطيع معرفة مدى وضوح الرؤيا لدى الفئة الاولى

لمتطلبات مراحل النضال ، اي مدى تحضير الشباب للجيل اللاحق تصعيدا للنضال نوعية وكمية، وتسليحه بقيمة ومسلك جديدين يتلاءمان وتصعيد الكفاح .

ولكن في الوقت نفسه سنبحث في نضال جيل الشباب وما افرزه من تغيّر في تصرفه المباشر وانعكاس ذلك على النضال الوطني ، اذ سنسعى الى معرفة مشاكل بروز الطليعة الثورية ، واذا نفينا مبدئيا افراز النضال القومي الفلسطيني خلال عهد الاستعمار لطليعة ثورية ، فاننا نعترف لمراحل النضال والتطور الاجتماعي والتعليمي بما اوجدته من بذور، مع تراكمها وصمودها مستقبلا لتنبت طليعة ثورية مصممة على النصر .

سيحتوي الفصل الحالي على اربعة اقسام ، سنلقي في البدء نظرة عامة على الممارسة النضالية للشباب المتعلم خلال المراحل النضالية العديدة . في القسم الثاني سنشرح التنظيمات العديدة التي اوجدها الشباب او عمل تحت لوائها ، وسنبحث في نقد الشباب للنهج النضالي الوطني في القسم الثالث ، وفي القسم الاخير سنحلل نشاطهم الثوري ، استكشافا لايجابيته وسلبيته ، اي بحثا في انتشار بذور التفكير العلمي ونشأة الطليعة الثورية .

اولا : نظرة عامة للممارسة النضالية للشباب المتعلم

اتضح من خلال الفصول السابقة ان النضال الفلسطيني شاهد خلال عهد الاستعمار البريطاني عدة مراحل نستطيع اولا تقسيمها الى ست مراحل :

أ ـ (١٩١٨ ـ ١٩٢٣) مرحلة الدولة العربية الاولى في دمشق وما سبقها ورافقها وتلاها مباشرة من وعي قومي وتصميم نضالي دموي : نضال الرعيل الاول من الشباب العربي القومي .

ب ـ (١٩٢٤ ـ ١٩٢٩) مرحلة الهدوء النسبي وبدء التعبير عن التناقض الاجتماعي وظهور الرعيل الثاني من الشباب واظهار تململه .

ج ـ (١٩٢٩ ـ ١٩٣٦) ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ وما فجرته من يقظة جماهيرية فسياسية ـ اجتماعية ، وتعبئة ثورية في كثير من النواحي : اجتماعات ـ حلقات جهادية ـ مظاهرات ـ اعمال فدائية ـ ثورة القسام . ظهور تنظيمات الشباب وتأثيرها النضالي .

د ـ (١٩٣٦ ـ ١٩٤٢) الثورة الكبرى (١٩٣٦ ـ ٣٩) انفجار جماهيري عام والتحام الفئة المتعلمة بالكادحين التحاما كاملا ، وملاحقة الثوار من ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢ .

هـ ـ (١٩٤٢ ـ ١٩٤٧) حرية العمل السياسي لعرب فلسطين : سنوات الثراء خلال الحرب ، انتشار فئة المتعلمين بشكل كبير خصوصا من ابناء الفئات الكادحة وانحلال وحدتهم السابقة ، اذ اصبحوا الآن اعدادا هائلة ، يضخمون من حجم البرجوازية الصغيرة ، ولكن قسما لا بأس به ، ظل مرتبطا ايديولوجيا مع الطبقة الكادحة ، يناضل في صفوفها .

و ـ (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨) التقسيم والمقاومة الفلسطينية وحرب فلسطين : قيادة الفئة المتعلمة في جميع المواقع

للمقاومة الفلسطينية ومنها فرق النسف الفدائية واظهار التضحية المثلى .

روعي في هذا التقسيم اظهار السمات العامة لنشاط المتعلمين ضمن مراحل النضال ، وسيعتمد الآن على تصوير نشاطهم في كل مرحلة من المراحل .

١ ـ فرض الشباب العربي الشرقي نفسه على مجتمعه من خلال انضمامه للثورة العربية الكبرى وتحمل عبء بناء الدولة العربية الجديدة بعد الحرب في دمشق ، كما عمل على نشر العلم ، فسعى الى ايجاد مدارس جديدة وتوسيع القديم منها وفي الوقت نفسه نشر الوعي القومي لدى الجماهير . فوقف الشباب العربي دون تقسيم سوريه متحدا في رفض الاستعمار البريطاني وما سبقه من وعد بلفور . ونشأ عن هذه المرحلة الجديدة ، شعور قومي عارم لدى الشعب خصوصا لدى الفئة البرجوازية المتوسطة والصغيرة ولمست الفئات الكادحة اطماع الصهيونية والسياسة الاستعمارية : من حماس لدى الصهيونيين لشراء الاراضي وتشجيع الاستعمار لها ، وظهر لهم الخطر الصهيوني واضحا ايضا من خلال الهجرة اليهودية التي تزايدت كثيرا خلال هذه المرحلة . وساهم الشباب المتعلم خصوصا المطلع على اللغات الاجنبية في توضيح اهداف الصهيونية وماذا تفهمه الصهيونية من جملة « مسكن قومي لليهود في فلسطين » الذي يعني بالنسبة لها وطنا قوميا . كما سعى الى افهام الجماهير خيانة بريطانيه لوعدها ، الذي قطعته للشريف حسين ، ومؤامرتها مع فرنسه على تقسيم سوريه . ولعب افراد جمعية « العربية الفتاة »

السرية وتنظيمها العلني حزب الاستقلال دورا بارزا في اذكاء الشعور القومي ، ويمثل الشباب القسم الاساسي لهذين التنظيمين .

وكان من نتيجة هذه التعبئة السياسية ونتيجة استفزازات الصهيونية والاستعمار ان خرجت الجماهير وعلى رأسها الشباب المتعلم في تظاهرات صاخبة في القدس عام ١٩٢٠ تحولت الى ثورة شملت المدن الاخرى والريف ، وفي العام التالي خرجت يافا في تظاهرات احتجاجية ، تحولت الى ثورة عارمة في كل انحاء البلاد دامت خمسة عشر يوما . ولوحظ تصاعد التمرد عند العرب . وبدأ العرب يتظاهرون بمناسبة ٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، يوم وعد بلفور، وكان يتزعم المظاهرة تلامذة المدارس الذين زاد عددهم ، كما جاء سابقا ، وكانت المظاهرة تقابل بالرصاص من ادوات القمع الاستعمارية، وكان بين القتلى والجرحى عام ١٩٢٢ بعض الطلبة .

اهتم التلامذة منذ بدء الحركة العربية الحديثة بالعمل السياسي الاجتماعي، وقد ذكرنا في الفصل الاول، كيف ان بعض مستمعي الشيخ طاهر الجزائري ، سعوا الى تأليف حلقة صغيرة ، تفريقا عن حلقة الشيخ الكبرى ، وكانت هذه الحلقة الصغرى البؤرة الثانية ، بعد حلقات الجامعة الاميركية في بيروت ، في افراز حلقات الشباب السرية في اسطنبول وباريس والقاهرة ، وحتى في بيروت في الاوساط الاسلامية. ولكن الطلبة الصغار بعد الثورة العربية الكبرى وفي اوائل العشرينات، بدأوا ينضمون الى موجات النضال ، ومع التوسع افقيا في التعليم (الابتدائي اولي) وعاموديا هرميا (ابتدائي

اعلى ــ ثانوي) وزيادة تأثير جيل الشباب ، بدأ التلامذة في تزعّم التظاهرات والاضرابات ، الا ان تأثير هذه الحركة كان في الثلاثينات وخصوصا في الاربعينات في فلسطين .

٢ ــ بعد انهيار الحكم الفيصلي في دمشق وظهور المملكة العراقية وامارة شرق الاردن بدأ الشعب الفلسطيني في تغيير خطة كفاحه ، فبدأ يطالب بالحكم الذاتي في فلسطين ، كما بدأت العناصر الوطنية الشابة في تقليد خطة الملك فيصل وضم الوجاهة التقليدية الرجعية الى صف النضال الوطني الجديد ، تأكيدا لوحدة الامة ، فوسعت المؤتمرات الفلسطينية ما بين ١٩٢١ و ١٩٢٣ من عضويتها ، وادخلت تلك العناصر . وتعزز مركزها ، كما ذكر في الفصل السابق ، حين حلت علاقة الطبقة البرجوازية المتوسطة مع الكبيرة، نتيجة التكتيك التي ارادت الحركة الوطنية الفلسطينية استعماله من المطالبة عام ١٩٢٣ بالانتداب التركي للتأثير على بريطانيه . ولم يكن هذا التكتيك جادا ، اذ بدأت البرجوازية تنظر باحترام الى بريطانيه ، بعدما لمست سياستها الايجابية، في العراق وشرق الاردن .

مع تعاظم دور الوجاهة التقليدية وتسربها الى مراكز القيادة ، بدأ الشباب المتعلم من ابناء البرجوازية المتوسطة والصغيرة يتململ ، اذ عرفها دائما متملقة للحكم ، تحول خضوعها بسرعة من الحكم العثماني الى الحكم الاستعماري الجديد ، ساعية الى توطيد مركزها السياسي والاقتصادي. كما لم تكن فئة الشباب مقتنعة « بايجابية » الانجليز ، بل وجدت في قبول سياستهم تراجعا عن الاهداف الاستقلالية

الكاملة ، ولم ترض للشعوب العربية القبول بحكم ذاتي مبتور، يتدخل الاستعمار دائما بواسطته في شؤون العراق او شرق الاردن ، كما يسعى هذا الاستعمار الى دفع الوجاهة التقليدية الرجعية للاشتراك بتحمّل مسؤولية الحكم .

وشاهد جيل الشباب الجديد انقسام جيل الشباب السابق ، حيث جمد نشاطه التنظيمي ونسي بعضهم نضاله الوحدوي الاستقلالي السابق ، ليضع نفسه في خدمة الاستعمار والرجعية ، وخشي الشباب من نكسة في عملية التحديث لعودة قوة الرجعية التقليدية ، وفي نفس الوقت خشي من مظاهر التحديث الشكلية الآخذة بالانتشار سريعا .

كما بدأ الشباب يتلمس مشكلة الطبقة الكادحة وتناقض مصالحها مع مصالح الطبقات الوجيهة ، مما دعا هؤلاء الى عدم الاهتمام بمصالح الكادحين ، وفصل قضاياهم عن مجمل النضال الوطني . فبيعت الاراضي وشردت آلاف العائلات ، واذ بالطبقة الوجيهة تصدر احتجاجات خافتة ، لان قسما منها نشط في البيع والسمسرة ، ولم تستطع تغيير اسلوب التعامل فيما بينها ، كما ان دمغ بعضها بالخيانة خلال الصراع الشخصي لا يعني اكثر من استهلاك لفظي لا يلزم قائله بموقف كفاحي واضح .

فبينما قاوم الفلاحون اضطهادهم وسعى بعضهم الى انشاء العصابات الصغيرة للاغارة على المستعمرات الصهيونية، تقاسمت الطبقة الوجيهة مغانم القيادة فيما بينها ، وانتخبت

في المؤتمر السابع عام ١٩٢٨ لجنة تنفيذية تحتضن بعض العملاء والسماسرة والمرابين وبائعي الاراضي .

وادرك الشباب ان عليهم التحرر من نفوذ الزعامة التقليدية والطبقة الوجيهة ، فسعى الشيخ عز الدين القسام منذ عام ١٩٢٥ الى تهيئة الشباب للمرحلة النضالية الجديدة، اذ ادرك من خلال نشاطه كمعلم في المدرسة الاسلامية في حيفا اهمية القوى الجديدة النامية ، قوة الطلبة ووعيها السياسي ، ولمس تمرد الشباب على الوضع السياسي العام، فعزز من دعوته بدعمه لجمعية الشبان المسلمين التي ظهرت عام ١٩٢٨ .

ادرك الشباب الواعي عامة اهمية توجيه المجتمع العربي، من نشر التعليم وتربية الجيل الجديد ، وتوحيد مجهود الشباب في جميع النواحي السياسية والاجتماعية والرياضية ولكن الشباب لم يفكر في التمرد التام على القيادة السياسية ، وانشاء تنظيم سياسي خاص به ، بل سعت الاكثرية الى بلورة قوة ضاغطة تؤثر على الاحداث ، خوفا من انفراط عقد الوحدة الوطنية او « وحدة الامة » كما سميت . وهكذا اظهروا عدم رضاهم عن الاحزاب الجديدة التي ظهرت خلال تلك المرحلة . ولكن قسما من الشباب الواعي اجتماعيا، والذي رفع شعار مكافحته الاستغلال الداخلي الممثل في البرجوازية العليا خصوصا الطبقة الوجيهة، مع شعار مكافحة الاستعمار والصهيونية ، بدأ ينخرط في الحزب الشيوعي الفلسطيني ، ولكن عددهم كان ضئيلا في البدء ونسبيا ، لعدم وجود العداء الصريح من جانب الحزب للصهيونية ولوجهها

الاستعماري العنصري ، بل الاكتفاء بمحاربة الرأسمالية اليهودية .

٣ ـ جاءت حوادث آب (اغسطس) ١٩٢٩ . استغلت الجماهير الشعبية اعتداء الصهيونية على المصلين العرب وادّعاءهم بملكية البراق ، لتعلن ثورتها ضد الوضع العام ، ولتؤكد انها تنظر الى المستعمرين نظرتها الى الصهيونية ، عدوا طامعا في سلب حقوقها واسباب حياتها . وظهرت التنظيمات الشعبية بصورة واسعة ليحركها الشباب المتعلم، فعقد الطلاب مؤتمرهم في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٩ والعمال في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ ، وخلال ذلك عقد الشباب اجتماعهم في معظم المدن الفلسطينية ، معلنين سخطهم على الاستعمار والصهيونية وعلى العملاء والمنتفعين على حساب الشعب من اعضاء القيادة السياسية ومن الطبقة الوجيهة عامة.

اعلن الشباب المتعلم موقفه صريحا من الحركة الوطنية الفلسطينية مظهرا عجزها ، مطالبا بعقد مؤتمر وطني جديد يفصل جميع العناصر الخائنة لاماني الجماهير . فتداعى الشباب لمؤتمرات ، بداها في نابلس ، وانتشرت في جميع المدن والقرى ، وخرج من هذه المؤتمرات بقرارات توضح سير الكفاح ، اهمها اعلان الكفاح ضد بريطانيه ومقاطعة جميع اعمالها رسميا ، والعمل بجد لمنع تسرب الاراضي الى اليهود، ودعم الاقتصاد العربي .

ولكن قوة الشباب بدات تتحطم امام معطيات الواقع : ضعف حركة الشبان المسلمين بسبب منع حكومة الانتداب موظفي الدولة من الانتساب اليها ، خصوصا المعلمين ، واكثر

الشباب المتعلم يعمل في دوائر الدولة من حكومية وبلدية . كما سبب نشوء عدة احزاب الى توزيع مجهود الشباب ، او بالاحرى دعم هذا التشتت حب بعضهم التزعم على حساب وضوح الكفاح ووحدته. كما بدأ الانهيار يظهر من عدم تحقيق المقررات ، اذ وجد الشباب نفسه ، في نفس الجو الكلامي الذي عاشه اباؤه او جيل الشباب السابق . فاختفى الايمان بتكتل الشباب كقوة جديدة تحقق حقيقة فعلا ثوريا ، وبالرغم من هذه السلبيات اعطى مؤتمر الشباب نتائجه من حث الشباب على العمل الشامل المنظم .

غير ان هذه التجربة التكتلية ، امدت عددا من الشباب بالخبرة والوضوح ، ساعداها على تقوية النضال نسبيا فيما بعد ، وبدأ الشباب المتعلم يلتحم مع الطبقة الكادحة ويدرك الثورية الاصيلة المتوفرة لديها ، فنشأت الوحدة داخل تنظيم الشيخ عز الدين القسام، كما بدأ اهتمام الشباب بالعمل النقابي ، بالرغم من ان اهتمام قسم منهم جاء نتيجة سعيه لمكافحة التغلغل « البلشفيكي » في الاوساط العمالية. اذ بدأ اليسار العربي الفلسطيني يؤثر على الحركة العمالية ، بعدما اعلن تمرده على التوجيه اليهودي المهادن للصهيونية داخل الحزب الشيوعي ، فنظم نفسه مجددا متزعما الحزب وجاعلا مجلة « الى الامام » نموذجا قويا للارادة التحررية العربية المعادية للاستعمار والعنصرية الصهيونية وللبرجوازية العربية ، تنتقد الطريق الاصلاحي الضيق النظر للحركة الوطنية الاصلاحية .

وضاعف الشباب ، متحدا او منقسما الخطة السابقة

في دفع التنظيمات العديدة من طلابية وكشفية ونواد اجتماعية ورياضية ، وبعد ١٩٢٩ زاد الشباب المتعلم من ضغطه العام عن طريق التظاهرات المتتالية والدامية ، وبدأ يشعر بحتمية الصراع الدموي بينه وبين الاستعمار والصهيونية .

ازداد الخطر الصهيوني في فلسطين مع نمو عدد الصهيونيين بعد سنة ١٩٣٣ ، اذ تضاعف هذا العدد خلال ست سنوات ، كما بدأت تظهر بشكل اوسع التنظيمات الصهيونية ، عاملة بكل الوسائل لتسليح نفسها ، مدعومة من حكومة الاستعمار ، التي تممت ، بالرغم من الاحتجاجات العربية والثورات ، وعودها : سياسة الاستيطان ، وافساح المجال للصهيونيين ليصبحوا الاكثرية في فلسطين .

وفي تلك الاثناء ، ارتفع عدد التلامذة بشكل كبير ، خصوصا التلامذة في المدارس الوطنية ، اهمها المدارس الاسلامية ، واصبحت مدرسة روضة المعارف في القدس ومدرسة النجاح في نابلس ، ركنين اساسيين من اركان النضال . كما ضاعف المعلمون ، بعدما ازداد عددهم ، من نشاطهم السياسي في المدارس ، انعكاسا للوعي الشامل والقوي الذي حصل في تلك المرحلة .

٤ ــ بعد تظاهرات يافا في ١٧ نيسان (ابريل) ، وما ولدته الاحداث السابقة من تصميم عنيد لدى الشعب العربي في فلسطين خصوصا لدى الطبقة الكادحة والشباب المتعلم المخلص ، استقبل هذا الشعب دعوة شباب نابلس للاضراب بحماس منقطع النظير ، وكان هذا الاضراب بمثابة التهيئة

النفسية والتنظيمية للثورة ، اذ ظهرت اللجان القومية في كل مدينة وقرية ، وكوّن الشباب ، خصوصا الطلبة ، الحرس الوطني ، كما قوّى من تنظيمات « الفتوة » ، ونزلت مجموعات الكشاف الصغيرة الى ميدان النضال تقوم بأعباء الاسعاف خلال التظاهرات المتتالية ، التي زاملت الاضراب .

وبدأ الشباب المتعلم يكوّن الفرق الفدائية ، خصوصا في منطقة القدس ، وعندما ظهرت العصابات الفلاحية في الجبال انضم اليها ، عاملا تحت لوائها . واستقال بعضهم من وظائفهم الحكومية ، ليلتحقوا بالثورة ، او احتجاجا على سياسة الحكومة . وهكذا تحقق الالتحام بين الفئة المتعلمة والجماهير الشعبية الكادحة والامية ، وبدأت هذه الجماهير تشعر بمثالية وتضحية الشباب المتعلم ، وكانت سابقا تخشى منه ، لانه المستفيد الوحيد من النشاط الحكومي ، اذ توظف اكثرهم لدى الحكومة . ولكن الطبقة الكادحة ادركت اهمية التعليم ليس فقط لرفع المستوى الحياتي للعائلة ، بل ايضا ، لتنظيم النضال ورفع كفاءته ، وادركت الفارق بين الوجيه التقليدي الانتهازي ، المستعد للتنازل وقبول انصاف الحلول ، وبين الشاب المتعلم المثالي ، المحترم لنضال الطبقة الكادحة والمتمسك بشدة بأهداف النضال الوطني .

وبعد توقف الثورة ، لوحقت قياداتها وكوادرها ، فأعدم بعضهم بحجة حمل السلاح ، وهرب آخرون الى الخارج ، وعندما اراد الاستعمار البريطاني عام ١٩٤١ تغيير الوضع في العراق ، بعد تسليم رشيد عالي الكيلاني رئاسة الوزارة ، كوّن الشباب الفلسطيني اللاجىء في العراق فرقة

بقيـادة عبد القادر الحسيني وكان عددهم ١٣٦ مناضـلا ، واشتركوا في معركة الحبانية ، وكان التقاؤهم مع انقـلاب العراق اساسيا :

اولا : لان الشباب العربي اكد وحدته في ثورة عـام ١٩٣٦ ، حيث وفد الى فلسطين شباب عربي من جميع الاقطار العربية ، ويجب تثبيت هذه الوحدة في محاربـة الغـزو البريطاني للعراق .

ثانيا : لان المعركة ضد الاستعمار واحدة ، فكما ينظـر الاستعمار البريطاني الى المشرق العربي كوحدة ، يسعى مرة الى تقسيمها ومرة الى اظهار وحدتها (كتدخل الامراء والملوك في ايقاف الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٧) ، على الحـركة التحررية العربية النظـر الى العدو الاستعماري كمؤسسة واحدة ، يجب القضاء على نفوذها المباشر وغير المباشر .

٥ ـ تأكد بعد عـام ١٩٤٢ التطور الجديد للجماهـير المتعلمة ، فزالت فكرة توحيد الشباب المتعلم تماما ، فالصراع الاجتماعي بدأ يأخذ مجراه بشكل ايديولوجي قوي ، ونمـا عدد اعضاء عصبة العمل القومي ، كما شارك هذا الشبـاب وغيره في دعم العمل النقابي ، حيث جـرت بين اقسامـه محاورات فكرية ، لاظهـار الاسـتراتيجية الجديدة للعمـل النقابي ، واظهار الاسـتراتيجية القومية للجماهير التقدمية . ظل قسم من الشباب ملتحما مع الحزب العربي ، لمعاداتـه للاستعمار البريطاني ولوجود بعض العناصر المخلصة فيه ، ومع ذلك كان الشباب الفلسطيني ، يشعر بتناقض وتقصير في الحركة الوطنية ، فما زالت عناصر البرجوازية العليـا ،

متزعمة للعمل الوطني ، ولم تستفد كثيرا من عبرة الثـورة الكبرى ، فظلت على انقسامها بل زادت سعة هذا الانقسـام نتيجة للثراء الذي حصل خلال الحرب ، فألهاها عن بقـاء وعيها الوطني ، وساعد هذا التناقض ، الغياب المؤقت للحركة الصهيونية من سنة (١٩٤٢ ـ ١٩٤٤) ، وتزلف الاستعمار للعرب بعد عام ١٩٤٢ ، سعيـا وراء كسب مناصرتهم له في الحرب وتجنبا للاضطرابات، التي قد تضر بموقفه العسكري.

بدأ الشباب الفلسطيني يتحرر من القيادة السياسية السابقة ، وساعده وجود اكثر هؤلاء الزعماء في المنفى على الاسراع في هذا التحرر ، غير انـه لم يستطع تكوين تنظيم خاص به ، فانشئت النجادة واعيد تكوين فرق الفتوة، وتكونت فرق سرية اخرى ، غير ان نمطا جديدا من العمل النضـالي لم يظهر تماما ، فلذا لم يكن نقد الجيل الجديد للعمل الوطني الا اعادة للانتقادات السـابقة ، ولكن الفارق بين الجيل الحالي والجيل السابق، ان الجيل الحالي استمد من النضال الشعبي السابق وعيا ، وادراكا متزايدا بحمـل السلاح ، وحتميـة المعركة ، فسعى الى تحضير نفسـه ، ولكن لم تسعفه قيمه ، المستمدة من المجتمع التجاري ، في تنظيم نفسـه والتخطيط للنضال القادم .

بعد عام ١٩٤٢ بدأت الفئة « المثقفة » تظهر ، اعني بها خريجي الجامعات ، وقد ازداد عددهم كما جاء في الفصل الثاني ، وبداوا يكوّنون حلقات في المدن ، يتأجج في صدور الاكثرية منهم وعيا وطنيا عاليا. لكن جلهم كان من ابناء البرجوازية العليا، يأنف معظمهم من الالتحام بالجماهير ، ويستمد زعامته من

رباطه العائلي ، ولم تتوفر وحدة فكرية فيما بينهم ، خصوصا فيما يختص بالسياسة التي يجب اتباعها تجاه الاستعمار . فكثيرون منهم اعتقد ان العمل مع الحلفاء سيجلب عطفهم على القضية العربية ، ورفضوا تحليل الظاهرة الاستعمارية بجميع جوانبها . فانشأ بعضهم المكتب العربي في القدس وفي بعض العواصم العربية ، كما سعوا الى مؤازرة الفلاح عن طريق المشروع الانشائي لوقف بيع الاراضي .

وجدت الاكثرية من الشباب العربي املا بانشاء الجامعة العربية ، فالتفكير الوحدوي الذي راود الاجيال الحديثة بعد زوال الدولة الفيصلية في دمشق حقق ثمرته الاولى في هذه الجامعة ، وعمّ الحماس كثيرا من الاوساط ، ولفقدان التفكير الثوري السليم ، خفي عن بعضهم سلبيات هذه الجامعة بالرغم من ايجابيتها ، خصوصا المعنوية ، فتوجهت الانظار شطر الجامعة منتظرة كل شيء منها حتى تسمية اعضاء الهيئة العربية العليا . اي بدات الوصاية على العمل العربي الفلسطيني ، وقبلت الاكثرية في فلسطين هذه الوصاية تحت شعار « توحيد الامة » .

رفض البطل عبد القادر الحسيني ومعه بعض الرفاق، مبدأ الوصاية الكاملة ، بل الحوا على حرية العمل للشعب الفلسطيني ، وسعوا الى انشاء جيش الجهاد المقدس ، وتوحيد السياسة العسكرية الفلسطينية ، وانضم عدد من الشباب المتعلم الى هذا الجيش، وشجّع عبد القادر انضمامهم، معتمدا عليهم في تنظيم الجيش وادارته ، وهكذا شاهدت فلسطين لاول مرة وبشكل واسع ، قيادة الشباب المتعلم

للكفاح المسلح وبعضهم لم يكمل الخامسة والعشرين من عمره.

نمت في تلك الاثناء اعداد الطلبة خصوصا في الصفوف العليا ، وتعاظم نضالهم الطلابي الرسمي والعام ، حيث انضم الكثيرون بعد ذلك الى المقاومة الفلسطينية عام ١٩٤٧ ، غير انه لم يحسن الاستفادة من هذه الاعداد الكبيرة .

٦ — ثار الشعب العربي الفلسطيني ، منذ قرارات التقسيم ، وحمل السلاح ، وكان قد حصل عليه اما عن طريق اموال بيت المال العربي او فرديا ، وفي جميع الاحوال كان الشعب الكادح عماد التسلح والتبرع : « من المحزن ان نسجل ان الكثيرين من الاثرياء وكبار الملاك والتجار في فلسطين ، بوجه عام ، لم يقدموا على التبرع لبيت المال العربي كما كان ينتظر منهم ... بل كان الكثيرون منهم يتهربون من دفع المال ويحاولون التخلص من هذه الضريبة الوطنية ... » (١) . كانت تضحية هذا الشعب سخية ومخلصة ، غير ان المعطيات التنظيمية والايديولوجية والاتكال على الجامعة العربية ، لم توفر الجو السليم لمقاومة عنيدة وطويلة الامد . وشعر الشباب بالتخبط الكبير في قيادة الكفاح خصوصا بعد مقتل عبد القادر الحسيني ، وما سبق ذلك حين انشاء اللجان القومية ، من فرض الوجاهة التقليدية لزعامتها ، في غياب عمل ديموقراطي شعبي . واخذت هذه الوجاهة تتقرب الى هذه الجهة او الاخرى ، فبعضها رفض قيادة عبد القادر الحسيني ، واخذ يتقرب الى القيادة التي عينتها الجامعة العربية ، ومنها من

١ — الغوري ، اميل ، **المرجع السابق** ، ص ٢١ .

بدأ يربط نفسه بهذا الملك او بالآخر، انعكاسا للصراع الداخلي في الجامعة العربية .

انهزم العرب وشرّد قسم من الشعب الفلسطيني ، واخذ الشباب مع التشرد تمردهم واستنكارهم وتصميمهم على العودة . ووجد الشعب عامة من خلال بؤسه ويأسه ، املا في الشباب المتعلم والجيل الصاعد ، وجله من الطلبة ، ووجد مع الوقت على محياهم وفي تصرفهم تمردا كاملا ، وحقدا خلاقا ينمو معهم ويوقدونه اضعافا في الاجيال المتلاحقة .

ثانيا : الالتقاء والتنظيمات التي اوجدها الشباب المتعلم خلال عهد الانتداب

تضمنت الفقرة السابقة تحليلا عاما لممارسة الشباب النضالية ، ومن خلاله تحدثنا بعض الشيء عن التنظيمات والاطارات التجمعية التي اوجدها لنفسه ، ولكننا لم نتطرق اليها باسهاب بالنسبة :

– الى رفع القدرة النضالية لدى الشباب .

– الى تصحيح او اكمال النظام التربوي في المصارف والمدارس الاهلية والاجنبية .

ومن خلال هاتين النقطتين الاساسيتين سنسعى في الفقرة الحالية الى تحليل التنظيمات التي اوجدها الشباب خلال عهد الانتداب . وسنحصر البحث في ستة انواع من النشاط : ١) النوادي الثقافية والجمعيات ، ٢) الاحزاب

والنقابات ، ٣) التجمع الطلابي ، ٤) الكشافة ، ٥) النوادي الرياضية ، ٦) تنظيمات الشباب . وسيجد القارىء نقصا في المعلومات ويرجى المعذرة ، لعدم توفر صورة واضحة لجميع هذه التنظيمات واللقاءات ، وقد يكون هذا البحث قد اهمل بعض النشاطات المهمة ، كما لم تتوفر صورة كاملة عن تأثير هذه النشاطات وتطورها ، ويؤمل من الحديث عنها ايجاد اهتمام بأمرها ، يفتح الطريق امام مزيد من المعلومات الهامة التي تشكل مقدمة التطور الحالي ، اذ ليس لدى الشعوب تاريخا مجزءا ، ينفي وجود العلاقة بين الحقب التاريخية .

١ – سيبدأ الحديث عن النوادي ، ليس فقط لان النشاط العربي الملتزم في عصر النهضة ان كان ثقافيا او سياسيا ، بدأ فعليا مع انشاء النوادي او الجمعيات العلنية ، فكما ذكر سابقا اخذ المنتدى العربي في اسطنبول فكرته من الجمعية العلمية السورية، وعلى منوال المنتدى انشىء النادي العربي في دمشق خلال العهد الفيصلي ، بل ايضا لان اهم نشاط جماهيري منظم في فلسطين بدأ مع انشاء النوادي العربية في القدس في اوائل العشرينات تمثلا بالنادي العربي في دمشق . وكان الهدف من هذه النوادي تشجيع الالتقاء بين الشباب ومناقشة الامور العامة . ووجد الشباب في هذه النوادي مجالا للالتقاء فيما بينهم ، خصوصا ان العمل الحزبي الذي نما بعد عام ١٩٠٧ واتسع خلال الحرب ووصل اوجه في عهد الدولة العربية في دمشق ، بدأ يتقلص نتيجة الانقسامات الداخلية ودخول عناصر انتهازية بتشجيع من بعض المسؤولين والمتنفذين في الحكومة العربية . وقضى

احتلال دمشق من قبل الافرنسيين على الوحدة الشكلية لحزب الاستقلال ومعه التنظيم السري « العربية الفتاة » .

ورفض الاعضاء الفلسطينيون من شباب حزب الاستقلال تحقيق تنظيم خاص بهم ، وبقي بعضهم في عمان يناضل في سبيل تحقيق الدولة العربية هناك .

ولعب شعار « وحدة الامة » دورا كبيرا في تجميد الوضع ، اذ فرضت المؤتمرات الوطنية السبعة على الحركة السياسية الوطنية التقيد بمقرراتها ، والتجمع حول اللجنة التنفيذية ، واستطاعت اللجان المحلية في السنين الخمس الاولى (١٩١٩ – ١٩٢٣) احتواء النشاط العام ، غير ان نشاطها تراجع بعد الجمود في الحركة الوطنية الرسمية ، ولذا لم يكن امام الشباب العربي الفلسطيني الا زيادة نشاطه على صورة نواد .

وفي تلك الاثناء ازداد نشاط الادارة الاستعمارية ، في احتواء الشباب الفلسطيني خصوصا المسيحي منه ، بدعم جمعية الشبان المسيحيين التي كان يتزعمها بعض الموظفين الانجليز وتموّل من الخارج ، وعهد الاستعماريون الى هذه الجمعية القيام بنشاط تبشيري تجاه الشباب المسلم خصوصا موظفي الحكومة . وقد نشطت هذه الجمعية في مضمار النشاط الاجتماعي الفكري ، فكانت مراكزها نوادي وضعت لها البرامج القومية . وقابل الكثير من الشباب العربي المسيحي بالشك نشاط هذه الجمعية ، فسعى الشباب الارثوذكسي الى انشاء الجمعيات الارثوذكسية ، وكان الصراع ضد الاكليروس اليوناني قد هيأ الجو لظهور هذه الجمعيات ، والتي احتوت

خصوصا منذ اوائل الاربعينات على الكثير من النشاطات اهمها النشاط الفكري الوطني عن طريق المحاضرات الدورية وظلت هذه الجمعيات تزداد وتقوى حتى اواخر عهد الانتداب. ولا بد من التنويه ان الشباب العربي الفلسطيني المنتسب الى جمعية الشبان المسيحيين لم يكن راضيا عن توجيه الانجليز لها . فوضعوا في اوائل الثلاثينات دستورا يتناقض واهداف الانجليز ، مما دعا هؤلاء الى رفضه .

وكان رد فعل الشباب المسلم ضد هذه الجمعية في انشاء جمعية الشبان المسلمين : « تنظيم شؤون الشباب الاسلامي وجمعه في حلقات ادبية وتوثيق عرى الصداقة والالفة بين افراده ، ورفع مستوى ثقافته بالقاء المحاضرات العلمية والادبية ، ومساعدته على اتمام تعليمه وتحسين مركزه بما يتيسر لها من الوسائل الادبية والمادية . وستهتم كذلك للشؤون الصحية والرياضية والكشفية والفنية اهتماما وافيا » (٢) . ونشطت هذه الجمعية في ثلاث السنين الاولى، وكان فرع حيفا من اقوى الفروع، اشترك في تنظيمه ونشاطه الشهيد الشيخ عز الدين القسام ، عاملا على توعية الشباب وتوحيد كلمتهم ، كما جاء سابقا ، ولمست حكومة الاستعمار بعد ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ خطر هذه الجمعية على مصالحها ، اذ تحت غطاء النشاط الاجتماعي الشكلي، حصرت هذه الجمعية النشاط السياسي ورفعت شعار العداء ضد الاستعمار الانجليزي بدل حصره بالصهيونية . ولما كان اكثر

---

٢ – الوثائق : دستور جمعية الشبان المسلمين ، ص ١٠١ – ١١١ .

اعضاء هذه الجمعية من موظفي الحكومة ومن ضمنهم معلمو مدارس المعارف ، اصدرت حكومة الانتداب قرارا بمنعهم من الانتساب الى هذه الجمعية ، مما افقرها الى المورد الاكبر من رسوم الاشتراك . كما لعبت الوجاهة التقليدية دورا في انهاء نشاط الجمعية ، اذ لمست تكتلا معاديا لها ضمن اعضائها ، فأوجدت الخلافات مثل الخلاف في فرع الجمعية في عكا ، ووجد الاستعمار منفذا آخر لتحطيم الجمعية ، فتدخل في امورها واخذ يسعى الى زيادة الخلاف تحت شعار التحكيم الرسمي في الخلافات . وخف نشاط هذه الجمعية بعد عام ١٩٣٣ ليتلاشى تدريجيا بعد ذلك ، وساهم نشوء الاحزاب المتعددة عام ١٩٣٤ وانضمام الشباب الى هذه الاحزاب وما اوجدته من تنازع فيما بينهم الى تحقيق هذا التلاشي في نشاط الجمعية وتجميد جميع اعمالها . ولم تجدد اعمالها بعد عام ١٩٤٢ .

وفي خلال الحرب نشطت نوادي عصبة التحرر الوطني، واخذ يرتادها الشباب التقدمي ، وتختلف هذه النوادي عن النوادي السابقة ، بكونها متحررة من الصبغة الدينية ومن تأثير البرجوازية الكبيرة .

٢ – خلال مرحلة الركود (١٩٢٣ – ١٩٢٩) اراد بعض الاشخاص تكوين الاحزاب ، غير ان ادانتهم بالعمالة من قبل الحركة الوطنية عزل نشاطهم وتعثرت خطاهم ولم يدم عملهم الحزبي طويلا ، ولكن لم يكن الكثيرون من اعضاء المؤتمرات الوطنية خصوصا المؤتمر السادس والسابع وما نتج عن الاخير من لجنة تنفيذية موسعة تضم ٤٨ عضوا ، احسن حالا

من هؤلاء « العملاء » . انتقد الشباب ، انتساب العملاء والسماسرة للقيادة السياسية، وجمود نشاط اللجنة التنفيذية وما نتج عن ذلك من تفكك في الحركة الوطنية ، وادرك في الوقت نفسه استحالة العمل على النهج السابق ، حيث استغلت الوجاهة التقليدية فقدان العمل الجماهيري للتزعم، وهكذا عارضت كل عمل لا يتلاءم ومفهومها للعمل السياسي وما يخفيه من تأمين لمصالحها المادية . وتأكد للشباب بعد ثورة ١٩٢٩ ، كما جاء سابقا ، ان الاعتماد على هؤلاء الزعماء معناه شل الحركة الوطنية الفلسطينية وضياع مزيد من الاراضي والحقوق، وتأكدت اهمية تجمع الشباب فدعي شباب البلاد الى مؤتمرات لتنظيم العمل . ويصف عيسى السفري الاهمية التاريخية لحركة الشباب هذه بقوله : « لا يسع مؤرخ الحركة الوطنية في فلسطين الا ان يفرز فصلا خاصا يبحث فيه باسهاب حركة الشباب العربي الفلسطيني ، وذلك لان هذه الحركة هي اول عمل منظم يقوم به شباب العرب ، وليس في فلسطين وحدها ، بل وفي الاقطار العربية الشقيقة ، لانه على مستقبل هذه الحركة تتوقف نتائج هامة ، لها علاقة بمستقبل الامة ومصير البلاد .

واول عمل قام به الشباب العربي الفلسطيني عقد مؤتمر لهم في يافا يوم ٤ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٣٢ برئاسة السيد راسم الخالدي ، ضم شباب البلاد على اختلاف مبادئهم ونزعاتهم ، وبحث في مسائل هامة كالتعليم القومي ، وتشجيع المصنوعات الوطنية ، ومشروع صندوق الامة، وغيرها من المسائل التي تتعلق بشؤون البلاد الاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، وبنوع خاص الحركات الرياضية

والكشفية . واتخذ المؤتمر في ختامه ميثاقا وطنيا خطيرا جعله ميثاقا عاما لشباب فلسطين العرب هذا نصه :

ميثاق مؤتمر الشباب العربي :

١ ـ ان البلاد العربية وحدة تامة الاجزاء ، وكل ما طرأ عليها من انواع التجزئة لا تقره الامة العربية ولا تعترف به .

٢ ـ توجيه الجهود في كل قطر من الاقطار العربية الى وجهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة كل فكرة ترمي الى الاقتصار على العمل للسياسة المحلية الاقليمية .

٣ ـ بما ان الاستعمار بجميع اشكاله وصيغه يتنافى كل التنافي مع كرامة الامة العربية وغايتها العظمى فان الامة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها .

٤ ـ اراضي فلسطين برمتها اراضي عربية مقدسة وكل من سعى او سمح او ساعد ببيع كل او جزء من هذه الاراضي يعد مقترفا خيانة عظمى » (٣) .

يشعر المرء من التفاصيل التي اعطاها عيسى السفري عن حركة الشباب ، رغبتهم في تجديد الحركة الوطنية والعمل على جميع الجبهات للنهوض بالمجتمع الفلسطيني ودعم قوة نضاله ، وتتأكد هذه الارادة في انشاء مكتب المؤتمر وفتح فروع في يافا ، الرملة ، اللد ، غزه ، المجدل ، الخليل ، بيت لحم ، طولكرم ، حيفا ، عكا ، صفد ، طبريه ، الناصرة ، الحولة ، بيسان ، بيت دجن ، جزين ، سلمه ، كفر قرع .

٣ ـ السفري ، عيسى ، **المرجع السابق** ، ص ١٩٥ .

وغيرها من المدن والقرى . وفي المؤتمر الثاني الذي عقد في ١٠ ايار (مايو) ١٩٣٥ ، وضع برنامج العمل ، « وقد نحا الشباب في مؤتمرهم هذا ناحية موفقة، اذ انهم اعدوا جميع ابحاثهم ومقترحاتهم بعد دراسة عميقة » . وستحلل قرارات هذا المؤتمر في الفقرة الرابعة كنموذج لاستراتيجية الشباب في تلك المرحلة .

ونشط المؤتمر بين ١٩٣٢ و ١٩٣٦ في تنظيم المهرجانات الكشفية والرياضية المركزية ، اشترك فيها الالوف من الشباب العربي .

اراد رعيل الثورة العربية تجديد نشاطه خصوصا بعد المؤتمر الجانبي ، الذي عقده بعض رجالات الثورة العربية خلال المؤتمر الاسلامي عام ١٩٣١ ، فأنشأ عام ١٩٣٢ حزب الاستقلال في فلسطين ، وبدأت فكرته تراود تفكير بعض الرجالات منذ فشل ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ ، « واخذت الفكرة تتبلور ، وجرت الاتصالات بين عدد من المعنيين . وكانت في فلسطين فئة مهيأة اكثر من غيرها لمثل هذا العمل، لممارستها العمل الحزبي سويا في السابق ، ولتقاربها في السن والثقافة والمستوى الاجتماعي » (٤) . ونشط هذا الحزب خصوصا في عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ، في دفع النضال الوطني والدعوة الى مهرجانات كبيرة في جميع انحاء فلسطين . ولم يدم الحزب طويلا (٥) ، اذ بسبب تشدده في قبول عناصر جديدة

٤ ـ علوش ، ناجي ، **المرجع السابق** ، ص ٧٧ .
٥ ـ دروزه ، عزة : **القضية الفلسطينية ، المرجع السابق** ، ص ١٠٨ .

او بالاحرى حصر الانتساب « بالزملاء القدامى » ، وبسبب التناقضات الداخلية ، بين رافض الوجاهة التقليدية ومثله الجناح التقدمي في الحزب وبين فريق غير متشدد تجاه تلك الوجاهة انجرف مع الوقت في خضم منازعاتها .

وتجمّع بعض الشباب المؤيد للحاج امين الحسيني في الحزب العربي ، وكان ينظر في الاوساط الشعبية الى فئة المجلسيين ، اي الفئة المتزعمة للمجلس الاسلامي الاعلى على كونها الفئة الوطنية ، اذ جمع حزب المعارضة الكثير من العناصر المتعاملة مع البريطانيين بشكل ظاهر ، كما تجمع في حزب الدفاع الوطني الممثل للمعارضة الكثير من عناصر الوجاهة التقليدية الرجعية ومن السماسرة والمرابين، وبالرغم من تزعم الوجاهة التقليدية خصوصا من العائلة الحسينية المقدسية للحزب العربي ، الا ان الكثير من الشباب اعتقد انه يدعم الحاج امين ، تدعيما للجناح المتشدد من الاستعمار البريطاني في الحركة الوطنية، خصوصا بعد الانتخابات البلدية عام ١٩٣٣ وظهور حزب المعارضة عام ١٩٣٤ ، ومما يجدر ذكره ان الحاج امين لم يكن معاديا اصلا للاستعمار البريطاني (٦) ، اذ آمن بامكانية التعامل معه وكسب تأييده لتحقيق الحكم الذاتي العربي في فلسطين ، ولكنه بعد ثورة ١٩٢٩ وموقفه المتشدد من المعارضة دعا الى رفع شعار التشدد ومحاربة البريطانيين .

وجدد الحزب العربي بعد عام ١٩٤٢ نشاطه واعاد فتح مكاتبه في المدن والقرى الفلسطينية واعاد انشاء فرق الفتوة

٦ ــ مراجعة : الغوري ، اميل ، **المرجع السابق** ، ص ٧٠ .

التي حلها الاستعمار عام ١٩٣٧ ، واعيد فتح الاندية الرياضية وتقوية الفرق الكشفية ، غير ان الحزب لم يفهم التطور الذي حصل بعد الثورة الكبرى ، حيث بدأ الشباب يرفض قيادة الطبقة الوجيهة للعمل الوطني ، وميلها الدائم للحلول الوسطية وعدم الجدية في التنظيم. كان مستعدا ان يقبل برئاسة الحاج امين لماضيه الكفاحي، غير انه لم يرض ابدا بمجمل زعامة القيادة التقليدية ، وبدأ الخلاف ينمو بشكل كبير داخل الحزب ، بعد الانقسام الذي حصل نتيجة قبول اكثر اعضاء المكتب التنفيذي ، وعلى رأسهم جمال الحسيني الاتصال باللجنة الانجلو ـ الاميركية ، قبل الافراج عن جميع المساجين ، وقد رفض بعض الشباب الاجتماع اصلا بهذه اللجنة ، لانه رأى انه ليس هناك فائدة من تحقيقاتها وهذا مما اكدته المناسبات السابقة ، وسنتحدث لاحقا عن هذه النقطة .

ومع ظهور النقابات العربية القوية خلال الحرب خصوصا بعد عام ١٩٤٢ ظهرت التنظيمات السياسية المرتبطة بها او بالعكس ارتبطت النقابات بالتنظيم الحزبي ، فكما ذكر سابقا ، سعت عصبة التحرر القومي الى تقوية التنظيم النقابي وكونت هكذا جبهة عمالية : « وكانت هذه الجبهة العمالية اليسارية تقاوم في الحقيقة جميع الاحزاب السياسية ، وتتهمها بالرجعية وباتباع الاساليب القديمة في الكفاح والنضال » (٧) . وتعاملت هذه العصبة في البدء مع الحزب العربي ثم افترقت عنه .

ونشطت جمعية العمال العرب سياسيا ، غير ان محور

٧ ــ **نفس المرجع** ، ص ١٣٥ .

عملها الاساسي كان الدفاع عن مصالح العمال ، ولكن يتضح من شهادة سامي طه امام اللجنة الانجلو ـ اميركية اهتمام العمال بالسياسة : « لقد نشأت حركتنا النقابية في جو سياسي ، هدفه الوحيد مقاومة الاستعمار والصهيونية . ونحن كنقابيين ليس لنا في الماضي ، ولا في الحاضر هدف سياسي غير مقاومة الاستعمار والصهيونية ، ولذلك استمر العمال كأفراد يناضلون مع امتهم سياسيا ، وكجماعة يناضلون اقتصاديا لرفع مستواهم » (٨) . ويؤكد ناجي علوش « كانت شهادة سامي طه ، رئيس جمعية العمال العرب ، اهم الشهادات واعمقها . تناولت الشهادة الجانب النقابي ، كما تناولت الجانب السياسي » (٩) . وسعى سامي طه عام ١٩٤٦ الى انشاء حزب عمالي ولكن اغتياله وقف دون تحقيق الامنية .

ويستدل من نشاط الشباب المتعلم في الحقل النقابي ـ السياسي عن تغيير لا بأس به في النضال التحرري الفلسطيني ، لادراك اعداد متزايدة من فئة الشباب ، خصوصا من افراد البرجوازية الصغيرة ، ان النضال وحدة لا تتجزأ نضال اجتماعي ـ سياسي ، فاصالة النضال هي في وضوح الرؤية وبلورة استراتيجية توحد الجماهير الكادحة في ظلها وتقودها في حرب التحرير ، وذكر في مجال الحديث عن الطبقة العمالية ، ان هذا الخط الجديد ، لم يستطع فرض

٨ ـ الشقيري ، جميل : **مجموعة الشهادات والمذكرات المتقدمة الى لجنة التحقيق الانجلو ـ اميركية** ، عكا ١٩٤٦ ، شهادة سامي طه ، ص ١٢٨ .

٩ ـ علوش ، ناجي ، ص ١٣٨ .

رأيه ، لاسباب ذاتية وموضوعية بحثت في حينها ، وسنتحدث عنها في الفقرة الرابعة من هذا الفصل .

٣ ـ ذكرنا سابقا نشاط الطلبة في اوائل العشرينات وخروج بعضهم من حيفا عام ١٩٢٣ ، خلال تظاهرة ضد وعد بلفور ، واصبحت المظاهرة السنوية ضد وعد بلفور مناسبة لزيادة تعبئة شعور التلامذة والطلبة العرب ، وتزعمت الكلية العربية عام ١٩٢٥ مظاهرة صاخبة ضد زيارة بلفور بمناسبة افتتاح الجامعة العبرية ، فاغلقت هذه الكلية لعدة اسابيع ، وافتتحت بعدما تعهد الطلبة خطيا بعدم تكرار ذلك (١٠) . وتوفر لهذه المدرسة سبل تزعم الحركة السياسية في مدارس المعارف اذ احتوت على جميع الصفوف الثانوية خلال القسم الاول من عهد الانتداب ، زيدت اليها بعد ذلك سنتان اضافيتان ، كما جاء في الفصل الثاني ، وكانت ندوتها الادبية عنصرا فعالا في اذكاء الروح الوطنية لدى الشباب والتعمق في التاريخ والادب العربي بمؤازرة بعض اساتذة المدرسة .

وفي تلك الاثناء بدأ الاهتمام من قبل بعض الشباب المتعلم والملتزم في توعية التلامذة ثوريا واذكاء روح المسؤولية فيه . ذكر سابقا اهتمام الشيخ عز الدين القسام في توعية تلامذته في المدرسة الاسلامية في حيفا ، كذلك اهتم حمدي الحسيني بادخال التلامذة الصغار الى حلقاته السرية (١١) وكان يريد انشاء حزب ، بعدما افترق عن الحزب الشيوعي

١٠ ـ مراجعة : طيباوي ، **المرجع السابق** ، ص ٢٠٠ .

١١ ـ النفير : ١٢ ايار (مايو) ١٩٢٩ .

الفلسطيني ، وما هذه الاستشهادات الا نماذج لتوعية الجيل الجديد ، اذ بالرغم من عدم تحبيذ حكومة الاستعمار لنشاط معلمي المدارس في المحيط الوطني، الا ان بعضهم في خلوتهم مع تلامذتهم ، اخذوا يوقدون الحماس الوطني فيهم وينمون حقدهم على الاستعمار والصهيونية. وكانت المدارس الاهلية الوطنية خصوصا مدرسة روضة المعارف ومدرسة النجاح قدوة لمدارس المعارف ، في نشاطها الوطني .

ولمست حكومة الانتداب آثار توعية التلامذة ، بما افرزته ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ وما تلا ذلك من ظهور عنصر الشباب وتطرف التلامذة ، ولذا عمدت الى منع معلمي المعارف والموظفين الرسميين عامة العمل في التنظيمات الوطنية . « وكانت قوانين الحكومة عامة وتشريع التعليم لسنة ١٩٣٢ خاصة تخوّل مدير المعارف صلاحية طرد المعلمين على اساس عدم الولاء وكانت هذه التشديدات كفيلة ان تكبح من نشاطات المعلمين وتذكرهم بسيف الحكومة المسلط» (١٢).

وعقد الطلبة اول مؤتمر لهم بعد ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ مباشرة في ١٢ ايلول (ديسمبر) (١٣) دعي اليه الطلبة الفلسطينيون في الجامعة الاميركية في بيروت ، وعقد المؤتمر الثاني في الصيف التالي (١٤) . غير ان الخوف من اضطهاد الحكومة وتأثير ايديولوجية البرجوازية العليا ، ومعظم طلبة الجامعة الاميركية يأتون منها ، قد افرغا قرارات هذين

---

١٢ ـ عبد القادر ، يوسف ، **المرجع السابق** ، ص ٢٠٥ .

١٣ ـ النفير : ٢٣ ايلول (ديسمبر) ١٩٢٩ .

١٤ ـ النفير : ١٢ آب (اغسطس) ١٩٣٩ .

المؤتمرين من محتواهما ، فنجد التفكير الوسطي في القرارات الخمسة الاساسية في مقررات المؤتمر الاول :

« ١ ـ الغاء وعد بلفور الجائر الغاء باتا .

٢ ـ الاسراع في عقد المؤتمر الثامن .

٣ ـ المطالبة بالحياة النيابية .

٤ ـ ارسال وفد الى اوروبه يمثل البلاد ويطلع الشعب الانجليزي على اعمال رجال حكومته .

٥ ـ ايقاف سيل المهاجرة الصهيونية » .

وطالب البيان « الضرب على ايدي تلك الفئة الخبيثة ـ فئة السماسرة » . ويظهر التناقض في البيان ، عندما يتقدمون في البدء من الامة من اجل « حمل الحكومة بالوسائل المشروعة على البر بوعدها الذي قطعته سنة ١٩١٥ » وفي آخر البيان يطلب من هذه الامة البقاء « متحدة ملتحمة حتى تثبت للعالم اجمع ان في فلسطين شعبا عربيا لن يتوانى عن لفظ نفسه الاخير في سبيل حريته واستقلاله » .

ولكن مع ضراوة النضال خصوصا مقاومة الطبقة الكادحة افرادا وجماعات للاضطهاد الصهيوني الاستعماري، وزيادة عدد الطلبة الثانويين ودخول اعداد كبيرة من الشباب المتعلم نسبيا معترك الحياة ، ازداد الوعي لدى الجيل الجديد، خصوصا بعد ظهور نشاط الشباب المنظم واتساع التهجم على السياسة الاستعمارية .

ويجب التنويه ان المؤتمرات الطلابية أتت موازية لنشاط

التلاميذ في المدارس وليست موجهة لهذا النشاط ؛ اذ لا يستطيع اي مؤتمر توجيه تلامذة المدارس خصوصا مدارس المعارف علنا خوفا من الملاحقة ، كما ان صغر عمر هؤلاء التلامذة او الطلبة لم يسعفهم في احكام التنظيم بانفسهم ، ولذا كانت تظاهراتهم واضراباتهم انعكاسا للوعي العام في البلد . وعلى هذا الاساس اعلن التلامذة الاضراب عدة مرات بعد ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ ، وحين تجددت التظاهرات العامة عام ١٩٣٣ اعلن الطلبة الاضراب ، واستاءت الحكومة من نشاط المدرسة الاصلاحية في نابلس فذهب نائب مدير المعارف (فرل) بنفسه ليجلد زعماء الطلبة . وكان لهذا الحادث صدى قويا في البلاد ، فازداد سخط العرب كما ذكر في الفصل الثالث على ادارة المعارف .

وجاء اضراب عام ١٩٣٦ ليظهر القوة الجديدة ، قوة الجيل الصاعد : « وكان لطلاب المدارس المضربين ولغيرهم من الاولاد يد طولى في المظاهرات واستمرار الاضراب حيث كانوا في كثير من الاوقات نواة المظاهرات الارتجالية والاندفاعية التي تقوم على الاستفزاز ، كما كانوا ينشرون المسامير في الطرق لتعطيل حركة السير وتنقلات قوى السلطات بقدر ما يمكن » (١٥) . وشاركت الطالبات ثورة الطلبة (١٦) .

وشارك الطلبة فعليا في الثورة فمنهم من التحق بالثورة واستشهد فيها .

١٥ — دروزه، محمد عزة، **المرجع السابق** ، ص١٢٧—١٢٨ .

١٦ — مراجعة : العباسي ، صلاح الدين : **فلسطين المجاهدة**، حيفا ١٩٣٧ ، ص ٥٤ .

ومع ازدياد عدد الطلبة وزيادة الصفوف الثانوية والعليا، بدأت قوتهم تتصاعد واخذوا يشتركون فعليا في التنظيمات العديدة ، ولكن تخبط الحركة الوطنية الفلسطينية بعد عام ١٩٤٢ وعدم ظهور القيادات الجديدة والانماط النضالية الجديدة ، افقدا الحركة الطلابية امكانية رفع الكفاءة التنظيمية والنضالية ، وبالرغم من ذلك ازدادت مقاومتهم ، وعجزت حكومة الانتداب عن كبح جماحهم ، فبينما استطاعت عن طريق التخويف والجلد وقف حركة الطلاب عام ١٩٢٥ و ١٩٣٣ ، لم تستطع كبحها عام ١٩٤٥ ، حينما اضربت المدارس العربية ضد السياسة الافرنسية في لبنان ، فلم يعبأ الطلبة لاغلاق بعض مدارس المعارف ، بل سعوا الى تصعيد الاضراب وتجاوب الشعب العربي الفلسطيني معهم ، فكان على الحكومة التراجع وعدم المساس بالطلبة ، وفي خلال حرب عام ١٩٤٧ — ١٩٤٨ شارك الطلبة فعليا في المقاومة والقتال ، والتحق عدد كبير منهم بجيش الجهاد المقدس . غير أن الاستفادة منهم لم تكن كاملة بسبب الروح الاتكالية التي ظهرت نتيجة تدخل الجامعة العربية والآمال التي علقت عليها ، وبسبب عدم توفر الاطار التنظيمي الملائم .

٤ — والى جانب النشاط الطلابي ظهرت الكشافة ، واصبحت احدى ادوات النشاط النضالي العربي . كان يوجد قبل الحرب العالمية الاولى نشاط كشفي ضئيل العدد، اوجده العثمانيون في المدارس الرشيدية تحضيرا للمستقبل العسكري . واهتمت حكومة الانتداب بالحركة الكشفية ، واعتقدت انها اداة تربوية تستطيع توجيه التلامذة عن طريقها وخصوصا ان المندوب السامي رئيس الفرق الكشفية

« البادن باول » ، والطاعة للرؤساء اهم قانون في النظام الكشفي . ولكن الحركة الوطنية ، خصوصا الشباب المتعلم، والذي كان عضوا في صغره في هذه الحركة ، ادرك اهميتها من الناحية التربوية الوطنية . فأكد دستور الشبان المسلمين اهتمام الجمعية بالحركة الكشفية ، وكان هذا الموضوع اهم قرار للمؤتمر الثاني للطلبة العرب عام ١٩٣٠ « تشكيل كشافة عربية لها نظامها الخاص » .

وازدادت اهمية النشاط الكشفي مع الوقت ، فاحتضنها مؤتمر الشباب بشكل قوي كما جاء سابقا ، « وكان من اهم اعمال مؤتمر الشباب اقامة استعراضين كشفيين كبيرين ، احدهما في موسم النبي صالح في الرملة يوم الجمعه ١٣ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٤ اشتركت فيه الكشافة السورية والثاني في موسم النبي روبين بيافا في شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٥ وقد كان المخيم الاخير ابرز عمل ظهر في الحركة الكشفية في فلسطين ... وقد كان القصد من اقامة مثل هذه المخيمات تحويل المواسم العظيمة الى الغاية الاساسية التي انشئت لاجلها ولكي تكون وسيلة تعارف واخاء بين افراد الكشافة ويتمرن شبابها على حياة المخيم المشترك » (١٧) . وكانت الحركة الكشفية في كثير من الاحيان ملازمة للنشاط الرياضي ، بل كانت قسما من نشاط النوادي الرياضية ، ولذا لم يكن اعضاء الكشافة من التلامذة الصغار ، بل شبابا مما اعطى لها صبغة عسكرية متزايدة ، فكانت بعض التمرينات الكشفية تمرينات عسكرية .

---

١٧ ـ السفري ، **المرجع السابق** ، ص ٢٠١ .

وساهم المجلس الاسلامي الاعلى في دعم الحركة الكشفية ونشرها في القرى وعيّن شابا بيروتيا من آل الطباع مشرفا على النشاط الكشفي، وتطويره لخدمة النضال الوطني .

شاركت الكشافة منذ انتشارها في النشاط الوطني ، فكانت تدعى دائما لتنظيم سير المهرجانات والمظاهرات ، وتطور عملها بعد ازدياد المظاهرات واصابة الكثيرين بهراوات ورصاص البوليس ، الى القيام بأعمال الاسعاف . وقوبل عملهم هذا باضطهاد متزايد من قبل الاستعمار . واصبح تعدادهم مع بدء الاضراب عشرات الالوف بينما تذكر الارقام الرسمية فقط ٣ر٣٤٤ كشافا عربيا (١٨) . لان اكثرية الفرق الكشفية لم تكن منخرطة في التنظيم الحكومي الرسمي .

ومنعت الحركة الكشفية خلال الحرب ، خوفا من تجدد نشاط الكشافة العرب ، بسبب ظروف الحرب . ولم تجدد الكشافة قوتها السابقة لعدم الاهتمام اللازم بها ، كما حصل في الماضي ، اذ اتجه الكثير من الشباب الى نشاطات اخرى اهمها النشاط العمالي . ولذا كانت الحركة الكشفية في فلسطين مجالا لنشاط الشباب وتهيئة النفس ، مع الاهتمام بتربية الجيل الجديد ، ولكن لم يعتن بها كحركة تربوية قادرة على تربية الفرد للحياة الجماعية واعطاء الجيل الصاعد قيما جديدة تعطل تأثير بعض قيم المجتمع التجاري التي يسعى الاستعمار والبرجوازية الوطنية الى توطيدها .

٥ ـ مهدت النقاط السابقة لتوجيه الانظار الى الاندية الرياضية التي ضمت نشاط الشباب العربي الفلسطيني ،

---

١٨ ـ Survey of Palestine II ، ص ٦٦٢ .

وجد الشباب في هذه الاندية مجالا لزيادة روح الالفة بين اعضائه وتشجيعهم لتقوية انفسهم جسديا ومعنويا ، وساهم هذا النشاط في ازدهار بعض الجمعيات والاندية الفكرية ، وكانت الحركة الكشفية كما ذكر سابقا تواكب النشاط الرياضي . وتأكيدا لفائدتها الوطنية اطلق على الكثير من هذه الاندية الرياضية اسماء القادة العرب الاقدمين ، او اطلق عليها اسم « الشباب العربي » او « الشباب العرب » ... كان الشباب ينظر الى هذه الاندية كملتقى لهم ، يساهم في وحدتهم بعيدا عن تأثير الوجاهة التقليدية ، بالرغم من وجود احد الزعماء التقليديين رئيسا فخريا للنادي ، واعتنت الاحزاب بالاندية الرياضية مثل مؤتمر الشباب او الحزب العربي لتقوية نشاطها الحزبي والنضالي . كما اعتنت الجمعيات الدينية الوطنية في دعم النشاط الرياضي ، اذ كان قسم من هذه الجمعيات كما ذكر ، قسما من الحركة الوطنية .

وادركت حكومة الانتداب خطورة التطور الجديد الذي حصل بعد ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ فكتبت في تقريرها السنوي عام ١٩٣٥ تحت عنوان « عناصر الشباب » ما يلي : « كان من الظواهر التي لها مغزاها في الحركة الوطنية العربية تقوّي جماعات الكشافة ونوادي الرياضة ودخول الشباب على العموم في مؤسسات منتظمة تحت اسماء مختلفة ولم يكد آخر العام يجيء حتى كانت عناصر الشباب قد وطدت مركزها واصبحت عاملا قد يكون منه تحدي نفوذ من هم اكبر من الشباب زعماء العرب » (١٩) .

١٩ ـ السفري ، عيسى ، ص ١٩٥ .

ساهمت الاندية الرياضية والكشافة في ضمان نشاط بعض الجمعيات ـ اذ ان الاختلافات الفكرية ، التي تعكس تخبط الحركة السياسية الفلسطينية ، وكذلك التناقضات الاجتماعية ، نتيجة اصرار الطبقة البرجوازية العليا الحفاظ على زعامتها في جميع الميادين ، كانت تشل العمل الفكري ، هذا من الناحية السلبية ، اما من الناحية الايجابية ، فان النشاط الرياضي والكشفي كان موجها الى البرجوازية الصغيرة والطبقة الكادحة ، اذ كان اكثر ابناء الطبقات البرجوازية العليا يترفعون عن الانخراط في مثل هذه النشاطات، لكون الاكثرية العظمى من المنتسبين من ابناء الطبقات الاخرى. توفر لابناء الطبقات البرجوازية المتوسطة مجالا للهو يوفر عليهم عناء الانتساب الى هذه النشاطات. وزيادة في التوضيح عني بالنشاط الكشفي هنا ، ما هو مرتبط بالجمعيات ، اذ كان يوجد فرق كشفية مدرسية ولكنها لا تنفي التحليل السابق ، لان الكشافة المدرسية تضم عادة التلامذة الصغار، بينما احتوت الفرق الكشفية غير المدرسية على اعداد كبيرة من الشباب اي من عمر ١٤ الى ٢١ سنة .

ساهمت الكشافة وخصوصا الاندية الرياضية في استيعاب نشاط الشباب غير الرأسمالي ، الذي لم يستطع قسم كبير منهم اكمال دراسته فترك المدرسة بعد الابتدائية الدنيا او العليا او بعد المرحلة الثانوية الاولى ، ولم يستطع الانتساب للجمعيات الفكرية لعوامل ذاتية او موضوعية، مثلا شعوره بعدم المساواة مع الشباب الحاصل على درجات اعلى في التعليم (انهاء التعليم الثانوي او الجامعي) ، او لانغلاق الشباب « المتعلم » على نفسه وعدم افساح المجال ادبيا

للقسم الآخر من الشباب للانتساب الى حلقاته .

وسيجد بعضهم في ازدهار الحركة العمالية خلال الحرب مجالا للنشاط الاجتماعي والسياسي .

٦ - ادركت الحركة الوطنية اهمية عنصر الشباب المنظم واهميته في تنظيم ورفع كفاءة النضال ، فانشات فرق الفتوة سنة ١٩٣٥ وخصوصا في العام التالي خلال الاضراب الطويل ، وكانت هذه الفرق افرازا للنشاط الكشفي والرياضي والطلابي .

ولكن الاحتواء الاكبر للشباب المتحمس كان في انشاء الحرس الوطني خلال الاضراب ومع ارتفاع المستوى التنظيمي الملتزم للشباب ارتفع الحماس والاندفاع والتشدد في الحركة الوطنية وجاء في تقرير بيل رئيس اللجنة الملكية لاستقصاء الحقائق في فلسطين عام ١٩٣٧ قوله : « ... فقد رأينا كيف ان حركة الشبان التي لعبت في الايام الاخيرة دورا هاما في اذكاء روح الوطنية في مصر وسوريه قد انتشرت مؤخرا في فلسطين منذ عهد قريب وهذه الحركة لا بد لها من اجتذاب الشبان العرب المتوقدي الذهن فهي تهيىء لهم الفرص لخدمة قضيتهم القومية خدمة فعالة ككشافة يقومون بأعمال كشفية مفيدة بالفعل او كحرس يسهرون على مواصلة « الاضراب » و « المقاطعة » حتى انه اشتبه في انهم يعمدون الى الاغتيال. فحركة الشبان هذه هي حركة متطرفة كما ينتظر ان تكون ، ومؤازروها ومعاضدوها ليس لهم شأن مع «المعتدلين» وهم سرعان ما ينكرون زعماء قضيتهم المعترف بهم اذا ظنوا ان فيهم تباطئا او جبنا ، وهم يتحدثون عن الرجال المجددين

والطرق الحديثة ... » (٢٠) .

وبعد سنة ١٩٤٢ انشئت النجادة واعيد تشكيل فرق الفتوة ، واندمجت الاثنتان معا في مدينة القدس لتكون حاميتها خلال معارك عام ٤٧-١٩٤٨ . ادرك الشباب بعد ثورة عام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، ان عليه تنظيم نفسه بعيدا عن تأثير الطبقة الوجيهة ، مستفيدين من عبر النضال السابق ، ولكن الاستفادة لم تكن قصوى ، اذ ان هذه التنظيمات ظلت ضئيلة الحجم ، كما لم تنطلق من مواقف طبقية واضحة وفكر ثوري شامل ، قادر على تجنيد الجماهير خصوصا الشباب ، وتوضيح جوانب المعركة ومتطلبات الكفاح ، بل ظلت اسيرة التفكير الوسطي ، الذي ارادت التمرد عليه .

ثالثا : انتقادات الشباب على النهج النضالي الوطني

١ - عرّفت الفقرتان السابقتان على نضال الشباب والاطارات التنظيمية التي اوجدها هذا الشباب لنشاطه ، دون التعرض طويلا لاسباب تطوير نشاطهم وفي الفقرتين الاخيرتين من الفصل الخامس سنسعى الى تحليل اسباب الاخذ بهذه الاطارات التنظيمية من خلال مناقشة انتقادات الشباب للنهج النضالي الوطني ، وما عكسته هذه الانتقادات من صورة للعمل التحريري ، وتحليل ايجابية وسلبية هذه الصورة .

سنعتمد كثيرا على الانتقادات التي ظهرت ما بين عام ١٩٢٩ و ١٩٣٦ لسببين :

٢٠ - تقرير بيل ، ص ١٧٥ - ١٧٧ .

اولا : عدم توفر المراجع الكافية للحقبة التي تلت الثورة الكبرى ، او صعوبة الحصول على تلك المراجع .

ثانيا : لان مرحلة ما بعد ثورة عام ١٩٢٩ وقبل الثورة الكبرى، التي كانت اهم مرحلة فكرية في حياة الشعب العربي الفلسطيني خلال عهد الانتداب اتسمت بظهور فئة الشباب المتعلم بشكل واسع وبحثه عن طريق جديد للنضال، ومجابهته مشاكل اساسية ، لم يستطع حلها جذريا ، وظلت هذه المشاكل الاساسية تظهر في الحقب المتتالية بالرغم من التطور الاجتماعي : التمرد على زعامة الطبقة الوجيهة ، ونمط محاربة الاستعمار البريطاني مع محاربة الاستعمار الصهيوني .

ظهر منذ البدء تياران فكريان متمايزان، التيار الوطني المعتدل ، نتيجة ارتباطه الطبقي ولكنه مخلص في رفضه للاستعمار والصهيونية ، وتيار يساري كان قبل عام ١٩٢٩ قليل العدد ، بعضه مرتبط بالتفكير اليهودي اليساري المعادي للصهيونية داخل الحزب الشيوعي ، الا ان هذا التيار تمرد على التفكير اليهودي بعد ثورة عام ١٩٢٩ ، وسلك الطريق المعادي للعنصرية الصهيونية وازداد عدده خلال الحرب العالمية الثانية ، واما البعض الآخر من التيار اليساري فكان مستقلا في تفكيره ولكنه كان محدود النفوذ وغير منظم ارتبط منذ البدء مع الحركة العربية العامة . ولما كان هذان التياران مترافقين خلال حقبة عام ١٩٢٩ — ١٩٣٦ ولكن غير متجانسين ، فمن المستحسن تحليلهما كل على حدة ، واهم سبب لهذا التفريق وجود الاكثرية الكبرى من الشباب المتعلم في اوساط الفريق الاول وتاثيره المباشر على الحركة السياسية بل والنضالية

العربية في فلسطين . ولم يتوفر الالتقاء فعليا الا بعد عام ١٩٤٢ ، ليفترق مجددا بعد قرارات التقسيم عام ١٩٤٧ ، لقبول قسم كبير من اعضاء الحزب الشيوعي الفلسطيني قرارا روسيا بتأييد التقسيم .

دعا اخلاص الفئات البرجوازية الى طرح مشكلة النضال والسعي للاستفادة من الخبرة السابقة مجددا ، غير ان موقفها الطبقي وتأثير المجتمع التجاري لم يسعفها في استخلاص مواقف جذرية تنطلق من القوانين الموضوعية للنضال الجماهيري ، واستطاع بعضهم تلمّس خطوط هذه المواقف في كثير من الحقب ، غير انه لم يستطع تحرير نفسه من تأثير المجتمع التجاري وبقايا المجتمع التقليدي — الاقطاعي ، ليكتشف هذه القوانين ويسترشد بها في نضاله الجماعي . ومما يجدر ذكره هنا ، ان اعضاء الحزب الشيوعي العربي عجزوا بعض الشيء عن تفهم المعطيات الموضوعية، التي تنطبق عليها هذه القوانين ، وسنعود الى بحث هذا الموضوع باسهاب اكثر في الفقرة الرابعة وفي الفقرة الحالية سنستعين بالاستشهاد مفصلا بانتقادات الشباب ، لكي تكون عند القارىء صورة لطريقة كتابتهم ، وسيترك تحليلها الى الفقرة الاخيرة وسنعتمد نسبيا على تسلسل مواضيع الانتقاد كأساس لهذا البحث ، وهي تكشف في نفس الوقت ، عن مدى ازدياد وضوح الرؤية .

٢ — بعد المؤتمر الوطني السادس عام ١٩٢٥ ، اتسع الانقسام بين اطراف الحركة السياسية العربية فارتفعت الاصوات مطالبة بوحدة الكلمة : «ولكنه ويا للاسف قد انقسم

اوزاعا مع الحزبية القائمة اليوم في البلاد فألهته هذه الحزبية عن الفرض الاسمى الذي سعى اليه حينا ويرى من الحق ان يسعى اليه ما دام يدب على وجه الارض . فنحن نهيب بهذا الشعب الكريم ليقذف بهذه الحزبية من خالف ، فيتضام بعد تفرقة ويلتئم بعد انصداع حتى يتسنى له ان يستأنف جهاده القومي فقد سرى الناس ونحن نيام » (٢١) .

كان حلم الشباب في ذلك الوقت تحقيق «وحدة الامة» كما شاهدوها في المرحلة الاولى من النضال (١٩١٨–١٩٢٣)، ولما تاخر عقد المؤتمر السابع ازداد الالحاح في عقده . ولكن جاء عقد هذا المؤتمر مخيبا الآمال ، فلم يكن جادا في مواقفه وضم الى اللجنة التنفيذية جميع الفئات حتى فئة السماسرة، مما دعا مؤتمر الطلبة في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٩ الى المطالبة « بالضرب على ايدي تلك الفئة الخبيثة ــ فئة السماسرة » كما جاء سابقا .

وفي الوقت نفسه بدأ الشباب المتعلم يدرك فشل السياسة السابقة حيث نشطت الحركة السياسية العربية في التقرب من الاستعمار البريطاني ومعاداة الصهيونية فقط، اعتقادا منها بكسب عطف بريطانيه ونيل الحكم الذاتي ، وخصوصا اخذت الحركة الصهيونية اي قبل (اواخر عام ١٩٢٨) بالتقهقر ، حسب اعتقادها . وفوجيء الشباب العربي بنمو الحركة الصهيونية وارتباط الاستعمار البريطاني بها ، بحيث اوقف مفعول التقارير التي وضعها بنفسه عن الموقف في فلسطين وسلامة التذمر العربي . فقرر مؤتمر

٢١ ــ مجلة صوت الحق ، العدد الاول ١٩٢٧/١٠/٦ .

نابلس في ايلول (سبتمبر) ١٩٣١ : « ما دامت الحكومة الانجليزية تدير هذه البلاد ادارة مباشرة فان كل سياسة تتعلق بتعاون العرب مع الحكومة تكون سياسة فاشلة ، الامر الذي ثبت تماما في حدة الثلاث عشرة سنة الماضية . لذلك اصبح من واجب اللجنة التنفيذية العربية والهيئات الوطنية في البلاد ان تفهم الحقيقة وتترك هذه السياسة الفاشلة وان لا تتفاهم مع الحكومة الا على اساس المطالبة بالاستقلال ضمن الوحدة العربية الى ما يوصل الى هذا الاستقلال مع المشاريع الاقتصادية والسياسية » (٢٢) .

وبدأ الشباب يظهر سخطه على اللجنة التنفيذية بعدما رأى سلبيتها ومهادنتها للاستعمار ، وبتنظيم نفسه في احزاب تخرج عن اطار الصورة القديمة « لوحدة الامة » ، وهكذا انشيء حزب الاستقلال الذي اعلن :

« وفي فلسطين ايضا ، حوّلنا القضية الوطنية من كفاح ضد الغاصب المستعمر ، الى فورات متقطعة ضد الصهيونية .. وما الصهيونية الا عرض من اعراض هذا الغصب ومظهر من مظاهره » (٢٣) .

« فبعد ان كانت قضية استقلالية تحمل خواص القضية العربية الكبرى، وتحتفظ بمزاياها الشريفة، وتكافح الاستعمار

٢٢ ــ طريين ، احمد ، **المرجع السابق** ، ص ٢٦٨ ــ ٢٦٩ .

٢٣ ــ الخضراء ، صبحي : « لماذا الفنا حزب الاستقلال العربي في فلسطين » ، مجلة **« العرب »** ، العدد الاول ٣٢/٨/٢٧ .

وجها لوجه ، اصبحت قضيـة محليـة ، تتأثر بالنزعات الشخصية والاهواء العائلية والقوى الانتخابيـة الى حـد كبير » (٢٤) .

وكانت انتقادات حزب الاستقلال مشجعة للشبـاب لاعطاء رأيه عن الوضع بصراحة ، فأخذ يتململ من اجتماعات اللجنة التنفيذية واحتجاجاتها . كتب زكي زكا مقالا متسائلا عن جدوى البحوث « حسن جدا ... وماذا بعـد ؟ انـه سيتبع هذا البحث برقية احتجاج ، يبعث بها الى فخامـة المندوب السامي ، وغيره من السلطات المختصة في فلسطين وفي خارجها ... ثم ينتظر حتى يمر العام والعامان ، فـلا يحس الا والمزارعون مشتتون تحت سمـاء كل كوكب جياعا عراة ، ظمأى حفاة — ولا يشعر الا واليهود يموجون في ارجاء فلسطين كالطوفان يفلحون الاراضي ويعمرون الدور ويرقصون على الاشلاء ويشيدون القصور » (٢٥) .

ولم يتساءل آخـرون عـن سبـب تقلص النشاط بالاحتجاجات فقط بل سعوا الى تفسير ذلك . فكتب (ابو رزق) في « النفير » تحت عنوان « اخفاق الامـة باخفاق الزعامة المزيفة » ، « والقى القدر الاعمى زعامة فلسطين الى رجال « او عائلات » فقيري الانفس من الهمة وضعيفي الاخلاق الفاضلة الا من الانانية — فذهب هؤلاء المتزعمون الى احتكار الزعامة الوطنية والتلبس بالاخلاص المنكشف ، وثم كان تلونها كما يتلوّن الليل والنهار — فهم بالليـل سـود المساعي سود

٢٤ — دروزه ، محمد عزة ، **المرجع السابق** ، ص ١٠٤ .
٢٥ — النفير ١٩٣٣/٨/٢١ .

المقاصد وهم بالنهار بيض المساعي بيض المقاصد وهم ما بين الليل والنهار يضربون بسهمين سهم التدليس على الحكومـة واليهود لكسب الوظائف وتعيين الاقـارب واختلاس الثقـة الحكومية ... وقد كانوا كذابين في السنتهم وافئدتهـم ، وان اعمالهم التي ساروا عليها مدة خمس عشرة سنة لهـي الشاهد الصادق على انهم كانوا كذابين في كل حركة يتحركون بها مدعين بأنها خدمة وطنية وانهم انما كانوا يخدمون انفسهم ويقوون مصالحهم وقد صار للفقراء منهم والاغنياء عقـارات وعمارات وبيارات تدل على انهم ما كانوا لينظروا الى هـذه الامة نظرة اخلاص قط ...

واخيرا ندعوكم ونستحلفكم ايها المتزعمون بكل غال على قلوبكم من عماراتكم وسياراتكم واراضيكم ومصالحكم ووظائفكم ان تتخلوا عن زعامتكم « الفاشلة المهرمة » وتتركوهـا الى الشعب ليتولى قضيته بنفسه ولتعلموا بانكم انزلتم محتكرين للزعامة وانتم حيث انتم من صنائع الحكومة وعبيد المصالـح الخاصة ، والبعض من حلفاء اليهود فليس للامة بكم طريق للنجاح ، ومتى كان غير الاخلاص دليل النجاح » (٢٦) .

قبل ذلك كتب محمد عزة دروزه بعض المقالات في مجلة العرب في شهر حزيران (يونيو) من العام نفسه ، احتوت على نقد لاذع للاوضاع . فتحت عنوان « اصحاب المصالـح الحقيقية » (٢٧) كتـب يقول « ... اما السـواد الاعظم مـن الشعب ، اما الذين لا يملكون ارضا وليسوا بأصحاب ثروة ،

٢٦ — النفير ١٩٣٣/١٠/٩ .
٢٧ — « العرب » ١٩٣٣/٦/٢٤ .

فهم الذين يبقون في الميدان وهم الذين يسقطون في المعركة ضحايا الظلم واللؤم . ومن الطبيعي جدا ان يقود هؤلاء الحركة الوطنية ، لان غنمها غنمهم وغرمها غرمهم قبل كل شيء ، اما اذا قادها اولئك الذين يسمون اليوم باسمهم الاستعماري الجديد « اصحاب المصالح الحقيقية » فانهم لن يلبثوا ان يضيعوها في احضان المستعمرين ويسلموها دون ما شرط ولا قيد الا بقاءهم ظاهرين في الارض تجبى اليهم الثمرات وتزرع عليهم الاسلاب » .

٣ ـ ونتيجة الاتهامات الكثيرة والحاح الشباب على تغيير اسلوب النضال دعت اللجنة التنفيذية الامة الى « الاضراب العام في فلسطين والتظاهر دوريا في كل المدن الفلسطينية الكبرى ، سواء رخصت الحكومة بتلك المظاهرات او لم ترخص» (٢٨) . فلبى الشعب النداء فأضربت فلسطين العربية وقامت المظاهرة الاولى في القدس يوم ١٣/١٠/١٩٣٣ ، فهاجمها البوليس ووقع خمسة وثلاثون جريحا ، فازداد حماس الجماهير وتقرر القيام بالمظاهرة الثانية في يافا يوم ٢٦/١٠ ، فاستقبلها البوليس بوابل من الرصاص ، استشهد من اثره ٣٢ شخصا وجرح ١٦٧ ، ولم يعف موسى كاظم الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية من الكدمات التي تلقاها خلال المظاهرة وكان عمره يجاوز الثمانين ، فمات من نتيجتها بعد بضعة اشهر .

وبعد اعتقال بعض الزعماء ومنع المظاهرات اضرب الشعب اسبوعا كاملا .

---

٢٨ ـ الغوري ، اميل ، **المرجع السابق** ، ص ٧٢ .

وشعر الشباب ان قوة وتضحية جديدتين اخذتا تظهران، وهذه القوة العزلاء لا تستطيع التغلب على الحكومة ، ولكن الا تستطيع التغلب على السماسرة ، وهم اشد خطرا على الشعب ؟ فكتب عبد الرؤوف المصري يقول : « اما ما قام به رجال من اللجنة التنفيذية ومؤتمر الشباب وحزب الاستقلال فهو عمل مبرور وتضحية واجبة مشكورة ، لاننا لا نقدر ان نحاربها بمعداتها ونحن عن ذلك عاجزون ، لكن ماذا صنعت هذه الاحزاب مع السماسرة ؟ قلت انها عاجزة عن مقارعة الحكومة ، فهل هذه الاحزاب عاجزة ايضا عن ايقاف السماسرة وهي تستعد للعمل والتضحية ؟ والعمل الجدي هو ان يكف السماسرة عما هم فيه سادرون ، فقبل كل شيء يجب ايقاف السماسرة فكل واحد منهم اضر علينا من الوطن القومي باكمله ، واضر علينا من المستعمرين بمجموعهم فضعوا لهم حدا حاسما » .

بعد ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ ، بدأ الشباب المتعلم يتطرق الى موضوع السماسرة ، فهم جزء من المجتمع الفلسطيني، ولذا اخذ الشباب يشعرون بوخز الضمير من عدم وضع حد لنشاطهم المتزايد وانتقال الآلاف من الافدنة الى الصهاينة ، فكانت دائما قضيتهم تطرح دائما وترتفع الاصوات مطالبة بوقف نشاطهم ، ولكن الحركة السياسية وقفت عاجزة عن تجميد نشاطهم ، واما الطبقة البرجوازية العليا من زعامة او شباب ، فتجنبت استعمال العنف ، لان فئة السماسرة قسم منها ، ولا تريد فتح ثغرة للجماهير الكادحة تطالب بمزيد من العقاب ضد العملاء والمرابين ، وتخشى العنف المخطط عامة ، خوفا من ظهور قوى جديدة تزعزع مركزها السياسي،

والاجتماعي . فأمام الاحتجاجات الجماهيرية والنظرة الضيقة للاخلاص الوطني ، خرجت بمشاريع لمزاحمة الصهيونيين في شراء الاراضي ، وهكذا تفوّت انتقالها اليهم . ولكن هذه المشاريع قد فشلت في تحقيق هدفها ، بسبب فقدان المال وعدم الجدية في تحقيقها، ادراكا مسبقا لمحدوديتها، ومعرفة بعقلية طبقيتها التي تتهرب من المشاركة في اعمال جماعية يأتي عامل الربح المادي في الدرجة الثانية او الثالثة . وامام هذا العجز ، انطلقت فئات من الشباب المتعلم الملتحم مع الطبقة الكادحة وبمؤازرتها الى اغتيال السماسرة فأنشئت بعد عام ١٩٣٥ عصابة الكف الاسود لتوجد الخوف بينهم ، واخذ قادة المناطق على عاتقهم خلال الثورة محاكمة آخرين واعدامهم .

اكدت قضية السماسرة لكثير من الشباب عقم العمل الوطني وازداد هذا الشعور مع اخفاق العفوية في العمل للوصول الى حل ، ما دام التنظيم اللازم ووضوح الرؤية لم تتوفر . كتب احدهم في « النفير » تحت عنوان « حاجتنا الى التنظيم » قائلا : « الواقع انه اذ ظل الحال على هذا المنوال ، ولم تغيّر « الامة » نهج سياستها فتنتبه الى نفسها وتنهض من هذه الكبوة التي عفى عليها الزمن ، فالمستقبل ولا شك شر من الحاضر ، كما الحاضر شر من الماضي ، ولن تحمل الاعوام المقبلة في طياتها غير مهازل الجلاء ومآسي الفناء .

دعونا نستعرض صفحات الماضي ونقلب في سطورها العيون فماذا نجد ؟ نجد ان كل صفحة شبيهة بأختها تمام الشبه حتى لتكاد تكون نسخة طبق الاصل عنها ، ظلم فادح

يتلوه رفع الاحتجاجات واقامة المظاهرات ثم ضياع الانفس والاموال ، والزج في اعماق السجون ... ثم الهدوء الشامل ... والسكون العميق .

بل خلتونا من هذا كله ، تعالوا بنا نمعن النظر فيما قامت به اللجنة التنفيذية العربية ، من حث الناس على الاضراب واقفال الحوانيت والمساكن ! فماذا نلمس ؟ . سخافة وهراء لا مثيل لهما ولا مزيد عليهما ... والا فها ان الناس قد لبت نداء اللجنة منذ اسابيع واقفلت محالها سبعة ايام متوالية ، فهل افادت بذلك الاقفال شيئا ؟.

... والاضراب ساعة بأصول ... خير عندنا من اضراب شهور بدون اصول ! والاوقات رهينة بكيفيتها لا بكميتها » (٢٩) .

٤ ــ اخذ الشباب يدرك خطأ الاعتماد على الزعامة التقليدية وخطأ السير على النهج النضالي القديم ، ولم يبدأ هذا التساؤل في سنة ١٩٣٣ ، بل بدأ قبل ذلك الوقت ، فها هو الشيخ عز الدين القسّام يسعى سريا الى نهج طريق آخر واضعا الثورة المسلحة هدفا لحركته ، ولذا كان على العرب التهيئة لها وهذا ما سعت اليه حركته . ولكن خلال عام ١٩٣٣ وبعد ظهور تنظيمات الشباب بشكل واسع واجتماعهم خارج نطاق الزعامة التقليدية ، بدأ الشباب يعطي رايه بصراحة ويتساءل عن فائدة كل عمل يقوم به ويحلل ما قام به ، واحتوت الصحف حدا لهذا النشاط ، فامتلأت برسائلهم،

٢٩ ــ النفير ١٩٣٣/١٢/١١ .

واشترك الشباب العربي في جميع اقطار المشرق العربي يتحمل مسؤولية النقد العام والنقد الذاتي ، وشهد الشرق العربي في اوائل الثلاثينات ظهور القوة الجديدة المتمردة : قوة الشباب ، وبدأت تعطي ثمارها الفكرية والتنظيمية خصوصا بعد عام ١٩٣٢ .

فعلى لسان اجنبي كتب المحامي عمر الصالح البرغوتي، وهو من الرعيل الاول من الشباب الملتزم والعضو في حزب الاستقلال ، في قصة « الطريق » قائلا : « ان نهضتكم كلامية فمتى عرف المستعمرون انكم مجمعون على كرههم وجادون في مقاومتهم حملوا اثقالهم وودعوا دياركم . وان بقيتم على حالتكم هذه بقيتم مستعمرين . فانتم بين امرين اما تنهض امة عربية ، فيلتف حولها جميع القواد المخلصين وينظمون جيشا حديثا كما صنع باني وحدتكم نبيكم محمد (ص) وتنقذون به بلادكم . واما ان تؤسسوا جمعيات رياضية وكشافة ونقابات واحزابا منظمة وخططا قويمة ويبدأ كل شخص بتنفيذ المبادىء المقررة في بيته حتى لا يبقى مجال لاجنبي » (٣٠) .

بدأ الشباب يدرك ان عملية التنظيم مزدوجة ، فهي ليست فقط انشاء الاطارات بل تطبيق المبادىء التي اوحت بهذه الاطارات او التي تفرضها هذه الاطارات بعيدا عن الاتكالية والتهرب من المسؤولية . وذهب بعضهم خلال تلك

٣٠ — البرغوتي، عمر صالح : قصةالطريق : مجلة **«العرب»** ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٣٣ .

السنة الى تحليل المشاكل الذاتية للفرد والمجتمع العربي فكتب حسين مريود تحت عنوان « واجب الشباب » :

« ... ايها الشباب ان حرية الشعوب لا تنال بالمقالات والاحتجاجات والمظاهرات فاذا كنتم تنشدون الحرية والسعادة حقا فلا اقل من ان تنظروا قليلا الى الشعوب التي كانت في مثل وضعنا وقدر لها ان تفوز بحريتها ، ثم تسيروا على نهجها وتسلكوا في العمل مسلكها .

ليس من شك ان تلك الشعوب لم تنل حريتها اعتباطا وانما نالتها بالجهد والعمل المستمر ، وها هي الصين لقد بدأت جهادها ضد الاستعمار منذ نصف قرن تقريبا وقد قيض الله لها زعماء اكفاء مخلصين عملوا على تنظيمها وترقيتها وتنمية قواها الى ان وصلت الى حالة استطاعت معها ان تأخذ استقلالها وهي ما زالت سائرة لتأخذ مكانها بين الامم الحية .

فيجب علينا اذا ان نعمل على ضوء الحقائق العملية معتمدين على تجارب من سبقنا في هذا الميدان ، ولعل اهم ما يجب علينا عمله ان نبدأ بتنظيم الشعب وتثقيفه وتنمية قواه المادية والمعنوية على اختلاف انواعها من اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وهذه الامور تتطلب عملا ذا وجهين. فهي من جهة تقضي بمحاربة العادات والتقاليد البالية الفاسدة التي حملناها احقابا طويلة فاورثتنا الخمول والجمود ، ومن جهة اخرى تقضي بقبول الافكار والاساليب الحديثة في العمل التي من شأنها ان تنفض عنا غبار الموت وتخلق فينا روح الكفاح والعمل ، وعندما نتحرك في هذا الاتجاه نستطيع ان

نقاوم المستعمرين مقاومة جدية وان نعرقل اعمالهم الاستعمارية ومشاريعهم الاقتصادية التي من اجلها استولوا علينا. وعندئذ لا بد لهم ان يحسوا بوجودنا ويتنازلوا عن حقوقنا . رب قائل يقول ان هذا الطريق طويل . ونحن نطلب حريتنا من اقصر الطرق . ولكن بأي الوسائل نطلب هذه الحرية ؟ ان وسائلنا ضعيفة وقليلة ، والحرية تطلب وسائل اكثر واقوى مما عندنا ، ولا يمكننا الوصول اليها الا بالحصول على تلك الوسائل والا نكون كالرجل الضعيف الذي ينزل لساحة الصراع لينال بطولة العالم دون ان يفكر بما يتطلبه ذلك العمل من القوة والمقدرة. تصوروا لحظة ما تنتهي اليه حالة مثل هذا الرجل. اذا فنحن مضطرون على سلوك هذا الطريق لمعالجة ضعفنا وتزييد قوانا وتكثير وسائلنا لنتمكن من الفوز في هذا الصراع. هذا هو الطريق الطبيعي للعمل ونحن مرغمون على سلوكه ان اردنا النجاح ... » (٣١) .

ورفض الشباب ان يكون موقفهم سلبيا فقط بل سعوا الى تجسيد هذه الانتقادات ورؤية مستقبل النضال في برنامج العمل الذي اقر في مؤتمره الثاني في ١٠ ايار (مايو) ١٩٣٥ ، فشملت مقررات المؤتمر جميع نواحي النضال الوطني من سياسية واجتماعية واقتصادية ، غير ان الايديولوجية البرجوازية لهذا الشباب لم تساعده على وضع برنامج عمل جذري يحقق فعلا ما يطمح اليه وسنتطرق الى هذا الموضوع فيما بعد .

---

٣١ ـ « **العرب** » عدد ٢٥ ، السنة الاولى ، ١٨ شباط (فبراير) ١٩٣٣ .

٥ ـ للاسف لا تتوفر معلومات كافية عن نشاط الحركة اليسارية العربية خصوصا الشيوعية ، الا ان ما استطعنا الحصول عليه كاف لاعطاء صورة اولية لتفكير الحزب جماعيا وفرديا . ذكر خلال البحث عن الطبقة العمالية ، موقف العناصر اليسارية من ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ ، واستشهدنا ببعض عبارات من مقالة لمجلة « الى الامام » وستنشر هنا المقالة كاملة للتعرف على رأي الحزب الشيوعي الفلسطيني والذي يمثل فئة من الشباب الفلسطيني المتعلم ، ويتضح من هذه المقالة ومن قرائن اخرى سيأتي ذكرها في الفقرة الاخيرة ان التناقض كان قويا بين العناصر الماركسية والعناصر الوطنية البرجوازية في تلك الظروف. تحت عنوان « ١١ كانون الثاني (يناير) والعمال العرب » تثبت المجلة :

« في مثل هذا اليوم من العام الماضي عقد اول مؤتمر للعمال العرب في حيفا . وقد كان هذا اليوم التاريخي اول خطوة موحدة للعمال العرب في نضالهم ضد الظالمين والمستثمرين .

اجل في مثل هذا اليوم المجيد انكشف الغشاء عن اعين الطبقة العاملة العربية وتبين لها انها هي القوة الاساسية الثورية في البلاد التي تمكنها ان تقود النضال الثوري ضد الخصوم من مستعمرين ومستغلين ، في مثل هذا اليوم تقابلت وفود العمال من مختلف البلاد يصافحون ويحيون بعضهم بعضا حاثين على التكاتف والعمل لتحرير انفسهم من نير الاستعمار والرأسمالية بطريقة النضال الثوري ، في مثل هذا اليوم اجتمع اربعون مندوبا يمثلون خمسة آلاف عامل

للتقرير في احوالهم ومستقبل حركتهم .

من المعلوم ان مؤتمر العمال العرب الاول عقد بعد فشل ثورة آب (اغسطس) المؤقت . الفشل الناتج عن خيانة الارستوقراطيين والاغنياء اصحاب المنافع الشخصية اللجنة التنفيذية وغيرها من الهيئات ولذلك لم تنحصر اهميته من الواجهة التنظيمية فقط ، بل جاء برهانا على افلاس القيادة الوطنية الاصلاحية وتحيزها للاستعمار الانجليزي ، اذ اعلن العمال في هذا المؤتمر استقلالهم في الكفاح ضد الاستعمار والرأسمالية ولرفع مستواهم الاقتصادي والادبي ولنيل جميع حقوقهم المهضومة ومن هنا اصبحت اهمية هذا المؤتمر غير مقتصرة لعمال فلسطين فحسب، بل ولعمال البلاد العربية والامم المغلوبة على امرها ايضا ، بناء على ذلك كان يمكننا ان نقول بأن مؤتمر العمال العرب الاول كان نتيجة للحركة الثورية التي كانت تجتازها الجماهير العاملة في البلاد .

طرح العمال قضيتهم على بساط البحث والمناقشة الحادة ، فبحثوا اولا حالة العمال العالمية واطلعوا على مجراها وانتقلوا لبحث قضية العمال العرب فوصفوا الظلم والاستثمار اللاحق بهم من طرف الاستعمار والصهيونية واصحاب الاعمال والمزارع وصفا دقيقا . ورغما من تسرب الفئات الضارة لحركة العمال من خونة الوطنيين والنفعيين عملاء الاستعمار والصهيونية لهذا المؤتمر لقصد بسط نفوذهم وسيطرتهم عليه وحصره في حدود الحركة الوطنية الاصلاحية ، مع اقامة العداوة والبغضاء في صفوف العمال ، رغما عن ذلك كله كان هذا المؤتمر خطوة اولى موحدة لنضال العمال الثوري

ولتنظيم صفوفهم .

غير انه والحق يقال ان الفئات البغيضة التي اندست بين المؤتمرين تمكنت لحد معلوم من ان تؤثر على سير حركة العمال الثورية وذلك يظهر لنا من قرارات المؤتمر نفسه ومن سير النضال في مجرى هذه السنة . بل وفازت بسبب ضعفنا في بعض الاماكن من اخذ زمام حركة العمال في يدها بمساعدة الارهاب الاستعماري لها وباستنادها على قسم من ارستوقراطية العمال ... وفي نضاله المستمر ضد تاثير الوطنية الاصلاحية اثناء سير اعماله وبعد الانتهاء منها في خلال ١٢ شهرا وهو يكافح في سبيل الاستيلاء على قيادة حركة العمال العربية قيادة ثورية ضد الوطنيين الاصلاحيين الذين يريدون قيادة حركة العمال على طريق الاصلاح المؤقت والخيانة .

فالمؤتمر قد جاء ضربة قاسية على رأس الحركة الوطنية الاصلاحية المعادية للثورة تلقتها بابتسامة صفراء ، وعلى رأس الاستعمار البريطاني والصهيونيين وزعماء الهستدروت وغيرهم من المحتكرين للحركة النقابية في فلسطين .

ففي خلال هذه السنة وقعت حوادث من الاهمية بمكان وهي ان الوطنيين اخذوا يعملون كل ما في وسعهم لاستلام زمام حركة العمال في ايديهم من جهة وتخفيض اجرة العامل وعدم الاعتراف له بأدنى حق كما جرى في اغتصاب حقوق عمال الكرتون في حيفا وعمال البور في يافا .

اما الهستدروت (نقابة عمال اليهود الصهيونية) فانها وان كانت تظهر « رغبتها » في تنظيم العمال العرب وضمهم،

فانها بالحقيقة لم تعترف بحق تنظيم العامل العربي وكانت تنظر اليه نظرة استعمارية اي انه غير متعلم ، ولا يمكن تنظيمه الآن . فهذه النقابة اليهودية البحتة تسعى في الحقيقة لضرر العامل العربي . فهي من جهة ترسل جنودها – الخالوسيم – لاحتلال اراضي الفلاحين وطردهم منها فيزيد بذلك عدد العاطلين ومن جهة اخرى تعمل تحت شعار – كيبوتز افودا – للاستيلاء على العمل ، وتطرد العمال العرب من عدة مصانع ومزارع وتحل محلهم عمالا من اليهود كما حدث في مستعمرة ملبس ونرن برمن وخلافها ، فهذه حقائق واضحة تدل على الضرر اللاحق بالعمال العرب من طرق النقابة اليهودية فرع استردام العاملة على جعل مستوى العامل العربي منحطا عن مستوى العامل اليهودي دائما .

اما خطة الاستعمار البريطاني فهي مفهومة لدى ابسط عامل كمصيدة للبرجوازية الصهيونية والارستوقراطية الوطنية والضغط على جميع الحركات الثورية باستعمال افظع طرق الارهاب والاستثمار الوحشي وحرمان ابناء البلاد من جميع الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

فمن كل ما ذكرنا يظهر ان حركة العمال الفتية في فلسطين واقعة بين ثلاثة اعداء عنيدين وهم الاستعمار والصهيونية والوطنيين الاصلاحيين . والانتصار على هؤلاء الاعداء ، لا يمكن الا بالتنظيم والاتحاد مع الفلاحين . والمؤتمر الاول كان الحجر الاساسي لهذا الاتحاد المستقل ضد اعداء حركة العمال الثورية مهما اختلفت صبغتهم ونزعاتهم .

فلتعلم الطبقة العاملة انها قوة لا يستهان بها ، اذا

توحدت صفوفها وحاربت بقوة ونشاط ضد اعدائها .

فليحيى ذكر المؤتمر الاول لعمال العرب .

فلتحيى حركة العمال الثورية » .

وجد الشباب اليساري في التطور التي شهدته الحركة الوطنية خصوصا بين الشباب ، عامل تفاؤل حيث ارتفعت الاصوات ضد الزعامة التقليدية المطالبة « بنهج نضالي جديد ، وفتحت بعض المجلات واهمها مجلة « العرب » التي انشأها عجاج نويهض والتي تمثل صفحاتها رأي حزب الاستقلال ، الى العناصر الشيوعية : « لم تكن المجلة بالطبع ميالة الى الشيوعية ، كما يبدو من تعليقاتها ، ومع هذا فقد فتحت صفحاتها لمن يهاجمها ، وممن يدافع عنها ، ولو بشكل بارع » (٣٢) ، فتشجع هؤلاء الشباب لاعطاء آرائهم ، وكتب احدهم عدة ابحاث تحت اسم « باحث » ، وتدل ابحاثه على ميول ماركسية . ويتضح من نمط كتابته اهتمام العناصر الشيوعية بالعمل مع العناصر التقدمية الاخرى المخلصة وطنيا والمعتدلة اجتماعيا ، ولذا لم تكن ابحاثه بالعنف الذي لمسناه في المقالة السابقة ، فمن جملة مقالاته كتب بحثا تحت عنوان « بعض مواضع الضعف في القضية العربية » يهتم خصوصا في اظهار الضعف الاساسي في الحركة السياسية العربية وهو عدم استناد القضية العربية على الشعب العربي نفسه فيقول :

« ولعل هذا النوع من الضعف هو انكى انواع الضعف الذي ينتاب القضية العربية في موقفها الحاضر . واننا لا

---

٣٢ – علوش ناجي ، **المرجع السابق** ، ص ٨٢ .

نتوقع للقضية العربية خيرا ما دامت لا تستند على الشعب العربي نفسه فتبدو حركة شعبية مملوءة حياة وقوة . اما وهي قضية قائمة على فريق ذوي المصالح واصحاب الجاه يتحكمون فيها تحكما ويستغلونها استغلالا من غير رحمة ولا شفقة فستظل قضية مفككة الاوصال ضعيفة الكيان ولا نريد في هذه الكلمة العجلى ان نعرض للقضية العربية فنبين مواضع استغلال هذا الفريق لهذه القضية منذ نشوئها الى اليوم لان هذا امر لا خلاف فيه حتى نضطر الى التدليل عليه ولاننا في موقف لا تسمح فيه نفسنا ان نرجع الى الماضي فنبيّن ما عفى من آثاره . ولكننا نهيب بالامة العربية الكريمة لان تعنى بشأنها منذ اليوم عناية خاصة . فتعتبر ان المستعمرين في البلاد العربية كافة ضررهم كضرر الطبقة المتزعمة التي يستند عليها المستعمرون في توطيد نفوذهم ، جبهة واحدة تجب مجالدتها مجالدة قوية عنيفة حتى يعلو حق الامة على باطل المستعمرين واذنابهم على ان يكون الجلاد واضحا مكشوفا لا هوادة فيه ولا رخاوة، ولا كتابة ولا مجاز» .

وساهم هذا التقارب في مزيد من الحوار بين الشباب التقدمي ، ولكن الارتباط الاممي للحركة الشيوعية ، لم يساعدها على تحمل مسؤوليتها كاملة وتحليل الاوضاع تحليلا ماركسيا – لينينيا واعيا ، بدل البقاء اسيرة بعض الشعارات والتفسيرات ولم تستطع ادراك كون الجماهير الشعبية ثورية في موقفها ومطاليبها وتحرك من خلال صراعها مع الاستعمار والصهيونية والبرجوازية العليا ، اعدادا اكبر من الشباب المخلص خصوصا من الطبقة البرجوازية الصغيرة واكثرها آت حديثا من الطبقة الكادحة ، قادر على العودة ايديولوجيا

اليها ، ولكن كان ينقصها الثقافة والتربية الثورية لتتحرك على هذه الارضية ، ولتدرك مقومات ثورة التحرير ومستلزماتها الموضوعية والذاتية ، وتفرز منها ومن الطبقة الكادحة طليعة ثورية متسلحة باستراتيجية تحريرية تجند الجماهير وتدفعها الى التضحية والصمود والنصر .

رابعا : مشاكل الممارسة الثورية للشباب المتعلم في عهد الانتداب

١ – حصر بحث مواضيع الانتقادات في الفترة السابقة بمرحلة (١٩٢٩ – ١٩٣٦) لكونها من ادق المراحل في حياة الشعب الفلسطيني ، حيث ادرك خلالها حتمية تغيير نمط نضاله اذا اراد الحياة ، فسعى الى تعميق تحليله وايجاد انماط جديدة من التنظيم ، خصوصا بعدما ظهرت الجماهير الشعبية في ثورتها العارمة في آب (اغسطس) ١٩٢٩ وفي عقدها للمؤتمرات والمهرجانات العديدة وسعيها للقيام بمبادرة ذاتية ، اما عن طريق الكفاح المسلح كما سعت اليه التنظيمات السرية ومنها تنظيم الشيخ عز الدين القسّام ، او خرجت بمظاهرات متتالية في المدن الفلسطينية والقيام باضرابات واسعة ، ومهدت هذه الممارسة النضالية المتشعبة الى الاضراب الكبير والثورة الكبرى ، فعبأت الجماهير للنضال واوجدت بعض البذور التنظيمية القادرة على اخذ زمام المبادرة ، بالرغم من الفراغ التنظيمي الكبير . وساهم الاضراب في بلورة هذه البذور والتحامها وتوسيع نطاقها ، وتشجيع العناصر الفلاحية على تنظيم نفسها بقدر الامكان .

سعت الجماهير الى تحرير نفسها من زعامة الطبقة الوجيهة ، غير ان الايديولوجية البرجوازية التي تسربت اليها

من تأثير قيم المجتمع التجاري ، جعلتها تتوقف في منتصف الطريق في تحليله ، واجبرها تفكيرها الوسطي تحت شعار « وحدة الامة » على الرجوع حتى عن بعض استنتاجاتها ... وهكذا قبلت الزعامة المرفوضة ، وستظل هذه المشكلة حية حتى آخر عهد الانتداب . وساهمت المواقف الوسطية الاخرى بتعطيل اندفاع الجماهير واستعدادها الكامل للتضحية دفاعا عن حقوقها .

ستسعى الفقرة الحالية الى تحليل التفكير الوسطي هذا ، مؤكدة اسبابه المادية والفكرية . ففي البدء ستحلل بعض نماذج التفكير الوسطي ، اعتمادا على ثلاثة مواضيع اساسية وهي : ١) مفهوم الاستعمار البريطاني ٢) العلاقة مع الطبقة الوجيهة ٣) النظر الى الطبقة العاملة . وسيحلل النشاط الوسطي عن طريق تحليل برامج وقرارات بعض الاحزاب . ومن خلال تحليل تلك النقاط سنسعى الى مقارنتها بالتفكير العلمي السليم ، الا ان طرح هذا الموضوع سيحصل خلال تحليل النظرة الميكانيكية التي تحلّى بها معظم الشباب من الاجيال المتعاقبة .

٢ ــ بنى حزب الاستقلال الفلسطيني انتقاده الاول للحركة السياسية العربية في فلسطين ، على اساس انها تراجعت عن مواقفها الاستقلالية ، واهملت محاربة الاستعمار البريطاني ، والهت الشعب بالكلمات البراقة ، لهذا فهو محق بانتقاده لهذه الحركة ، اما ان يقول ان الحركة تراجعت عن المطالب الاستقلالية فشيء آخر ، اذ لم تفكر الحركة العربية في العهد الفيصلي او ما بعده مباشرة بالاستقلال الفعلي ولم

تكن تدركه ، بل انها حاربت الاستعمار العثماني لتتقرب من الاستعمار الغربي ، كما جاء في الفصل الاول .

عندما طالب المؤتمر الثالث الفلسطيني في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ بالحياة النيابية ، اعتمد على بريطانيه « ... احقاقا لمبادئها السامية التي ترغب في تطبيقها في العراق وشرق الاردن المتكلمتين بالعربية وتأييدا وتوفيقا للمودة المتأصلة بينها وبين الامة العربية على الاطلاق » (٣٣) .

لم تكن البرجوازية الوطنية راغبة حقا بالاستقلال وبمعاداة بريطانيه، اذ كانت تدرك ان مصالحها مرتبطة به . تذكرت هذه البرجوازية تلك المصالح عندما احتجت الجمعيتان الاسلامية والمسيحية في حيفا على تهريب الاسلحة عام ١٩٢١ ، فكتبتا للمندوب السامي « ... نطالبكم كحكومة لها مصالح عظيمة مرتبطة بالبلاد العربية وبأهلها » (٣٤) . لم تحذف النظرة الاستقلالية في ذلك الوقت صداقة بريطانيه من تفكيرها ، وقد ابدت بريطانيه صداقة تجاه العرب في معاملتها الخاصة لشرق الاردن والعراق . واذا ما امتعض شباب الثورة العربية على بريطانيه فلأنها نكثت بالوعد، وهذا ما سعى حزب الاستقلال عام ١٩٣٣ الى تذكيرها به ، في عدد خاص من مجلة «العرب»، وبالمنشورات التي وزعها في كل انحاء فلسطين .

تحوّلت قضية الاستعمار البريطاني ، الى قضية شرف، والى قضية وعد بلفور والوطن القومي وقضية رفض حكم

٣٣ ــ طرابين ، احمد ، **المرجع السابق** ، ص ٢٠٣ .
٣٤ ــ طرابين ، احمد ، **المرجع السابق** ، ص ٢٠٥ .

الاكثرية العربية ، بدلا من ان ينظر الى الاستعمار البريطاني كمفهوم اقتصادي – سياسي ومن احدى « ظواهره » الصهيونية ، اي توطين فئات اوروبية في الارض العربية لضمان مصالحها في المنطقة ، خوفا من نمو الوعي القومي – الاجتماعي لدى الجماهير العربية ، الذي قد يطيح مستقبلا بمركزها . رفضت البرجوازية الوطنية النظر الى الاستعمار من هذه الزاوية ، لان اي موقف ثوري حقيقي ، سيضر بمصالحها ، فهي متضامنة مع الاستعمار في توطيد مكانة اقتصاد الخدمات ، وتحقيق انتشار المجتمع التجاري ، وعندما بدأت الفئات الشيوعية تهاجم الاستعمار بمفهومه الشامل وتهاجم مرتكزاته الطبقية في المجتمع الفلسطيني ، بدأ الهجوم من قبل البرجوازية الفلسطينية على سعي الشيوعيين لتفريق « وحدة الامة » وشعروا « بواجبهم الديني » ، فحاربوهم باسم الدين وضد الالحاد ، فكان على الشباب المتعلم المتزايد استكشاف طريقة ، لكن الافق الذي حددته ثقافة وتربية المجتمع التجاري منعه من التعمق في التحليل واستنتاج المواقف السليمة ، وظلت قضية الاستعمار لدى معظم الشباب الفلسطيني ، قضية الحكم الذاتي الموصل الى الاستقلال ، فجاء في قرارات اول مؤتمر للشباب الذي عقد في نابلس في ايلول (سبتمبر) ١٩٣١ ، مطالبة اللجنة التنفيذية العربية والهيئات الوطنية « ... ان لا تفاهم مع الحكومة الا على اساس المطالبة بالاستقلال ضمن الوحدة العربية الى ما يوصل الى هذا الاستقلال مع المشاريع الاقتصادية والسياسية » (٣٥) .

٣٥ – طربين ، احمد ، **المرجع السابق** ، ص ٢٦٨ .

قد يعتقد المرء من احد بنود ميثاق الشباب الفلسطيني لعام ١٩٣٢ انهم ادركوا المعنى الحقيقي للاستعمار : « لما كان الاستعمار بجميع اشكاله وصيغه يتنافى كل التنافي مع كرامة الامة العربية وغايتها العظمى فان الامة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها » . ولكن قرارات الشباب خلال الاضراب الكبير تؤكد ضيق مفهوم الاستعمار او الاستقلال ، فهم يريدون فقط فلسطين عربية ، وما اضرابهم الكبير وثورتهم ، الا اجبار حكومة الانتداب على الغاء وعد بلفور وتثبيت عروبة فلسطين (٣٦) ، ولا ينفي ذلك وجود بعض العناصر التي تطمح الى الحرية الكاملة ، ولكن ثقلها في توجيه الرأي العام محدود ، وليس لديها استراتيجية متكاملة ولم تتبلور الى طليعة ثورية قادرة على قيادة الجماهير المصممة على القتال حتى النصر . وبعد تردد قبل الشباب الملتزم قرار اللجنة العربية العليا بوقف القتال انصياعا لنداء الملوك والامراء العرب ، ثم تجدد القتال بعد ان اكتشفت الجماهير الكادحة والشباب الملتزم رياء الاستعمار ، واقتناع بعض الزعماء ان الضغط الماضي لم يكن كافيا . بدأ الشباب يتحسس اصرار الاستعمار ، بالرغم من ارتفاع عدد ضحاياه ، على البقاء في فلسطين وحماية بناء الوطن القومي ، كما بدأ يشعر من خلال سياسته في العراق ، ان اعطاء الاستقلال الشكلي ما هو الا تزييف مرحلي ، مستعد للكشف عن وجهه الحقيقي في اي مرحلة مهمة له ، فهكذا بطش باستقلال العراق عام ١٩٤١ حفاظا على مصالحه

٣٦ – مراجعة : بيان مؤتمر لجان طلبة المدارس في فلسطين المعقود في يافا – ١٠/٥/١٩٣٦ . الوثائق ، ص ٩٥

الاستعمارية بحجة الدفاع عن العدالة في العالم ، وهو يبطش بمبادىء العدالة الاولية في مستعمراته .

لكن الايديولوجية البرجوازية التي ظلت سائدة في فلسطين ، قوّت من مركزها ، باستنادها على « تدخل » الملوك والامراء وعلى البرجوازية – الكومبرادورية في الدول العربية ، سعت الى تحويل القوة الضاغطة من عمل ذاتي جماهيري ، الى قوة الحكومات العربية ، حيث لبريطانيه « مصالح كبيرة » ، وشجع ظهور الجامعة العربية توحيد هذا الضغط ، وزاد التشكيك في القوة الذاتية فاعلنت الطبقة البرجوازية الفلسطينية ، والطبقات الرجعية العربية في البلاد شبه المستقلة ، ان ربح التأييد البريطاني الاميركي اهم عامل لنيل الحقوق العربية في فلسطين . واذا ما رفض قسم من الزعامة البرجوازية التفاهم مجددا مع بريطانيه فلأنه ذاق المرارة منها ، ولم يعد يثق بكلامها ، ولكنه مع ذلك قبل التعامل مع اعوانها في الدول العربية الاخرى ، اعتقادا بالفائدة المادية من الجامعة العربية ، تجاوبا مع ايديولوجيته التي تدفعه الى العمل مع طبقته .

بسبب عدم وضوح الرؤية لدى معظم الشباب الفلسطيني ، اندفع الشباب وراء الجامعة العربية مؤملا فيها تحقيق احلامه ، ورفع مجددا شعار الحزب: « تهديد بريطانيه بالتعداد العربي البشري » ، لم يكن يثق كثيرا بالزعماء ولكنه كان يثق بالجماهير العربية ، معتقدا انها بالتحامها معه ، ستمده بقوة تحسس مقوماتها ماضيا وحاضرا ، بالرغم من ان هذا الالتحام لم يكن واضحا لديه .

٣ – انعكاسا لعدم تفهم معنى الاستعمار ، لم تستطع جموع الشباب التقدمي المعتدل ، تفهم العلاقة بين الطبقة الوجيهة والاستعمار، معتقدة ان الامة بأجمعها ضد الاستعمار البريطاني وضد الوطن القومي ، اذ اظهرت الامة تضامنها في بعض المواقف : التصريحات والمظاهرات ... والانضمام للثورة : يهاجم هذه الطبقة عندما يهدأ نشاطها وتظهر خلافاتها سعيا وراء احتكار الزعامة وزيادة المصالح ، ويتراجع ويقبل بها عندما تنضم اليه وتوافق على آرائه ، فيفتخر حينئذ بوحدة الامة واصرارها على نيل حقوقها ، وهكذا لافتقاره الى ايديولوجية ثورية ، يقبل بتراجعه الفكري بدلا من ان يسعى الى ايصاله لمداه الحقيقي واستكشاف التناقضات الاجتماعية وعلاقتها بالاستعمار .

هاجم شباب الثورة العربية الوجاهة التقليدية الرجعية ثم عمل معها بعد ١٩٢٣ وهاجم الشباب الملتزم الطبقة الوجيهة عام ١٩٣٣ وقبل العمل معها خلال الثورة ، وبالرغم من ادراك عجزها خلال الثورة وبعدها ، الا ان الشباب التقدمي لم يستطع اخراجها من مراكز القيادة ، وقبل العمل معها في اللجان القومية بعد عام ١٩٤٦ . لم يستطع الشباب الفلسطيني ، ايجاد استراتيجية جذرية تساعده على التخلص من قيادة البرجوازية العليا ، فوجد نفسه على مضض يتعامل معها في اواخر الانتداب ، كان يشعر بها كعلة في اطراف الجسم القومي ولكن لم يكن قادرا على استئصالها . وانتظر حتى التشرد ليعلن اسقاطها نهائيا من اعتباره ، غير ان ايديولوجيته غير الثورية والفراغ التنظيمي حالا دون ظهور قيادات جديدة لمدة طويلة . وخشيت الطبقات المستغلة دوما قوة الجماهير

الصاعدة من شباب ملتزم وطبقة كادحة تزداد وعيا وتطرفا. ولكن لم يصل هذا الخوف الى تغيير اسلوبها ، بل وجدت في تخبط القوى الصاعدة ثغرة تستطيع منها البقاء .

ووجد الشباب المثقف من ابناء الطبقة الوجيهة ان عليه وضع نظرية جديدة لتزعم هذه الطبقة للحركة السياسية ، فأرادوا افهامها للشعب عن طريق غير مباشر فكتبوا في احدى الدراسات التي اصدرها المكتب العربي في القدس بمناسبة قدوم اللجنة الانجلو – اميركية الى فلسطين عام ١٩٤٦ ، يقولون: « فان من الشروط الاساسية في سلامة بنية المجتمع، ديموقراطيا كان او غير ذلك ، ان يكون فيه عدد من العائلات التي يوجد فيها الشعور بواجب الخدمة العامة والمسؤولية القومية على مستوى ارفع من المعتاد » (٣٧) . لم ينظر الى هذا المكتب بكل ارتياح من قبل جميع افراد الشعب الفلسطيني، غير ان تشجع هؤلاء على اعطاء تحليل كهذا ، يدل على المستوى الفكري العام ، الذي لم يوفر ضوابط كافية يخشى منها ابناء الطبقة الوجيهة .

٤ – هناك نموذج آخر للتفكير الوسطي للشباب الفلسطيني في مراحله العديدة ، وهو موقفه من الطبقة العمالية . لم يكن ايجابيا تماما معها خلال نضالها ، بل نظر اليها من خلال منظاره الطبقي ، مهددة لوحدة الامة ، لانها تطالب بحقوقها وترفض استغلالها . واتضح لنا مقدار استغلالها من خلال تحليلنا لاحوالها خصوصا قبل عام ١٩٣٦ ،

٣٧ – المكتب العربي – **مشكلة فلسطين** – القدس ١٩٤٦ ، ص ١٣٨ .

ونتلمس من مقالة ايليا زكا في افتتاحية العدد الاول لمجلة « العمال » عام ١٩٢٤ عمق ازدراء الفئة الواعية لاي نشاط عمالي « قد يمكن ان يتلقى بعض المتعلمين الراقين الذين يأنفون ان يروا لطبقة العمال مجلة خصوصية ... فليقولوا ما شاءوا وليهزأوا ما استطاعوا ويسخروا بقدر رقيهم وعلمهم » (٣٨) ، يتضح من هذا الكلام ان الفئة المتعلمة البرجوازية ، لا تعتقد باهلية العمال للكتابة بأمورهم ، او تعتقد انه ليس من فائدة للتحدث الى العمال ، فليس لديهم مستوى من « الرقي » يؤهلهم لتفهم الامور السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتعتقد ان على الانسان الحصول على الرقي اولا وبعدها الاهتمام بالامور العامة ، ونكاد نستنتج ان الطبقة البرجوازية تعتقد ان من سنة الحياة ان تكون الطبقة الكادحة امية ومطيعة . وبالرغم من التحدث عامة بنشر التعليم والرقي لم نشهد اي اهتمام فعلي خلال العشرينات من قبل البرجوازية لنشر التعليم في الريف او في الاحياء الفقيرة في المدن ، ولكن الطبقة البرجوازية رفعت صوتها فقط احتجاجا على سياسة التجهيل لها عندما شاهدت الجماهير الشعبية تلح في طلب العلم ، وبدأت تتظاهر في اوائل كل سنة مدرسية ، خصوصا بعد ثورة آب (اغسطس) ١٩٢٩ .

وحاربت التنظيم العمالي خلال العشرينات بحجة انه

٣٨ – زكا ، ايليا ، مجلة **« العمال »** – حيفا ، العدد الاول ١٩٢٤/١٠/٢٠ .

نشاط استعماري لتفكيك الامة . وبالرغم مـن اعتراف اميل الغوري بكفاح الطبقة الكادحة الا انه في كتابه يعطينا صورة امينة لتفكير الشباب البرجوازي فيحلل مرحلة (١٩٢٣ ـ ١٩٢٩) بقوله : « سعوا الى الافساد بين الفلاحين واهل المدن وزعمـاء الحـركة الوطنيـة الذيـن نعتوهم (بالافندية) و (بالاقطاعيين) ، كما عملوا على الايقاع بين العمال واصحاب رؤوس الاموال ، وبين المزارعين والملاكين ولكن تلك الجهود الشريرة لم تأت مما اراده الاعداء » (٣٩) . من هي هذه الايدي الشريرة ؟ أهي الحكومة التي تدعم الطبقة المستغلة وتساهم معها في سلب الفلاحين كما ذكـر في الفصل الرابـع ، أم الصهيونية التي اوجدت تنظيما عماليا يضطهد العمال العرب، فالايدي الشريرة اذن هي العناصر « البلشفية » ولذا دعـي المؤتمر الطلابي الاول عام ١٩٢٩ الى « انشاء نقابات وطنيـة للعمال كي يصبحوا بمعزل تام عن تأثير الشيوعية والبلشفية وسائر الحركات الهدامة» (٤٠) . لم يرفض الشباب البرجوازي النقابات مثل قبل ، اذ لمسوا سعي العمال للتكتل ومقاومـة اضطهاد العمال الصهاينة لهم ، وشاهدوا كذلك قوة التنظيم العمالي الصهيوني ، فقبلوا مبدأ تأليف النقابات العمالية . ولكن يجب ان لا تقترب هذه النقابات من مصالح البرجوازية العليا ، لصيانة « وحدة الامة » .

لكن هذا القبول الشكلي لمبـدأ النقابات ، ساهم مـع

---

٣٩ ـ الغوري ، اميل ، **المرجع السابق** ، ص ٦٢ .

٤٠ ـ « النفير » : ٢٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٢٩ ، (ذكر هذا المصدر سابقا) .

ازدياد اضطهاد العمال العرب، وظهور النقابات العربية وعقدها المؤتمرات العامة ، في توعية مزيد من الشباب المتعلم بأهمية النقابات ، بغض النظر عن موجهيها ، فقرر مؤتمـر الشباب الثاني عام ١٩٣٥ ، دعم الحركة العمالية وانشاء النقابات في كل بلد « والدعوة لمؤتمر يضع مقررات تقيد العمال » (٤١) ، وان يكون مجلس العمال العام مرتبطا بمؤتمر الشباب . مـن المحتمل ان يكون هذا القرار قد اخذ تحت ضغط العنـاصر التقدمية والتي تقربت من مؤتمر الشباب ، الا ان البرجوازية العليا (متوسطة وكبيرة) ظلت على موقفها ، فخطب رشيد الحاج ابراهيم من الاعضاء البارزين في حزب الاستقلال عام ١٩٣٦ قائلا : « فبينما نجد حامية يهودية تطارد عمـالا عربا في جهة من الجهات نجد عمالا آخرين من اليهود يندسون بين العمال العرب طالبين اليهم الانضمام الى نقاباتهم والمطالبـة بنفس الحقوق التي لهم من تقليل ساعات العمل وزيادة الاجور محاولين في ذلك تنفير اصحاب الاعمال منهم وعدم العطف عليهم » (٤٢) . فهو تغاضى عن ذل بعـض العمال العرب او المثقفين العرب الذين يريدون تنظيم العمال لتحصيل حقوقهم المشروعة ، لانه لا يريد اظهار الانقسام داخل المجتمع العربي، امام الوفد البرلماني العراقي ، لكن مسيرة الحركة العماليـة الفلسطينية اصبحت محققة . فالصراع الاجتماعي والوعـي القومي اهلا العامل بالوضوح والتجرد اللذين ازدادا مع انتشار التعليم ودخول اعداد كبيرة من الشباب المتعلم حلبة العمل ،

---

٤١ ـ السفري ، **المرجع السابق** ، ص ٢٠٠ .

٤٢ ـ الحاج ابراهيم ، رشيد ، **المصدر السابق**، « النفير » ٢٩/٢/١٩٣٦ .

وجاءت ظروف الحروب لتوفر التجمع العمالي في الدوائر الحكومية وفي الجيش ، وتوفر اسبابا للتظلم والاضراب نتيجة غلاء المعيشة ، وساعدت سياسة الحكومة البريطانية على كسب عطف العرب لقضية الحلفاء واحلال الاستقرار الفعلي نتيجة الاقتناع من قبل الحركة السياسية العربية ، بتنشيط الحركة العمالية وبلورتها الى قوة جماهيرية ضخمة .

وبدلا من ان يشجع الشباب المثقف وابناء العائلات الكبيرة المهيمنون على الحركة الوطنية الرسمية ، هذا التنظيم العمالي ويعملوا على توطيد مركزه السياسي ، تهرّبوا من الاعتراف به كقوة جماهيرية منظمة نسبيا ، قادرة على رفع كفاءة النضال الوطني ، بل سعوا الى محاربة القيادات العمالية او الهائها بأمور ثانوية . ان موقف هذه الطبقة ليس بغريب ، ولكن الغريب ان لا تسعى القيادات العمالية الواعية والمثقفون التقدميون الى الاعتماد على النفس ، وزيادة الكفاءة التنظيمية لهذه النقابات وتسليح العمال بالوعي الثوري ، لكن التفكير الوسطي المستمد من قيم المجتمع التجاري وبقايا المجتمع الاقطاعي ، لم يؤهلهم القيام بهذا الواجب ، فعجزت الحركة العمالية الفلسطينية عن قيادة الحركة التحريرية العربية في فلسطين ، بل وعجزت عن توطيد مركزها في الكفاح والمساهمة في التخطيط له . وقبلت بدور ثانوي ، تلاشى مع الوقت ، وكان من نتائج هذا التراجع فقدان الحركة العمالية لحيويتها بعد التشرد . وقد تكونت عوامل اخرى شاركت في شل الحركة العمالية الفلسطينية ، ولكن اهم سبب ، هو عجزها في تصعيد تنظيمها وكفاحها خلال السنتين الخطيرتين ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، ولم توطد في ذهن عشرات الالوف من اعضائها القيمة الكفاحية

الشاملة للحركة العمالية . وكان في فشل هذه الحركة مأساة ثانية للشعب الفلسطيني بل والعربي ، اذ شل عمل حركة ، تحتوي على قيم ومفاهيم ديناميكية ، تتناقض والمجتمع التجاري ، قادرة من خلال صمودها ونشاطها على امداد اعضائها والمجتمع ككل بمرتكزات وقيم تحقق نمو العمل الجماعي والتفكير العلمي ، وتوجد بالتالي التناقض الفكري والتنظيمي للمجتمع التجاري ، وتساهم في افراز طليعة ثورية مهيأة لتحمل اعباء عملية التحرير الكاملة ، تحرير الارض من الاستعمار والصهيونية وتحرير المجتمع العربي خصوصا الفلسطيني من تأخره .

وكان على الشباب الفلسطيني بعد عام ١٩٤٨ ، السعي ، في غياب التفكير الثوري والممارسة الثورية ، لايجاد طريقة من خلال الانتكاسات والتشاؤم ، ولكنها كانت كافية ، مع الانفتاح على حروب التحرر في العالم ، وعلى الثقافة الثورية ، لامداد تصميمه ببوادر استراتيجية ثورية وتضحية لامتناهية .

٥ — ساهمت الامثلة الثلاثة السابقة في اعطاء فكرة عن التفكير الوسطي الذي مارسته افواج الشباب العربي المتعلم خلال عهد الانتداب ، وعلينا الآن تحليل النشاط المتكامل ، اي درس تأثير التفكير الوسطي في استراتيجية تتطرق الى جميع نواحي النشاط الجماعي الوطني والتي سماها الحزب العربي الفلسطيني في قانونه « غايات الحزب » (٤٣) او ما اسماها حزب الاستقلال في دستوره « خطط الحزب » (٤٤) او سماها

---

٤٣ — مراجعة : علوش ناجي ، **المرجع السابق** ، ص ١٩١ .

٤٤ — **المصدر نفسه** ، ص ١٩٥ .

مؤتمر الشباب « مقررات مؤتمر الشباب الفلسطيني الثاني»
وتعاد هنا الملاحظة السابقة : يفتقر الكاتب الى معلومات كافية عن الحركات السياسية الفلسطينية بعد عام١٩٤٢ مما جعله يرتكز على الحركات التي سبقت الثورة الفلسطينية الكبرى ، كما ان الحيوية التي افرزها النشاط الفكري الفلسطيني في ذلك الوقت تساعدنا على تفهم تطور ما بعد عام ١٩٤٢ . ولكن يستحسن مستقبلا تحليل برامج الحركات السياسية اللاحقة خصوصا مقررات المؤتمرات العمالية ومسودة مشروع الحزب العمالي الذي اراد سامي طه تكوينه . ويفضل عدم الاعتماد على كتاب موسى العلمي وعنوانه «معنى النكبة» الذي اصدره عام ١٩٤٨ ، لانه مثل تفكير المثقفين من ابناء البرجوازية الكبيرة التي سعت للدفاع عن نفسها من خلال نشرات المكتب العربي، ولا يمثل تفكيره الاتجاه التقدمي المتزايد للشباب الفلسطيني والذي كان ، بالرغم من عجزه الايديولوجي ، محور النشاط النضالي للجماهير العربية في فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية .

ولما كانت آراء حزب الاستقلال والحزب العربي الفلسطيني محدودة ومبعثرة ولم تصدر عن عمل جماعي كما كان الحال مع مقررات مؤتمر الشباب ، سنهتم فقط في تحليل مقررات هذا الحزب او التجمع ، وهو يمثل بصورة افضل نشاط الشباب . لقد صدرت مقررات مؤتمر الشباب بعد اجتماع لحوالي الف شاب فلسطيني من كل انحاء فلسطين ، وبعد التحضير الفعلي لهذا المؤتمر بالابحاث والمناقشات الفرعية قبل وخلال المؤتمر .

وقبل البت بهذه القرارات ، يجب التنويه باننا لا نستطيع ربط التقدمية بمفهوم معين، بل علينا استنتاجها في وقتها ومحيطها ، فالتفكير التقدمي نسبة لحقبة من الحقب ، يكون في تجاوز التفكير السائد ، بعد انتقاده ومساهمة هذا التفكير في تطوير النضال الوطني مباشرة او غير مباشرة ، ويتزايد عمق التفكير التقدمي ، لدى بعض الفئات او الافراد، في مدى تفهمها للمعطيات الموضوعية واستنتاج استراتيجية اولية ملائمة ، قادرة بالممارسة الثورية والنقد الذاتي ، ان تتبلور الى استراتيجية متكاملة لتحرير الوطن .

ولكن للاسف افتقر مؤتمر الشباب الى دراسة موضوعية شاملة ، فرأينا مثلا قراراته بشأن التعليم ، فبالرغم من مطالبته بتغيير المناهج ومساعدة المدارس الاهلية « عقد مؤتمر عام للمدارس الاهلية والمشتغلين بالحركة التعليمية » ، الا انه لم يحدد مفهومه للتربية وللمناهج ، وكأن قراراته بهذا الشأن في محيط العمل الاجتماعي الجامد وليس قسما من النضال الوطني وتعبئة الجماهير خصوصا الجيل الجديد بمدّه بقيم ومسلكية تتجاوبان ومتطلبات العمل الجماعي والثقة بالنفس والتضحية المثالية .

ما تفتقر اليه تلك المقررات، هو التفكير الشامل المترابط، لقد كانت انعكاسا للمطاليب الشعبية وليس فهما للمطالب الشعبية والارتقاء بها لتخدم هدف النضال .

ذكرت تلك المقررات مرارا وكذلك ميثاق الشباب الذي اقر في المؤتمر الاول عام ١٩٣٢ . ولكن سنذكر هذه المقررات

كاملة (٤٥) ، ليستطيع القارىء متابعة بنودها من خلال التحليل .

مقررات اجتماع مؤتمر الشباب الفلسطيني في حيفا .

١ ـ الحالة السياسية :

١ ـ ان تقوم نهضة الشباب على اساس متين منظم يدعمه الاخلاص لله والوطن وتشكيل لجان فرعية للشباب في كل مدينة وكل قرية بحيث يؤلفون كتلة متحدة الغاية متجانسة الميول مستعدة للقيام بخدمة الامة .

٢ ـ السعي لتوحيد جهود الامة في مكافحة الخطر المحدق بها وتأليف جبهة وطنية منيعة لصد هذا الخطر ودعوة الامة الى نبذ التفرقة .

٣ ـ تخصيص اكبر نصيب للعناية بالمشاريع الاقتصادية والعمرانية وتأليف لجان مختصة دأبها العمل في هذه الناحية.

٤ ـ العمل على تقوية الروح الوطنية بالطواف في المدن والقرى والقاء الخطب والمحاضرات لتنظيم الرأي العام العربي وصرفه في سبيل الخير والعمل المثير والابتعاد عن المظاهر العارية ومحاربة اليأس والدعايات السيئة واحتقار الخيانة والخروج على الوطن .

٥ ـ بث الروح في الامة كي تعتمد على نفسها للخلاص مما هي فيه وتحذيرها من الوقوع في الشراك والانخداع بالعهود والوعود ومكافحة الاستعمارين الانجليزي واليهودي.

---

٤٥ ـ المقررات حسب عيسى السفري ، وتختلف بعض الشيء عن تلك المذكورة في ملاحق كتاب ناجي علوش، مراجعة : السفري ، ص ١٩٧ ـ ٢٠٠ .

٦ ـ القيام بالدعايات الكافية لقضية فلسطين في الداخل والخارج والاتصال بكل من ينتصر لها وتوثيق العلاقات بين الاقطار الشقيقة والعمل للوحدة العربية .

٢ ـ المسائل الوطنية :

١ ـ الاهتمام بمشروع البطيحة .

٢ ـ تأليف لجنة خاصة للاراضي وانقاذها .

٣ ـ اذا ظلت الحكومة مصرّة على تسهيل الهجرة وبيع الاراضي فلجنة الشباب تفكر في الرجوع الى سياسة المظاهرات.

٣ ـ بيع الاراضي :

١ ـ ان يقوم الشباب العربي بالطواف على المدن والقرى لتأسيس شركة لانقاذ الاراضي يبلغ اسهمها ٦٠ الف جنيه .

٢ ـ تأليف مكاتب خاصة في المدن والقرى تكون واسطة بين الفلاحين والمشترين .

٣ ـ مناصرة الوطنيين الذين ينقذون الاراضي .

٤ ـ المعارف والتعليم القومي :

١ ـ ان يتولى مدارس العرب بفلسطين ادارة عربية اسوة بالمدارس اليهودية التي تتولاها ادارة صهيونية .

٢ ـ ايجاد المدارس الكافية من تعليمية وزراعية وصناعية وتجارية وغيرها .

٣ ـ ارسال بعثات علمية بصورة كافية .

٤ ــ لفت نظر الادارة الى كل قصور فيها والى كل ما يبدو منها تقصير .

٥ ــ عقد مؤتمر عام للمدارس الاهلية وللمشتغلين بالحركة التعليمية وتأليف اتحاد عام لهذه المدارس تديره هيئة خبيرة مختصة .

٦ ــ المطالبة بتعديل البرامج والمناهج وزيادة مخصصات المدارس الاهلية .

٧ ــ تقديم ما يمكن من المساعدات للمدارس الاهلية من مادية وادبية .

٨ ــ الاكثار من مدارس البنات .

٩ ــ مطالبة الحكومة بجعل التعليم الزاميا في البلاد .

٥ ــ الصحة العامة :

١ ــ العناية بالرياضة البدنية .

٢ ــ مكافحة الامراض السارية .

٣ ــ فتح مستوصفات طبية ومعاهد للعناية بالاطفال .

٤ ــ الدعاية للنظافة والاغتسال بالمياه .

٥ ــ مقاومة الزواج الباكر .

٦ ــ مسائل العمال :

١ ــ تأليف نقابات في كل بلد .

٢ ــ ان يتولى مكتب المؤتمر تنظيم حركة العمال

بتأسيس النقابات في كل بلد والدعوة لمؤتمر يضع مقررات تفيد العمال .

٣ ــ تأليف مجلس عمال عام مرتبط بمؤتمر الشباب يسجله في مكتب العمل الدولي في جنيف .

تجاوبت المقررات مع احساس الشباب بعمل منظم يوجه النضال الوطني عامة خصوصا نضال الشباب ، ولا يقتصر هذا النشاط على النضال السياسي ضد الاستعمار والصهيونية ، بل يشمل النهوض بالامة ، كما تؤكد الاحزاب الاخرى : « تحسين حالة الامة العربية في فلسطين اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا » كما يؤكد قانون حزب العربي الفلسطيني او « انهاض البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا » حسب دستور حزب الاستقلال . ولكن المؤتمر قرر تفصيليا مجالات النهوض بالامة واكد كل مرة على اهمية اللجان او المؤتمرات المتخصصة . وهكذا ظهرت ايجابية مقرراته بالتأكيد على اهمية العمل الدائم ، وتوكيل اهل الاختصاص حل المعضلات الاجتماعية والاقتصادية ، فكانت اعترافا اوليا باهمية العمل الجماعي: عمل منظم ومستمر ينبع من مشاركة اهل الاختصاص، ان هذا الاعتراف الفني ، لكونه يظهر ان نجاح العمل في قطاعات عديدة مرتبط بتحقيق العمل الجماعي الاختصاصي، هو بمثابة اعتراض على التفكير الاعتباطي او التصرف الفهلوي للعقلية التجارية ، التي تعتقد نفسها متملكة لكل المعرفة والتخصصات . يجعل هذا الاعتراف الفرد يتحسس بمعضلة الفردية والعاطفية ، ويسعى هكذا الى تحقيق العمل العلمي ، انه بحد ذاته عمل تقدمي لانه ينسجم مع متطلبات التفكير العلمي .

وفقدت المقررات بعض العوامل الذاتية مثل « المظاهر العارية » واليأس والاتكالية ، والدعوة الى محاربتها ، بالطواف في المدن والقرى والقاء الخطب والمحاضرات ، انه عمل تقدمي نسبيا ، لكنه لفظي وسيظل لفظيا ، اذ ليس الكلام هو الذي يغيّر القيم والمسلك بل العمل الثوري ، او اقل من ذلك الممارسة التي تعيد الثقة بالنفس وتطالب الفرد بالتضحية خدمة للمجموعة والمجتمع . لكن حث الشعب على التضحية الفعلية ، يتطلب معرفة مشاكل الشعب الحقيقية ، واهم مشكلة واجهت الشعب العربي استغلال الاقلية المالكة للاكثرية الكادحة ، ولم تكن مشكلة الطبقة الكادحة نقص الاراضي الزراعية ومجيء مزيد من المهاجرين الصهيونيين فحسب ، بل ايضا استغلال الرأسمالي لدين الفلاح ولبطالة العامل ليروي جشعه ، وكل عمل ينكر هذا الاستغلال بحجة وحدة الامة ، يعطل اية مساندة فعلية من قبل الفلاحين والعمال ، بل تظل الطبقة الكادحة تسير فرديا في كفاحها الذاتي . ولكن المؤتمر بموقفه الوسطي من الاستعمار والطبقة المستغلة ، افرغ مطالبه المخلصة من كل امل بتحقيقها .

ونتيجة لهذا الموقف الوسطي ، اهملت قضية بحث مساوىء المجتمع التجاري الذي يضم هذا الشباب وتأثير الاستعمار على تثبيت هذا المجتمع ، ولذا لم يضع المؤتمر حلولا جذرية تغيّر من قيم ومسلك الافراد ، فلم ينظر الى الحركة العمالية الفلاحية كتحرير لقدرات الطبقة الكادحة وضمها فعليا الى النشاط النضالي المنظم ، وافساح المجال لها لافراز قيادات وانماط تنظيمية وحلول لمشاكل اجتماعية اقتصادية، جاعلة منها قوة ضاربة حقا ، عدديا ونوعيا . كما انه لم يدرك

اهمية توجيه تربية الاجيال الجديدة، لعرقلة خطط الاستعمار في جميع النواحي .

ظلت حركة الشباب المتعلم الفلسطيني أسيرة التفكير الوسطي. فتهربت من القيام بتحليل تاريخي موضوعي، يحلل فحوى الصراع مع الاستعمار والصهيونية ويحلل سبب فشل النضال في الحقب الماضية. كانت انتقاداتها ترتفع بعد كل فشل ولكن تظل متمسكة بأسباب الفشل ، ولم تغيّر قط من نهج النضال ، بالرغم من اعتقادها بتغيّره ، ظلت اسيرة المرتكزات الاجتماعية والاقتصادية ، التي كانت سببا في تخلفها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، واذا ما بان لنا تغيّر في اسلوب النضال يختلف عن نضال عام ١٩٣٣ ، حيث وجهت الحركة السياسية العربية الفلسطينية نشاطها شطر المظاهرات والاضرابات ، فمرجعه ازدياد خطورة العدوان الصهيوني الاستعماري ، والتطوير الميكانيكي لاسلوب النضال وليس استيعابا كاملا للاستعمار في شطريه البريطاني والصهيوني ، وهكذا شاهدنا الاخذ بأسلوب الاضراب الطويل بعد فشل المظاهرات والاضرابات القصيرة ، وتطوير هذا الاضراب الى ثورة عارمة وفجائية قامت بها فئات متفرقة من افراد الطبقة الكادحة والشباب المتعلم المتحمس ، واستفيد من خبرة الشطر الاول للثورة ، للسعي الى تحقيق وحدة في القيادات في الشطر الثاني من الثورة ، بدلا من النشاط الاقطاعي الذي مارسته بعض الزعامات الشعبية . غير ان التفكير التقليدي الذي كان سائدا لدى بعض الزعامات الشعبية حال دون تحقيق الوحدة الفعلية ، بينما استطاعت القيادة المتعلمة بالمؤازرة الفعلية من جماهير الشباب المتعلم ، انشاء

وحدة عضوية من خلال جيش الجهاد المقدس بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن التناقض الاجتماعي والفراغ التنظيمي في القطاعات الشعبية جغرافيا وهيكليا شلا بالتكاتف مع مؤامرة اعوان الاستعمار في الجامعة العربية ، فاعلية هذا التنظيم المركزي واكد هذا الجيش حقيقة اساسية ، ان شعبا يفتقر الى التنظيم وغير متسلح بايديولوجية ثورية ، غير قادر على افراز جيش ثوري بالرغم من توفر قادة مخلصين ، كما ان جيشا منظما نسبيا ، تمتلىء صدور قادته وافراده بالحماس والتضحية ، غير قادر في ظل الفكر الايديولوجي الثوري ، على نقل التوعية والتنظيم والتضحية الى صفوف الجماهير ، بل تتاثر معنوياته بسلبية الجماهير وفوضويتها وعدم ثقتها بنفسها .

وتتجسد الايديولوجية الثورية ، بطليعة متماسكة ومثالية واضحة الرؤية ، مقررة استراتيجية نضالية ، تقضي على تناقضات التفكير الوسطي، وتدرك ان النضال هو النصر، هو التحرر الكامل .

مصادر البحث

المراجع العربية

١ ــ البرغوتي ، عمر صالح ، وطوطح ، د. خليل : **تاريخ فلسطين** ، القدس ١٩٢٢ .

٢ ــ برو ، توفيق علي : **العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨ ــ ١٩١٢)** ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣ ــ بيطار ، د. نديم : **الفعالية الثورية في النكبة** ، بيروت ١٩٦٥ .

٤ ــ بيطار ، د. نديم : **من النكسة الى الثورة** ، بيروت ١٩٦٨ .

٥ ــ **تقرير اللجنة الملكية (بيل) ، عن حوادث ١٩٣٦** ، القدس ١٩٣٧ .

٦ ــ **تقرير سيمبسون** ، القدس ١٩٣٠ .

٧ ــ جانا ، محمد توفيق : **الشهادات السياسية امام اللجنة الملكية في فلسطين** ، دمشق ١٩٣٧ .

٨ ــ الحاج ابراهيم ، رشيد : **القضية العربية الفلسطينية** ، مجلة « النفير » ١٩٣٦/٢/٢٩ .

٩ ــ الحسيني ، محمد يونس : **التطور الاجتماعي الاقتصادي في فلسطين العربية** ، يافا ١٩٤٦ .

١٠- الحصري ، ساطع : **البلاد العربية والدولة العثمانية** ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٥٧ .

١١- حكومة فلسطين : **تقرير اللجنة التي عينت لدراسة حالة المزارعين الاقتصادية في فلسطين والتدابير التي تتخذها الحكومة بشأن الضرائب بالنسبة لتلك الحالة،** القدس ١٩٣٠ .

١٢- حماده ، سعيد : **النظام الاقتصادي في فلسطين** ، بيروت ١٩٣٩ .

١٣- داغر ، اسعد : **مذكراتي على هامش القضية العربية** ، القاهرة (دون تاريخ) .

١٤- دروزه ، محمد عزة : **العرب والعروبة** ، دمشق ١٩٦٠ . ثلاثة اجزاء .

١٥- دروزه ، محمد عزة : **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها** ، جزءان . صيدا ١٩٥١ .

١٦- دروزه ، محمد عزة : **حول الحركة العربية الحديثة** ، ٥ اجزاء ، صيدا ١٩٥١ .

١٧- السوافيري ، كامل : **الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين من سنة ١٩١٧ - ١٩٥٥** ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٨- السفري، عيسى : **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية** ، يافا ١٩٣٧ .

١٩- الشقيري، جميل : **مجموعة الشهادات والمذكرات المتقدمة الى لجنة التحقيق الانجلو - اميركية** ، عكا ١٩٤٦ .

٢٠- الشهابي ، الامير مصطفى : **القومية العربية** ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العليا ، القاهرة ١٩٥٩ .

٢١- صلاح، حنا : **فلسطين وتجديد حياتها**، نيويورك ١٩١٩ .

٢٢- صليبا ، د. جميل : **محاضرات في الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام واثرها في الادب الحديث** ، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العليا، القاهرة ١٩٥٩ .

٢٣- طربين ، احمد : **محاضرات في تاريخ قضية فلسطين ، منذ نشأة الحركة الصهيونية حتى نشوب الثورة الكبرى،** جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٥٩ .

٢٤- العارف ، عارف : **تاريخ القدس** ، القاهرة ١٩٥١ .

٢٥- العباسي ، صلاح الدين : **فلسطين المجاهدة** ، حيفا ١٩٣٧ .

٢٦- علوش ، ناجي : **المقاومة العربية في فلسطين (١٩١٧- ١٩٤٨)** ، بيروت ١٩٦٧ .

٢٧- العياشي ، غالب : **تاريخ سوريه السياسي (١٩١٨ - ١٩٥٤)** ، بيروت ١٩٥٥ .

٢٨- عمار ، د. حامد : **في بناء البشر** ، دراسات في التغيير الحضاري والفكر التربوي ، مركز تنمية المجتمع في العالم العربي ، سرس الليان ١٩٦٤ .

٢٩ـ العظم ، د. صادق جلال : **النقد الذاتي بعد الهزيمة** ، بيروت ١٩٦٨ .

٣٠ـ الغوري ، اميل : **المؤامرة الكبرى : اغتيـال فلسطين ومحق العرب** ، القاهرة ١٩٥٥ .

٣١ـ كاتول، جبرائيل : **التعليم في فلسطين** ، القدس ١٩٤٧ .

٣٢ـ كرد علي ، محمد : **خطط الشام** ، ٦ اجـزاء ، دمشق ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨ .

٣٣ـ المكتب العربي : **مشكلة فلسطين** ، جزءان ، القـدس ١٩٤٦ .

٣٤ـ النمر، احسان: **تاريخ جبل نابلس والبلقاء** ، الجزء الاول عام ١٩٣٧ ، الجزء الثاني عام ١٩٦١ ـ نابلس .

٣٥ـ **وثائق المقاومة الفلسطينية العربيـة ضـد الاحتـلال البريطاني والصهيونية (١٩١٨ـ١٩٣٩)**، بيروت ١٩٦٨ .

٣٦ـ الوردي ، د. علي : **دراسة في طبيعة المجتمع العراقي**، بغداد ١٩٦٥ .

٣٧ـ يوسف ، د. عبد القادر : **مستقبل التربية في العـالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية** ، القاهرة ١٩٦٢ .

المجلات :

« العرب » : ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤ .

« النفير » : ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ .

المراجع الاجنبية

— American University of Beirut : **Reports of the President, 1920/21 — 1946/47.**

— Bowman, H. E. : **Middle East Window,** Longmans 1942.

— Bonné, A. : **State and Economics in the Middle East,** London 1955.

— Bonné, A. : **Palästina Land und Wirtschaft,** Berlin 1937.

— Government of Palestine : **Survey of Palestine 1946,** 2 vols.

— Granorsk, A. : **The Fiscal System of Palestine,** Jerusalem 1935.

— Heyd, W. : **Geschichte des Levante-handlen in Mittelalter,** Stuttgart 1879.

— Lammens, H. : **La Syrie, précis historique,** 2 volumes. Beyrouth 1921.

— Loftus, P. J. : **The National Income of Palestine 1945,** Jerusalem 1948.

— Lortet : **La Syrie d'Aujourd'hui,** Paris 1881.

— Nathan, R; Gass, R; Greamer, D. : **Palestine Problem and Promise,** Waschington 1946.

— Nardi, N. : **Education in Palestine,** Washington 1945.

— Oliphant, L. : **The Land of Gilcad,** York 1881.

— Oliphant, L. : **Haifa or Life in Modern Palestine,** Blackwood 1887.

— Palestine Superintendend of the Census : **Report and general abstracts of the Census of 1922,** Jerusalem 1923.

— Palestine Superintendend of the Census : **Census of Palestine of 1931,** 2 volumes. Alexandria 1933.

— Palestine office of statistics : **The Yearly Statistical Abstract of Palestine,** 1936 — 1946, 9 volumes.

— Polk, W., R. : **Backdrop to tragedy,** Boston 1957.

— **Report of the Commission on Palestine Disturbances of August 1929,** London 1930.

— Ruppin, A. : **Syrien als Wirtschaftsgebiet,** Jaffa 1916.

— Tibawi, A. L. : **Arab Education in Mandatory Palestine,** London 1956.